الطفل الموهوب

هرمان هسّه

- Author : Hermann Hesse
- Title: Unterm Rad
- Translated by: Fouad Kamel
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

◆ المؤلف: هرمان هسّه
◆ العنوان : الطفل الموهوب
◆ ترجمة : فؤاد كامل
◆ طبعة آفاق الأولى 2018
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ٢٧٤٠٤
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 147 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

هرمان هسّه

الطفل الموهوب

رواية

ترجمة

فؤاد كامل

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

هسه، هرمان.

هرمان هسّه : الطفل الموهوب- رواية- ترجمة: فؤاد كامل

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

240 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 27404 / 2017

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 147 - 9

1 - الأدباء (روايات)

2 - هسّه، هرمان

قبل أن تقرأ

ولد هيرمان هسّه يوم ٢ يوليو عام ١٨٧٧ بمدينة «كالف» الألمانية، وبدأ حياته بائعًا للكتب بإحدى المكتبات في «توبينجن» و«بازل». وفي سن الحادية والعشرين بدأ في الكتابة وفي نشر قصائده. وبعد سنوات خمس فاز بنجاحه الرئيسي الأول برواياته عن الشباب وعن المشكلات التربوية والتعليمية فقد توالت رواياته التي لاقت نجاحًا كبيرًا بداية من «بيتر كامنتسيند» ثم «الطفل الموهوب»، وأردفهما بـ«جرترود» و«روسهالده» و«دميان» و«سيدهارتا» وغيرها. ولم يلبث أن أقام إقامة دائمة في سويسرا احتجاجًا على النزعة الألمانية العسكرية في الحرب العالمية الأولى، وكانت أنظار العالم الغربي متجهة إليه حينذاك بوصفه شخصية كبرى من الشخصيات الأدبية ذات النزعة الإِنسانية، والباحثة عن الحكمة كما يتجلى ذلك في الروايات التي أعقبت مجموعته الأولى من أمثال: «ذئب البراري»، «نرجس وفم الذهب»، كما كسبت له أشعاره ومقالاته النقدية مكان الصدارة بين المفكرين المعاصرين. وكانت النازية تستنكر كل أعماله، ولا تفتأ تصادر كتبه جميعها، على حين قام الشعب السويسري بتكريمه بأن منحه الدكتوراه الفخرية في الفلسفة، كما قام العالم كله بتكريمه حين مُنح جائزة نوبل للأدب لعام ١٩٤٦،

وهي جائزة استحقها عن جدارة عن روايته «لعبة الكريات الزجاجية» التي ترجمت إلى معظم لغات العالم. بما في ذلك اللغة العربية (ترجمة الدكتور مصطفى ماهر). وتُوفي هيرمان هسّه عام ١٩٦٢ بعد فترة قصيرة من الاحتفال بيوم مولده الخامس والثمانين.

وهذه الرواية التي نقدمها للقارئ اليوم تتضمن إدانة للنظم التقليدية في مجال التربية والتعليم، فهي قصة صبي نابغة تتحطم روحه تحطمًا منتظمًا بواسطة أبويه ومعلميه، إذ لما كانوا يحرصون دائمًا على نجاحه، فإنهم يتناسون دائمًا التفكير في صحته وسعادته. ومن موقفه هذا من تلك المعاملة وضع هيرمان هسّه معظم آرائه عن قيمة التربية الشرقية في تنمية الذات.

فؤاد كامل

الفصل الأول

لم يكن السيد جوزيف جيبنرات السمسار ووكيل الأعمال يتميز بصفات خاصة أو يتصف بخصال تميزه عن أقرانه من المواطنين. وكان يتحلى مثلهم بجسم متين البنيان، موفور الصحة، وبفطنة رجل الأعمال المعقولة، وباحترام يتسم بالإخلاص للمال، دون أن يكون فيه ما يلفت النظر. وكان يمتلك بيتًا صغيرًا خاصًّا تحوطه حديقة. وضريحًا عائليًّا في المدافن، وتربطه بالكنيسة رابطة واهية، وإن كان على احترام بيّن للإله وللسلطة، وعلى خضوع أعمى لتقاليد الطبقة الوسطى المبجلة التي لا تعرف المرونة. وكان يشرب الجعة، ولكنه لا يبلغ مطلقًا حد السكر. وشرع أكثر من مرة في عقد صفقات مريبة نوعًا ما، ولكنه لم يتجاوز قط حدود الشرعية الصارمة. وكثيرًا ما كان يشير إلى من هم أفقر منه إشارة لا تخلو من تحقير بوصفهم «الذين يموتون جوعًا» كما كان يشير إلى من هم أغنى منه على أنهم «محدثو نعمة». وكان عضوًا في مجلس المدينة، ويشارك في مباراة «القناني» (الخشبية) كل جمعة في حانة «النسر»، كما كان يشاطر أيضًا في تذوق المشهيات وحساء السجق عندما يحل «يوم الخبيز». وفي مكتبه كان يدخن السجائر الرخيصة، مدخرًا أنواعها الفاخرة لما بعد الغداء، وفي أيام الآحاد.

وكانت حياته الباطنة حياة شخص محافظ بكل ما في الكلمة من معنى. أما الجانب الذي يتسم بمزيد من الحساسية في شخصيته فقد تراكم فوقه منذ أمد بعيد غبار الإهمال، ولم يعد يتألف الآن من أكثر من الاعتراف التقليدي الغفل الجاهز تمامًا بالأسرة، وبشيء من التباهي بابنه، وبمسارعة عارضة كريمة في مساعدة المحتاجين. أما كبرياؤه العقلية فلم تكن تتجاوز دهاءه الفطري، ولكنه دهاء محصور ضيق الأفق، وبراعة خاصة فيما يتعلق بالأرقام. أما قراءاته فكانت مقصورة على الصحف، وعلى ضروب التسلية التي يتيحها نادي المدينة في الاستعراض السنوي الذي يقوم به هواة المسرح، وعلى زيارة للسيرك من حين إلى آخر، بحيث كان هذا هو كل ما يصبو إليه من عالم الترفيه.

وقد كان من الممكن أن يستبدل باسمه ومسكنه اسم أي صديق آخر من أصدقائه دون أن يكون في ذلك أدنى اختلاف. بل يذهب به الأمر إلى حد أنه في أعماق روحه كان يشاطر كل رؤوس العائلات في المدينة، ارتيابه المتحفز في أي سلطة عليا أو شخصية، وكذلك عداءه الغيور نحو أي شيء غير عادي أو خارج عن المألوف، أي شيء يمت إلى الثقافة بصلة.

في هذا الكفاية عنه. ذلك أن الأمر يتطلب كاتبًا ساخرًا عميق السخرية لكي يتناول وجوده هذا المبتذل. وما ينطوي عليه من مأساة لا شعورية. غير أن لهذا الرجل ابنًا جديرًا بكثير من القول.

لم يكن من شك أن هانز جيبنرات كان طفلًا موهوبًا، وبلمحة واحدة تستطيع أن ترى كيف أنه متميز ومختلف وهو يتحرك بين غيره

من الصبيان الآخرين. هذه البقعة الضيقة من «الغابة السوداء» لم تنجب مثله من قبل. وحتى ذلك الحين لم يخرج أحد من الناس من ذلك المكان إلى العالم، شخص يتجاوز أفقه أو نشاطه الحدود المألوفة. من المحال أن يقول المرء من أين أخذ هذا الصبي عينيه اللتين يشع منهما الجد، وجبينه الذكي، ومشيته التي تنم عن التفوق. ربما أخذ هذا كله عن أمه. وكانت قد توفيت منذ أعوام، ولم يلحظ أحد أثناء حياتها شيئًا خاصًّا يميزها سوى أنها كانت دائمة الشكوى، حمَّالة للهموم. ولا شأن للأب بهذا الذي يتميز به الصبي. إنها إذن الجذوة الغامضة التي تتنزل من الأعالي، قد نزلت هذه المرة على هذا المكان الذي لا يدري به أحد والذي لم يخرج في القرون الثمانية أو التسعة من وجوده سوى كثير من المواطنين المحترمين، ولكنه لم ينجب قط شيئًا على مثل هذه الموهبة أو العبقرية.

وربما ذهب مراقب ذكي من المحدثين. متذكرًا تلك الأم الشاكية الباكية، وواضعًا في حسبانه العمر الطويل الذي عاشته هذه الأسرة، ربما ذهب إلى أن يقول شيئًا عن هذا الذكاء المفرط بوصفه علامة على بداية الانحلال. غير أنه من محاسن المصادفات أن المدينة لم تكن تضم أحدًا على هذه الشاكلة، والشبان الأصغر سنًّا ودهاة الموظفين المدنيين ونظار المدارس هم وحدهم الذين اكتسبوا شيئًا يشبه الصورة الإِجمالية «للإِنسان الحديث» مستمدة من مقالات الصحف. فقد كان من الممكن أن يحيا المرء وينشأ في ذلك المكان دون أي ألفة بأحاديث زرادشت، وكانت الزيجات محترمة وسعيدة في معظم الأحيان، والحياة تجري في

مجراها وفقًا للنموذج القديم الذي لا يحتاج إلى أي إصلاح أو تعديل.. أما المواطنون المترفون الذين يعيشون في أوضاع مستقرة مريحة، وكثير منهم قد تخرج في حرفة العمال الفنيين ثم ارتقوا إلى الطبقة الصناعية المنتجة خلال العشرين سنة الأخيرة، هؤلاء يرفعون قبعاتهم بكل تأكيد عندما يلتقون في طريقهم بالموظفين، بل ويحرصون على صحبتهم، ولكنهم يشيرون إليهم في أوساطهم بأنهم أولئك الذين يتضورون جوعًا، وبأنهم حملة الأقلام. ومن الغريب حقًّا -على كل حال- أنهم لا يتصورون وجود شرف أسمى من السماح لأبنائهم بالدراسة ليصبحوا بدورهم موظفين إذا أتيحت لهم الفرصة. ومن سوء الحظ أن هذا الوضع ما زال حلمًا مباركًا وإن يكن فارغًا، ذلك لأن الدماء الجديدة وجدت طريقها بصفة أساسية من خلال المدارس التي تمسكت بالنظرة الكلاسيكية، ثم بعد ذلك بكثير من العرق والجهد المتكرر في العمل.

لم يكن ثمة شك في مواهب هانز جيبنرات. فالمدرسون، وناظر المدرسة والجيران، والقس المحلي، وزملاؤه من التلاميذ، ما من أحد في الواقع إلا واتفق على أن لهذا الصبي عقلية استثنائية فذة تسترعي الانتباه. ومن ثم فقد كان طريق المستقبل أمامه محددًا بالفعل ومخططًا سلفًا. ففي «سوابيا» -وهي المدينة التي نشأ فيها- لم يكن للصبيان من ذوي المواهب سوى طريق واحد -هذا إذا استطاع آباؤهم أن يوفروا لهم المال اللازم- هو الطريق الذي يؤدي إلى المعهد اللاهوتي عن طريق المدرسة الثانوية، ومن هناك إلى كلية اللاهوت البروتستانتية في توبنجن **Tubingen** ومنها إما إلى منبر الوعظ أو إلى قاعة المحاضرات.

وهذا الطريق الهادئ الأمين يطرقه أربعون أو خمسون طالبًا من إقليم فورتمبورج كل عام، وبأجسامهم النحيلة الضامرة، وبالثقة المتجددة فيهم، وبالاجتهاد الزائد عن الحد يغطون المناطق المتعددة للمعرفة الإنسانية على حساب الدولة، وبعد ثمانية أو تسعة أعوام أخرى يبحرون في الشطر الثاني الأطول من حياتهم، حيث يكون من المتوقع منهم أن يسددوا للدولة المزايا التي تلقوها.

وها هي الامتحانات العامة قد حان موعدها بعد بضعة أسابيع، وهذه الامتحانات هي المسابقة السنوية التي تختار فيها الدولة أروع زهرة من بين عقليات المقاطعة، وخلال تلك الفترة تتصاعد صلوات ورغبات عائلات لا تحصى من المدن والقرى متجهة صوب مقر اللجنة التي تعقد فيها الامتحانات.

وكان هانز جيبنرات هو المرشح الوحيد الذي اعتبرته المدينة الصغيرة جديرًا بالإرسال لاجتياز تلك المحنة الرهيبة من امتحان المسابقة، وكان ذلك في حد ذاته شرفًا عظيمًا، ولكنه لم يكن بغير حق بحال من الأحوال، فقد أضيف درس للغة اليونانية بواسطة ناظر المدرسة إلى عمله الدراسي المعتاد، وهو درس كان يستمر فيه إلى الساعة الرابعة بعد الظهر، وفي السادسة كان القس من الطيبة بحيث يعطيه فترة مراجعة في اللغة اللاتينية واللاهوت، وفي كل أسبوع يتلقى مرتين درسًا خصوصيًّا مدته ساعة من مدرس الرياضة بعد العشاء، وفي اليونانية، كان الاهتمام منصبًّا -بعد حفظ الأفعال الشاذة- على بناء الجمل المتعددة بواسطة استعمال الجزئيات، وكان من المتوقع

أن يكون التركيز على الجمل الواضحة الدقيقة، وأن يكون على ألفة بالمحسنات البديعية المختلفة في الشعر والنثر، وكانت درجة الشرف في الرياضيات تمنح لحل المشكلات الحسابية العويصة. ولا شيء من هذا كله كان له أي قيمة ظاهرة بالنسبة لدراساته الأخيرة، كما كان مدرسوه لا يسأمون من ترديد هذا القول، وإنما كان الأمر في الظاهر فحسب، فالواقع أنها كانت جميعًا مهمة جدًّا بكل تأكيد، أهم كثيرًا من عديد من الموضوعات الرئيسية لأنها كانت تعمل على تنمية ملكاته المنطقية، وتشكل أساسًا لكل استدلال واضح متعقل مفحم.

وللحفاظ على هانز من أي إرهاق ذهني مفرط، وحرصًا على الجانب الروحي في شخصيته من أن يعتريه أي تكاسل نتيجة للإهمال، كان من المسموح له أن يحضر فصول التربية الدينية كل صباح، ساعة قبل الحصص، حيث تشيع نفحة منعشة من الحياة الدينية من كتاب برنز **Brenze** للعبادات، وحفظ الأسئلة والأجوبة عن ظهر قلب لتنبيه الأرواح الصغيرة للطلبة الحاضرين، ولكن وا أسفاه! كان هانز يدمر هذه الساعات من الانتعاش الديني بالنسبة له ويقضي بالحرمان على نفسه من أي بركة يمكن أن يكتسبها، ذلك أنه كان يحشو –خفية– كتابه للعبادات بأوراقه مع قوائم المفردات والتمرينات اليونانية واللاتينية، وينهمك في هذه المعرفة الدنيوية طوال تلك الساعة تقريبًا، ومع ذلك لم يكن ضميره قد طمس تمامًا حتى يمنعه من الشعور بالذنب المشوب بشيء من عدم الارتياح والقلق، فإذا اقترب منه القس، أو ناداه باسمه، وثب في عصبية، وإذا كان لا بد له من أن يعطي جوابًا، تفصَّد العرق من

جبينه، ودق قلبه سراعًا، غير أن إجاباته كانت صحيحة دائمًا، وبلا أي خطأ، فيرضى عنه المعلم رضاء تامًّا.

أما واجباته المكتوبة أو المحفوظة فكانت تتراكم يوميًّا من درس إلى الدرس الذي يليه، فيمكن أن يقوم بأدائها في ساعة متأخرة من المساء في البيت على ضوء مصباح قريب. هذا العمل الهادئ في جو من السلام العائلي الذي عزا إليه مدرس الفصل ذلك التأثير العميق الحافز بوجه خاص، لم يكن يمتد عادة إلى ما بعد الساعة العاشرة مساء في يومي الثلاثاء والسبت، ولكنه كان يصل في الأمسيات الأخرى إلى الساعة الحادية عشرة أو إلى منتصف الليل، ويزيد في بعض الأحيان عن هذا. ومع أن والده كان يزمجر أحيانًا من الاستهلاك الإِضافي للزيت، فقد كان ينظر إلى هذا الانهماك في الدراسة بشيء من الفخر المبتهج، أما في ساعات الفراغ القليلة المتاحة أيام الآحاد والتي يتألف منها عادة سبع الشطر الذي نقضيه من حياتنا، فقد كان يحث بقوة على قراءة مؤلفين لم يدرسا في الحصص المدرسية، وعلى مراجعة قواعد النحو «في اعتدال، طبعًا! مشية أو مشيتان مرتين في الأسبوع ضروريتان للصحة، وسيجلبان إليك كثيرًا من الصحة -وإذا سمح الجو فإنك تستطيع أن تصطحب معك كتابًا في الهواء الطلق- وستجد من اليسير والممتع أن تحفظ أشياء في الهواء الطلق، وارفع ذقنك إلى أعلى قبل كل شيء!».

وهكذا احتفظ هانز بذقنه مرفوعة على قدر استطاعته، ومنذ ذلك الحين استخدم نزهاته بغرض الدرس، ومضى في طريقه خجولًا متحفظًا، وقد شحب وجهه من لياليه الساهرة، وارتسمت حلقات قاتمة

حول عينيه المنهكتين.

قال مدرس الفصل للناظر ذات مرة: «ما رأيك في جيبنرات، أتراه يستطيع الفوز؟».

فأجاب الناظر بشيء من المرح: «سيفعل ذلك بكل تأكيد، فهو موهوب بصورة استثنائية، وما عليك إلا أن تنظر إليه، إنه يتميز بنظرة أثيرية تشع من عينيه».

وكانت هذه الدرجة من الأثيرية قد بدت شيئًا لافتًا للنظر خلال الأسبوع السابق. عينان لا تعرفان الاستقرار يشوبهما نور من الاكتئاب يشع من وجه الفتى الوسيم، وحفرت جبينه النبيل غضون دقيقة تحدث بكثير من التفكير، وذراعاه النحيلتان الرقيقتان ويداه تتدليان إلى جانبيه، بتلك الرشاقة المرهقة التي تميز شخصية من شخصيات المصور «بوتتشيللي».

وقد ظهرت هذه الملامح على مسرح الأحداث حينما تهيأ هانز للسفر في اليوم التالي إلى «شتوتجارت» بصحبة أبيه وليثبت في «الامتحانات العامة» هل هو جدير أو غير جدير بدخول البوابة الضيقة للكلية اللاهوتية، وكان عليه أن يجتاز مقابلة رحيل مع ناظر مدرسته.

قال ذلك السيد المهيب بنعومة غير مألوفة: «ليس عليك أن تقوم بأي عمل هذه الليلة، عدني بذلك، إذ ينبغي أن تصل منتعشًا تمام الانتعاش إلى «شتوتجارت» صباح غد، تجول لمدة ساعة، ثم اذهب إلى فراشك في وقت مبكر، فلابد للشباب أن يأخذ قسطًا وفيرًا من

الراحة أثناء الليل».

وكان هانز مندهشًا من كل هذه الرعاية التي انصبت عليه بدلًا من انهمار الموعظة الحسنة الرهيبة فأطلق تنهيدة ارتياح عند مغادرته لمبنى المدرسة، وكانت أشجار الزيزفون الشاهقة تلمع لمعانًا خفيفًا في ذلك الوقت الدافئ المتأخر من الأصيل المشمس، كما كانت المياه في النافورتين الكبيرتين اللتين تتوسطان ميدان السوق تتساقط وتتألق، وتكشفت الزرقة القاتمة التي تكسو غابة الصنوبر القريبة فوق الخط غير المنتظم للأسطح المتراجعة، وأحس هانز كأن عمرًا قد تولى منذ أن وقعت عيناه على هذا المنظر، واسترعت انتباهه جاذبيته وجماله بقوة غير مألوفة، ومن الحق أنه كان يعاني من صداع، غير أنه لم يكن ملتزمًا بمزيد من الحفظ ذلك اليوم.

سار الهوينى عبر ميدان السوق، واجتاز قاعة المدينة العتيقة مخترقًا حوانيت السوق، وبمحاذاة شاحذ السكاكين حتى وصل إلى الجسر القديم، وهناك تجول زمنًا قصيرًا، ثم جلس أخيرًا على سور الجسر العريض، وكان يمر على هذه البقعة أربع مرات يوميًّا لمدة أسابيع وشهور، دون أن ينظر إلى الكنيسة القوطية الصغيرة المطلة على الجسر، كما لم يكن يرى النهر ولا البوابة التي تتحكم في مياهه، ولا السد، ولا الطاحونة –ولم يكن يرى أيضًا الغدير الذي يستحم فيه الناس، أو الشاطئ الذي نمت عليه أشجار الصفصاف واصطفت على جوانبه مجموعة متتابعة من المدابغ، حيث يتوقف النهر عميقًا هادئًا تكسوه الخضرة وكأنه بحيرة، وحيث تتدلى أغصان الصفصاف على هيئة

أقواس حتى تصل إلى الماء.

وتذكر كم أمضى في هذا المكان من أيام كاملة وغير كاملة من العطلات المدرسية. وكم مارس السباحة والغوص والتجديف والصيد في هذه البقعة. أوه، الصيد وما أدراك ما الصيد! لقد نسي كل ما يعرفه عن هذه الرياضة، وخلال السنة الماضية انخرط في بكاء مرير حين منع منه بسبب الامتحان. فقد كان الصيد أمتع شيء في العام الدراسي الطويل كله. حين يقف هناك تحت الظل الوارف الذي تلقيه أشجار الصفصاف، بين الهمس الذي يترامى إليه من مياه الغدير حين تصطدم بسياج السد القريب، يا لها من مياه هادئة عميقة! والأضواء وهي تتلاعب على صفحة النهر، والانحناء اللطيف لبوصة الصيد الطويل، والإِثارة عندما يغمز الطعم، وسحب السنارة، وتلك الإِثارة الخاصة عندما تمسك بين يديك بسمكة باردة تكافح في محاولة للتملص.

ما أكثر ما اصطاد من أنواع السمك الشبوط الرقيق والداس، والبريل، وغيرها من الأسماك المبرقشة بالألوان. تأمل المياه زمنًا طويلًا، وأمعن الفكر عند منظر هذا النهر الأخضر المنبسط، واستولى عليه الحزن، وهو يشعر بأن المباهج الحرة المحببة إلى نفسه، والتي لا تحمل في طياتها أي مسؤولية، أصبحت الآن بعيدة المنال، وأخرج من جيبه بحركة آلية كسرة من الخبز، وأخذ يحولها إلى كور صغيرة وكبيرة ويلقي بها في الماء، وجعل يراقبها وهي تغوص، والسمك يتخاطفها. جاءت أسماك المنوه والشبوط الصغيرة في بداية الأمر، والتهمت بشراهة قطع الفتات الصغيرة، وهي تدفع القطع الكبير أمامها في خطوط متعرجة. وأعقبتها

أسماك الداس الأكبر منها متئدة حذرة وظهرها العريض الداكن يرتفع ارتفاعًا هينًا من القاع، ودارت في دهاء حول قطع الفتات، ولم تلبث أن ابتلعتها بغتة في أفواهها المفتوحة المستديرة. وانبعثت رائحة دافئة رطبة من النهر الكسول الجاري، وكانت سحابات قلائل متألفة تنعكس في شيء من الغموض على صفحته الخضراء، وارتفع أزيز المنشار الدائري في الطاحونة، ومن السدين انبعث الهدير المكتوم من المياه الباردة المتدافعة. ورجع هانز بخواطره إلى يوم الأحد الذي تأكدت فيه صلاحيته لدخول امتحان المسابقة، وفي أثنائه ضبط نفسه في أوج ذلك الانفعال والرهبة، متلبسًا بتذكر تصريف فعل يوناني. وقد حدث له ذلك كثيرًا في الآونة الأخيرة، فيشرد ذهنه إلى شيء آخر مختلف تمامًا عما هو فيه، وحتى وهو في الفصل كان يفكر دائمًا في عمل آخر مضى أو آت بدلًا من أن يفكر في الموضوع الذي بين يديه. ستكون هذه أعجوبة إذا وقعت له أثناء الامتحان!

وقف شاردًا، لا يستطيع أن يقرر ما سيفعله في اللحظة التالية. وأجفل تمامًا حينما هبطت فوق كتفه يد غليظة، وقال له بصوت ودود: «يوم بديع يا هانز، أتحب أن تسير معي قليلًا في هذا الطريق؟».

كان هذا هو «فليج» صانع الأحذية -الذي قضى في منزله ساعة غريبة عارضة في المساء خلال تلك الأيام الخالية، وقد مضى عليها وقت طويل منذ ذلك الحين. سار هانز إلى جانبه دون أن يعيره غير شطر ضئيل من سمعه وهو يلقي عليه مواعظه التقية الساذجة. وكان فليج يتحدث عن الامتحان، وتمنى لهانز حظًّا سعيدًا، ولم يبخل عليه

بكلمات التشجيع. غير أن الموضوع الرئيس انصب على أن الامتحانات التي من هذا النوع كانت خارج الروتين المعتاد، وأن الإِخفاق فيها ليس عارًا، وقد يحدث هذا الإِخفاق لأفضل الطلبة، فإذا أخطأه الحظ، فعليه أن يتذكر أن للرب خططًا خاصة وطريقًا معلومًا عنده لكل روح.

ولم يكن ضمير هانز واضحًا تمام الوضوح فيما يتعلق بفليج. كان يحمل احترامًا عظيمًا لشخصيته القوية المؤثرة، ولكنه سمع نوادر كثيرة انضم إلى رواتها -ضد حكمه الأفضل في كثير من الأحيان- عن وعاظ أوساط الناس، وفضلًا عن ذلك أحس بالخجل من جبنه -لأنه كان يتجنب صانع الأحذية- وقد مرت على ذلك فترة ملحوظة -خوفًا من أسئلته المحرجة. ومنذ أن أصبح هانز مفخرة لمدرسيه، ومزهوًّا بنفسه إلى حد ما، كان فليج يرمقه بنظرة شديدة الغرابة. وكان الصبي قد أفلت بالتدريج من قبضة ناصحه الأمين الذي لا يريد له سوى الخير، ذلك أن هانز كان في مرحلة التحدي التي تتسم بها المراهقة، وكان جهاز استقباله حساسًا لأي تدخل في شخصيته. وكان الآن يوسع الخطى إلى جانبه، متناسيًا نظرات فليج القلقة الحانية التي يغدقها فليج عليه.

وفي ميدان الحرس الملكي التقيا بالقس. فألقى إليه صانع الأحذية بتحية رسمية فاترة، وفجأة انفجر في حالة من النشاط الشديد -ذلك أن القس كان واحدًا من المدرسة الجديدة في الفكر، وفقًا لما تروجه الشائعات- واشتهر عنه أنه لا يؤمن حتى بالبعث. لكنه (أي القس) اصطحب الغلام معه.

وسأله قائلًا: «كيف حالك؟ يبدو أنك تشعر بالارتياح لأنك بلغت

المرحلة الحالية».

– «أجل، أنا مسرور جدًّا».

– «عظيم، لا تقلق. أنت تعلم أننا نعلق عليك آمالًا كبارًا وأنا أتوقع منك جيدًا في اللاتينية بوجه خاص».

فقال هانز في حياء: «ولكن، افترض أنني رسبت»!

– «رسبت؟».

وقف القس عند هذه الكلمة، كأنما أصيب بصدمة وقال:

– «الرسوب محال بكل بساطة. محال تمامًا. يا لها من فكرة!».

– «أنا لا أعني سوى أنه قد يحدث...».

– «لا يمكن أن يحدث يا هانز، لا يمكن أن يحدث، لا تشغل بالك بهذا، والآن احمل إلى أبيك أطيب تمنياتي، ولا تبتئس».

وتابعه هانز بعينيه، ثم تلفت حواليه بحثًا عن صانع الأحذية. ماذا قال؟ إن الأمر لا يهم كثيرًا فيما يتعلق باللاتينية ما دمت تحتفظ بقلبك في المكان المناسب وتخشى الله. وكان من اليسير عليه أن يتكلم. والآن جاء دور القس. إنه لن يستطيع أن يواجهه مطلقًا لو أنه رسب.

وبقلب منقبض زحف إلى البيت، ومنه لف إلى الحديقة المنحدرة الصغيرة، وهناك كان يقوم بيت صيفي متداع للسقوط، مهجور منذ زمن بعيد، وكان قد احتفظ فيه بصندوق قديم أيام طفولته ليربي فيه الأرانب ثلاثة أعوام متتالية، ولكنها أخذت منه في الخريف الماضي بسبب الامتحان. فلم يعد لديه من الوقت ما يسمح له بمثل هذه المشاغل الصغيرة.

ولم يكن قد زار هذه الحديقة منذ أمد طويل؛ فبدا له الكهف الخاوي خربًا متهدمًا، وكانت عناقيد الرواسب الجيرية المتكونة عند الركن قد انهارت، وعجلة المياه الخشبية الصغيرة رقدت مشدودة بالحبال ومكسورة إلى جانب القناة. وتذكر الزمان الذي نشر فيه هذا كله وشيده، والمتعة التي استمدها من العملية كلها. كان ذلك منذ سنتين، كأنهما الأبدية. التقط العجلة وفردها، ثم كسرها إلى قطعتين، قذف بهما إلى السور. ألا بعدًا لهذه اللعبة، لقد انتهى كل شيء منذ فترة بعيدة. وعند هذه النقطة تذكر صديق الدراسة أغسطس. لقد كان هو الذي ساعده في بناء عجلة المياه، وتركيب صندوق الأرانب. وكم من أصائل لعبا معًا في هذا المكان، واصطادا بالمنجنيق، ونصبا كمائن للقطط، وأقاما خيامًا، وأكلا الجزر بطينه في العشاء. ثم بدأت أيام العمل الجاد، وترك أغسطس المدرسة، منذ عام، وأصبح صبيًّا لميكانيكي. ولم يره بعد ذلك إلا في مناسبتين فحسب، فهو أيضًا لم يكن لديه الآن ثمة وقت.

تسابقت ظلال السحب فوق الوادي، وكانت الشمس قد غاصت فعلًا صوب حافة الجبل. وانتابت هانز لحظة أحس فيها أنه ينبغي عليه أن يلقي بنفسه على الأرض، وأن ينخرط في البكاء بصوت عال. ولكنه بدلًا من أن يفعل ذلك بحث عن فأس في الظلة وطوح به في الهواء بذراعيه النحيلتين، ومزق صندوق الأرانب شر ممزق وتطايرت الشظايا، وانثنت المسامير محدثة صريرًا، وظهرت في النور كمية من طعام الأرانب الفاسد المتعفن تركت منذ الصيف الماضي. قذف بكل شيء

بعيدًا، وكأنه حين يفعل ذلك يأمل أن يقتل الحنين الذي ما برح يشعر به نحو الأرانب وأغسطس وتلك الألعاب الطفولية القديمة جميعًا.

وصاح أبوه من النافذة: «الآن، الآن، ماذا يجري هناك، ماذا تصنع؟».

– «أحتطب بعض الخشب للمدفأة».

لم يجب أكثر من ذلك، وإنما ألقى الفأس، وأخذ يركض عبر الفناء، والممر، حتى بلغ شاطئ النهر. وهناك في الخارج، قريبًا من مصنع الجعة، كان يرسو زورقان، وما أكثر ما استقل زورقًا في الأيام الخوالي وطفا على سطح الماء ساعات طويلة في الأصائل الدافئة تهدهده وتجعله منفعلًا في الوقت نفسه بهذه الرحلة فوق الماء الذي كان يلعق جذوع الشجر. قفز عبر الأخشاب الطافية غير المربوطة. ورقد على كتلة من الصفصاف الصلب، محاولًا أن يتخيل أن القارب أخذ يطفو، حينًا بسرعة وحينًا آخر ببطء وسط الغياض والحقول والقرى وأطراف الغابة الباردة، وتحت الجسور، من خلال الثغرات المفتوحة، وهو راقد عليه، وكل شيء كما اعتاد عليه حينما كان يجمع طعام الأرانب في «الكابرج»، ويصطاد على ضفاف النهر في حديقة دابغ الجلود، دون أن ينتابه الصداع، أو تكون لديه هموم يريد أن يتخلص منها.

ويمم وجهه شطر البيت لتناول العشاء، مرهقًا لا يقر له قرار. وكان والده في شدة الانفعال بسبب الرحلة إلى «شتوتجارت» من أجل الامتحان وجعل يتساءل مرة بعد أخرى، هل حُزمت الكتب، وهل ارتدى حلته السوداء، وهل يريد أن يراجع النحو أثناء سيره في الطريق، وهل يشعر أنه في أحسن حالاته. وكان هانز يرد عليه بإجابات مقتضبة

موجزة، ولم يتناول من الطعام سوى أقله، وسرعان ما ألقى إليهم بتحية المساء.

- «طابت ليلك يا هانز، حاول أن تنام جيدًا! سأوقظك في الساعة السادسة. إنك لم تنس قاموسك، أليس كذلك؟».

- «كلا، لم أنس المعجم: طاب مساؤك!».

رقد طويلًا في حجرته الصغيرة دون أن يضيء النور. وكانت هذه هي النعمة الوحيدة التي جلبها إليه الامتحان حتى الآن -هذه الحجرة الصغيرة الخاصة به التي يستطيع أن يأوي إليها دون أن يزعجه إنسان، ودون أن يسائله أحد. وهنا كان يسترسل مع خواطره في ساعات الأمسيات الطويلة- عنيدًا، متحديًا، طموحًا -يناضل الإرهاق، والنوم، والصداع الذي ينتابه من أجل «قيصر» و«إكزيموفون»، ودرس النحو، والقواميس، ومشكلات الرياضة، حتى يصل إلى شفا اليأس. وهنا أيضًا أمضى الساعات القليلة التي كانت أثمن من كل مباهج الصبا الزائلة. تلك الساعات القلائل النادرة الساحرة المفعمة بالزهو والإثارة والنصر عندما كان يحلم ويتمنى أن يكون بعيدًا عن المدرسة، وعن الامتحانات، وكل ما يتصل بهما من قريب أو بعيد، منتقلًا إلى وسط يتألف من كائنات أسمى، وحينذاك يستولي عليه ذلك الوعي الجسور، السعيد بأنه خلق من مادة مختلفة حقًّا- أفضل من لداته ذوي الوجنات المربربة والنفوس الطيبة، ولعله ينظر إليهم ذات يوم من عليائه. بل إنه حتى في الوقت الحاضر أخذ نفسًا عميقًا، وكأنما ثمة هواء أكثر حرية وبرودة يدور في هذه الحجرة أكثر من أي مكان آخر، وجلس على الفراش، وأمضى بضع

ساعات في العتمة مع الأحلام، والآمال، والأشواق، وفي بطء شديد أطبقت جفونه الرقيقة على عينيه الواسعتين الكليتين، ولم يلبث أن فتحهما مرة أخرى ليرمش بهما، ثم أطبقت الجفون تمامًا، وغاص رأسه الشاحب الصبياني بين كتفيه المحنيتين، وانبسطت ذراعاه النحيلتان إلى الأمام من التعب. استولى عليه النعاس وهو ما زال في ملابسه الكاملة، وأخذت يد النوم الحنون الأمومية تهدئ من ثائرة الأمواج المتدافعة في قلبه الصبياني القلق، ومحت الغضون الدقيقة التي ارتسمت على جبينه الوسيم الغض.

* * *

كان شيئًا مذهلًا.. تجشم القس مشقة الذهاب إلى المحطة في ساعة مبكرة جدًّا. وكان السيد جيبنرات، يقف متصلبًا في سترته الفراك السوداء، عاجزًا عن الوقوف ثابتًا من الإثارة والسرور والزهو، يهرول بعصبية متنقلًا من الناظر إلى هانز، مبلغهما بكل الرسائل التي تحمل لهما التمنيات بـ«رحلة طيبة» و«أسعد الحظوظ» لابنه في الامتحان من موظفي المحطة، وكان يمسك بحقيبة ملابسه الصغيرة مرة في يده اليمنى، ومرة في يده اليسرى. وفي لحظة كان يحتفظ بمظلته تحت إبطه، وفي اللحظة التالية يدسها بين ركبتيه، وقد أسقطها عدة مرات، وانتهى به الأمر إلى أن تركها على الأرض، ثم تناولها ثانية. ويمكن أن تظن أنه يتأهب للرحلة إلى أمريكا، وليس إلى «شتوتجارت» والعودة منها. وكان ابنه هادئًا تمام الهدوء في الظاهر، ولكنه كان يكبت في نفسه خوفًا خفيًّا.

وصل القطار ثم توقف، وصعد الركاب، ولوح الناظر بيده، وأشعل أبوه سيجارًا، واختفت المدينة والنهر عن ناظريه في أسفل الوادي. وكانت الرحلة عذابًا لكليهما.

ووثب أبوه فجأة حين بلغا «شتوتجارت» وبدأ يظهر بمظهر الشخص المرح، حسن المعشر مرة أخرى، وأبدى كل الإِثارة التي تظهر على ساكن المدينة الصغيرة حين يأتي إلى العاصمة لقضاء أيام قلائل. وصار هانز أكثر قلقًا، وإن أخفى هذا القلق في طيات هدوئه. كان يشعر بانقباض عميق بداخله وهو يتلقى أول منظر للمدينة، الوجوه الغريبة، المنازل المبتذلة المزدانة بزينة مبالغ فيها، الشوارع الطويلة المرهقة، العربات التي تجرها الجياد، ضجة المرور.. كل هذا بعث في نفسه شيئًا من الخوف والكآبة. وأنزل عند عمة له حيث كانت الحجرات الغريبة، وفصاحة عمته المرحة، وملاحظات التشجيع الطويلة التي لا نهاية لها من أبيه مدعاة لانقباضه الشديد وبالشعور بأنه غريب وغير متلائم مع المكان، جلس في تلك الحجرة، وعندما نظر إلى الأشياء غير المألوفة المحيطة به: عمته، وثيابها التي تنم عن أنها من سكان العاصمة، والبساط بنموذجه الكبير، وساعة الحائط القائمة فوق المدفأة، والصور المرصوصة على الجدار أو -من خلال النافذة- والشوارع ذات الضجيج، أحس بأنه قد خدع على نحو ما، وراوده الانطباع بأنه ابتعد عن بيته زمنًا أبديًّا، ونسي تمامًا كل المعرفة التي اكتسبها في عناء شديد.

وكان قد اعتزم مراجعة جزئياته اليونانية بعد الظهر، غير أن عمته اقترحت أن يقوما بجولة. وتخيل هانز لحظة احتمال رؤيته للغياض

الخضراء، والاستماع إلى حفيف الأشجار، غير أن هذا التخيل لم يدم سوى لحظة واحدة أمام بصيرة هانز الباطنة، فوافق على الفور في شيء من المرح. ولكنه سرعان ما أدرك أنه حتى هذه الجولة كانت نوعًا مختلفًا من المتعة. هنا في هذه المدينة الكبيرة عما كانت عليه في مدينته.

خرج وحده مع عمته، إذ كان والده يقوم ببعض الزيارات في المدينة. وبدأت المحن التي تعرض لها منذ أن وطئت قدمه درجات السلم. فقد التقيا بسيدة بدينة، فخمة المظهر أخذت العمة تجاملها وشرعت معها في حديث كانت متلذذة منه كل التلذذ. وهكذا تجاذبت السيدتان أطراف الحديث أكثر من ربع ساعة. وفي هذه الأثناء استند هانز إلى الدرابزين، وانتابته نوبة من العطس، وأخذ كلب السيدة يزمجر في وجهه، وأدرك إدراكًا غامضًا إنه كان موضوع حديثهما، لأن السيدة كانت ترمقه مرارًا وتكرارًا من خلال نظارتها. وما إن خرج إلى الشارع هو وعمته، حتى دخلت عمته حانوتًا، وقضت ردحًا من الزمن قبل أن تعود إليه. وفي هذه الأثناء كان هانز يقف حييًا في الشارع تتدافعه المارة، ويتصايح به صبيان الشارع. وعندما ظهرت عمته ناولته مستطيلًا من الشيكولاتة، فشكرها في أدب، وإن لم يكن يحب الشيكولاتة. واستقلا عربة تجرها الجياد في ركن الشارع التالي، وارتفع صليل العربة وهي تجتاز بهما شوارع لا تنتهي أبدًا، وسط زحام الركاب الشديد، وبمصاحبة جرس يدق بلا انقطاع حتى وصلا في نهاية المطاف إلى طريق واسع ومتنزه موشى بالزينات.. وخلال هذا المتنزه يجري جدول تحيط به أسوار من أحواض الزهر المزدهرة وتسبح أسماك ذهبية في

بحيرة صناعية. تجولا هنا وهناك، جيئة وذهابًا وطافا وسط جماعات من السابلة مثلهما، وشاهدا حشدًا من الوجوه المختلفة، والثياب الأنيقة، والدراجات، وكراسي المرضى والمتنزهين، وسمعا لغات متعددة كأنهما في برج بابل، وتنفسا هواء دافئًا متربًا. وفي نهاية المطاف جلسا على أريكة، تجاورا فيها مع أناس آخرين. ولم تكف عمته عن الكلام. وها هي الآن تتنهد وتبتسم ابتسامة ودود إلى ابن أخيها، وتدعوه إلى أن يأكل قطعة الشيكولاتة، ولم تكن به رغبة في ذلك. «بحق السماء! لا يمنعك الحياء! كلها فحسب».

انتزع القطعة المستطيلة من جيبه وأزاح ركنًا من الورقة المفضضة وأخيرًا قضم قطعة متواضعة جدًّا. كان يكره الشيكولاتة وإن لم يجرؤ على الاعتراف بهذا لعمته، وبينما كان يمتص القطعة الصغيرة ويحاول أن يبتلعها في جوفه. اكتشفت عمته شخصًا تعرفه وسط الزحام، فهرعت إليه.

– «اجلس هنا، وسأعود إليك بعد لحظة».

اغتنم هانز هذه الفرصة، ورمى مستطيل الشيكولاتة بأقصى ما في وسعه على المرج الأخضر. ثم أخذ يهز ساقيه جيئة وذهابًا، وهو يحملق في الناس كافة، شاعرًا بأنه بائس. وفي نهاية المطاف شرع في مراجعة الأفعال الشاذة، فأصيب بالذعر حين اكتشف أنها قد محيت تمامًا من رأسه. لقد نسيها تمامًا. وغدًا سينعقد الامتحان العام.

عادت عمته بعد أن جمعت في هذه الأثناء هذه المعلومة، وهي أن المرشحين لهذا الامتحان بلغ عددهم هذا العام مائة وثمانية عشر

طالبًا. غاص قلب الفتى حتى حذائه، ولم يتفوه بكلمة أخرى طوال طريق العودة. وعاوده الصداع عندما دخل المنزل، وفارقته الشهية لأي طعام، وأخذ يذرع الحجرة في حالة شديدة من الاكتئاب جعلت والده يتحدث إليه في قسوة، بل إن عمته أيضًا اعتقدت أنه يتصرف تصرفًا لا يطاق. ونام نومًا عميقًا وإن يكن لا راحة فيه، تطارده فيه مشاهد كابوسية. رأى نفسه جالسًا في قاعة الامتحان مع مائة وسبعة عشر من الممتحنين الآخرين، والممتحن الذي بدا لأول وهلة شبيهًا بالقس الذي يعرفه في مدينته، ثم شبيهًا بعمته، وضع أمامه جبالًا من الشيكولاتة كان من المتوقع منه أن يأكلها. وبينما كان يأكل، وقد امتلأت عيناه بالدموع، رأى الآخرين يصطفون الواحد تلو الآخر ويختفون من خلال باب صغير. وقد استهلكوا جميعًا نصيبهم من الشيكولاتة، أما قطعته هو فقد ظلت تعلو وتعلو وهو يراقبها، وفاضت على المنضدة والمكتب وكأنما تريد أن تخنقه.

وفي اليوم التالي، عندما كان هانز يحتسي قهوته دون أن يجرؤ على أن يصرف عينيه عن ساعته خوفًا من أن يتأخر عن امتحانه، كان يشغل أفكار كثير من الناس في مدينته، وبخاصة فليج صانع الأحذية. فقد كان فليج يصلي قبل الإِفطار مع أفراد عائلته ومساعديه، وقد وقف الصبيان في دائرة حول المائدة، وأضاف الرجل إلى صلاته الصباحية المعتادة هذه الكلمات: «إلهي، فلتشمل برعايتك التلميذ هانز جيبنرات الذي يجلس اليوم للامتحان، أغدق عليه بركاتك وأيده حتى يصبح ذات يوم داعية قويًّا لا يخشى لومة لائم إلى اسمك المقدس!».

وإذا لم يكن القس قد أدى الصلاة فعلًا من أجله، فقد قال أثناء تناول الإفطار: «سيكون جيبنرات قد دخل الآن قاعة الامتحان. سيكون أداؤه ملحوظًا، ولا بد أن يلتفتوا إليه، ولن يصيبني أي ضرر لأنني ساعدته في دروس اللاتينية».

وقبل ابتداء الدراسة، قال معلم الفصل لتلاميذه: «الامتحانات العامة على وشك الابتداء في شتوتجارت، وعلينا أن ندعو لجيبنرات بأحسن الحظوظ، لا لأنه يحتاج إليه، فهو يساوي عشرة من الكسالى أمثالكم!» ومع هذا القول كان معظم الصبيان يفكرون الآن في التلميذ الغائب، أو على كل حال كان عدد كبير منهم قد راهن بعضهم بعضًا على نجاحه أو فشله.

وكما أن الشفاعة المخلصة والتعاطف الباطن يمكن أن يعبر المسافات البعيدة، فإن هانز كان يدرك أنهم يفكرون فيه في موطنه، حقًّا، لقد دخل قاعة الامتحان بصحبة أبيه، بقلب شديد الخفقان، وبعصبية وخوف اتبع تعليمات المراقب، وتلفت حواليه في الحجرة الواسعة الممتلئة بأولاد شاحبي الوجوه –وكأنه مجرم يساق إلى حجرة التعذيب. ولكن، ما إن وصل الأستاذ وأمرهم بالصمت، وأملى النص الخاص بورقة الأسلوب اللاتيني، حتى وجد هانز هذا النص –وهو الذي كان يتنفس بصعوبة– وجده لعب أطفال، وبسرعة، بل وفي شيء من الفرح، كتب مسودته واستنسخها بخط أنيق، ثم كان من أوائل الذين سلموا نسخهم للمراقب. ومن الحق أنه ضل طريق عودته إلى منزل عمته، وتجول في الشوارع القائظة زهاء ساعتين غير أن ذلك لم

يضايقه كثيرًا، وكان في حالة من السرور جعلته يتهرب من عمته وأبيه فترة معينة، ويتجول خلال الحي السكني ذي الضوضاء العالية وكأنه مكتشف جسور. وبعد أن ألقى كثيرًا من الاستفسارات وجد طريقه إلى المنزل، وهناك انهمرت عليه الأسئلة.

- «كيف سار الحال؟ ماذا كانت الأمور؟ هل عرفت الإجابة؟».

قال في زهو: «كان الأمر يسيرًا.. وكنت أستطيع أن أقوم بترجمته وأنا في الفصل الثالث».

وأكل بشهية مفتوحة.

لم يكن لديه امتحان بعد الظهر. فاصطحبه والده لزيارة بعض الأصدقاء والأقارب. وفي أحد منازلهم التقوا بصبي خجول يرتدي حلة سوداء جاء هو أيضًا ليؤدي الامتحان العام، وكان قادمًا من جوبينجن. وترك الكبار الصبيين لحالهما، فأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر في فضول.

وسأل هانز: «كيف كان حالك مع اللاتيني؟ سهلًا، أليس كذلك؟».

- سهلًا بدرجة فظيعة، ولكن الأمر على هذا المنوال دائمًا، فأنت تخطئ وترتكب كثيرًا من الزلات في أسهل الامتحانات. تصبح مهملًا، من المؤكد أن الورقة كانت تحتوي على عقد خفية».

- «أتعتقد ذلك؟».

- «طبعًا. الممتحنون ليسوا أغبياء».

استولى الخوف إلى حد ما على هانز، فاستغرق في التفكير، ولكنه

وجه هذا السؤال وهو فاتر الهمة، «هل أحضرت معك الورقة؟».

فأخرج الصبي دفتر تمريناته، وأخذا يترجمان المقطوعة كلمة كلمة. كان يبدو أن التلميذ القادم من جوبينجن خبير باللاتينية -فهو قد فطن مرتين على الأقل إلى دلالات نحوية لم يسمع عنها هانز قط.

- «وماذا عن غد؟».

- «اليونانية والمقالة».

ثم سأل التلميذ القادم من جوبينجن عن عدد الممتحنين القادمين من مدرسة هانز.

فقال هانز «أنا وحدي، ولا أحد غيري».

- «أوه، هناك اثنا عشر طالبًا من جوبينجن بما في ذلك ثلاثة مرشحين لامعين من المتوقع أن يحتلوا المراكز الأولى. وفي العام الماضي كان الأول من بيننا أيضًا. هل ستذهب إلى مدرسة من المدارس الثانوية إذا فشلت؟».

ولم تكن هذه المسألة قد نوقشت من قبل أبدًا.

- «لا أدري.. كلا، أشك في ذلك».

- «حقًّا؟ أما أنا فسأواصل دراساتي على كل حال، حتى لو فشلت الآن. سوف ترسلني أمي إلى مدينة (أولم)».

كان هذا الحديث بالغ التأثير على هانز، وأحس بأنه عصبي أيضًا فيما يتعلق بالمتقدمين الاثني عشر القادمين للامتحان من جوبينجن وبما يضمون من الثلاثة اللامعين بوجه خاص. ولم يعد يحتمل أن يظهر

نفسه مرة أخرى.

جلس عند عودته إلى البيت وأخذ يراجع أفعال اليونانية التي تبدأ بـ(mi) لم يكن يخشى شيئًا فيما يتعلق باللاتينية، كان يشعر أنه يقف على أرض آمنة فيما يتعلق بهذه المادة. ولكنه كان يشعر بشعور نحو اليونانية. كان يحب اللغة اليونانية، وكان حبه أقرب إلى الهيام بها ولا سيما فيما يتعلق بالقراءة فحسب: «إكزينوفون» -على سبيل المثال. ما أجمل الأسلوب الذي كتب به وما أشد تأثيره، إنه يتحلى بنضارة آسرة، وقد يبدو مبتهجًا، جذابًا، قويًّا، ويتميز بروح خفيفة، ومن اليسير متابعته. ولكن ما إن يأتي النحو، أو يكون عليه أن يترجم من الألمانية إلى اليونانية، فها هنا يجد نفسه ضائعًا في متاهة من القواعد المتضاربة والاستعمالات المتباينة، فكان يشعر بنفس هذا الخوف القلق إزاء هذه اللغة الأجنبية، كما أحس أثناء الدرس الأول عندما لم يكن يعرف قراءة أبجديتها.

وكان اليوم التالي يضم امتحان اليونانية، تتبعه كتابة مقالة بالألمانية. وكان امتحان اليونانية طويلًا إلى حد ما، أما المقالة فلم تكن كذلك بحال من الأحوال، موضوع المقالة صعب، يحوطه شيء من الغموض. وابتداء من الساعة العاشرة كان الجو قيظًا خانقًا في قاعة الامتحانات. وكان سن القلم الذي يكتب به هانز لا يسلس له على نحو ما، فأفسد ورقتين قبل أن يكمل تبييض إجاباته اليونانية. وفي أثناء معالجته للمقال كاد يستولي عليه الاهتياج بسبب جار وقح له قذفه بقطعة من الورق تحتوي على سؤال، وأخذ يضايقه في محاولة لإرغامه على الإجابة.

وكان الاتصال بجيرانه ممنوعًا منعًا باتًا، وإن اكتشف أمره ترتب على ذلك حرمان الطلبة المتورطين من الامتحان دون حق في التظلم. كان هانز يرتعد خوفًا، فكتب: «اتركني وشأني» على الورقة، وأدار ظهره للسائل. كان الجو قائظًا.. وحتى المراقب الذي كان يذرع القاعة جيئة وذهابًا بخطوات محسوبة دون أن يتوقف أبدًا، مسح وجهه بمنديله عدة مرات. وتصبب هانز عرقًا بسبب حلته الثقيلة، وقاوم صداعًا أصابه، وأخيرًا قام بتسليم أوراقه، وهو أبعد ما يكون عن الشعور بالسعادة، ومقتنعًا بأنها كانت حافلة بالأخطاء، وأنه قد أضاع الآن تمامًا الفرص التي أتيحت له فيما يتعلق بالامتحان. ولم يتكلم حين جلس إلى المائدة، مكتفيًا بهز كتفيه كلما وجهوا إليه أي أسئلة.. ومن يحكم عليه استنادًا إلى التعبير المرتسم على وجهه يظن أنه قد اقترف جريمة. وقالت عمته بعض كلمات المواساة، أما أبوه فقد قام من مجلسه متضايقًا تمامًا منه. وبعد العشاء، اصطحب الصبي إلى الحجرة المجاورة وحاول انتزاع الإجابات منه.

قال هانز: «كان الأمر فظيعًا».

– «لماذا لم تجشم نفسك العناء الصحيح؟ من المؤكد أنك تستطيع التحكم في نفسك. اللعنة على كل شيء!».

ظل هانز صامتًا، ولكن عندما شرع أبوه في صب اللعنات، احمر وجهه وقال: «إنك لا تعرف شيئًا عن اليونانية!».

وأسوأ ما في الأمر هو أنه كان سيجلس للامتحان الشفاهي الذي سيعقد في الساعة الثانية بعد الظهر. كان هذا الجزء من الامتحان هو

الذي يرعبه أشد الرعب. وأحس أنه بائس كل البؤس في طريقه خلال تلك الشوارع القائظة، ولم يكن يستطيع الرؤية إلا بصعوبة شديدة من جرَّاء الخوف والدوار. جلس عشر دقائق كاملة أمام مائدة طويلة مكسوة بقماش أخضر في مواجهة ثلاثة من الأساتذة، ترجم فيها فقرة يونانية، وسُئل مرة أخرى. وأرادوا أخيرًا أن يعرفوا الزمن الماضي لفعل من الأفعال الشاذة، فلم يستطع الإجابة.

– «تستطيع أن تنصرف الآن –الطريق من هنا، والباب على اليمين».

اتجه نحو الباب، ولكنه قبل أن يصل إليه تذكر التصريف الماضي لذلك الفعل، فتوقف عن المسير.

– «امض في سيرك، امض! أتشعر بأنك لست على ما يرام؟».

– «كلا، وإنما تذكرت بغتة تصريف الفعل».

وهتف به في الحجرة، فرأى واحدًا من الأساتذة يضحك، ثم انطلق من الحجرة كالسهم، وكأنما شبت النار في رأسه. وحاول أن يفكر في الأسئلة، وفي الأجوبة، فاختلط كل شيء كأنما في دوامة. السطح الأخضر الواسع للمائدة، الأساتذة الثلاثة الموقرون في ستراتهم الفراك... سبح هذا كله أمام عينيه، والكتاب المفتوح وقد وضع يده المرتعشة عليه. يا للسماوات من فوقه، أي نوع من الإِجابات تلك التي أدلى بها!.

وبينما كان يتجول في الطرقات، أحس وكأنه كان موجودًا هنا منذ أسابيع، وأنه لن يستطيع أن يبتعد عنها أبدًا. وكانت صورة حديقة أبيه،

والتلال الزرقاء التي تكسوها أشجار الصنوبر، والبقعة التي يجلس فيها للصيد من النهر، بدت له جميعًا بعيدة كل البعد، أشبه بشيء رآه منذ أمد بعيد. آه لو استطاع أن يرحل إلى بيته اليوم! فلا جدوى من البقاء أطول من ذلك، فلقد نسف امتحانه على أي حال.

واشترى لنفسه شطيرة باللبن، وأخذ يتجول في الشوارع طيلة العصر تجنبًا لما قد يوجهه إليه أبوه من الأسئلة. وحين وصل أخيرًا إلى البيت كان القلق قد بدأ يساورهم عليه. ولما كان يبدو مرهقًا مكتئبًا، فقد قدموا إليه حساء مخلوطًا ببيضة، وأرسلوه إلى الفراش. وفي اليوم التالي كان امتحان الرياضة واللاهوت، وبعدهما يستطيع أن يعود إلى بيته. وفي عصر اليوم التالي كانت الأمور أهون كثيرًا. وكان من السخرية المريرة في نظر هانز أن تسير الأمور في ذلك اليوم على خير ما يرام بعد حظه السيئ في المواد الرئيسة. وكانت النقطة الأساسية الآن هي أن يرحل، أن يذهب إلى بيته.

أعلن إلى عمته قائلًا: «لقد انتهت الامتحانات، نستطيع الآن أن نعود إلى بيتنا».

وكان أبوه يريد أن يذهب إلى «كانشتات» ويحتسي القهوة في «الكورجارتن» غير أن هانز توسل في إلحاح بأن يسمح له أبوه بالرحيل وحده، بعد أن يصحبه إلى المحطة. قامت العمة بتقبيله، وأعطت له التذكرة وشيئًا من الطعام. وسافر وهو يشعر بالإرهاق، وبأن عقله صفحة بيضاء، سافر متجهًا إلى البيت فوق أراض جبلية خضراء. ولم يشعر بالفرح إلا بعد أن تراءت له «تاننبرج» الزرقاء-السوداء. فأخذ

يفكر بسعادة غامرة في بيتهم القديم، وحجرته الصغيرة، وفي الناظر، وفي الفصل المألوف المنخفض، وفي كل تلك الأشياء الأخرى.

ويشاء حظه السعيد ألا يجد في المحطة أحدًا من معارفه الفضوليين، فاستطاع أن يسرع إلى البيت دون أن يلحظه أحد، وهو يحمل لفافته الصغيرة.

سألته آنا العجوز: «أكانت شتوتجارت لطيفة؟».

– «لطيفة؟ أتظنين أن الامتحان يمكن أن يكون لطيفًا؟ كل ما في الأمر أنني أشعر بالسعادة لعودتي إلى هنا مرة أخرى. ولن يأتي والدي إلا غدًا».

ورشف جفنة من اللبن الطازج، والتقط مايوه السباحة الذي كان معلقًا أمام النافذة، وأخذ يعدو –ولكن ليس إلى البحيرة التي يسبح فيها الآخرون جميعًا– وإنما سار في طريق طويل إلى خارج المدينة إلى **Waage** حيث يجري النهر عميقًا متئدًا بين أشجار سامقة. وهناك خلع ملابسه، واختبر الماء البارد بيده أولًا، ثم بقدمه بعد ذلك، فارتجف قليلًا، ثم غاص بغتة في الماء. وأحس بالعرق، وتلاشى القلق الذي ساوره في الأيام القلائل الأخيرة وهو يناضل التيار الهين. وضم النهر جسده النحيل إلى حضنه البارد، وأدرك أنه يحمل عاطفة جديدة لمدينته الجميلة، وموطن رأسه. وأخذ يسبح الآن بمزيد من السرعة، واستراح، ثم واصل السباحة، وانتشى بالبرودة الفاتنة والتعب الذي استولى عليه. واستدار على ظهره وترك نفسه طافيًا مع التيار مرة أخرى، وأنصت إلى بلبل يغرد بصوت رفيع، ورفع بصره إلى سماء اللحظات المتأخرة من

المساء تقطعها باستمرار أسراب العصافير المنطلقة كالسهام، وقد غشيتها الشمس التي اختفت بالفعل وراء الجبال، بألوان الشفق الوردية. وعندما ارتدى ثيابه مرة أخرى واتجه إلى البيت متلفعًا بالأحلام كان الوادي قد امتلأ فعلًا بالظلال.

سار عبر حديقة «ساكمان» البقال التي سرق منها ذات يوم مع عصبة من الصبيان الصغار، بعض ثمار الخوخ التي لم تنضج بعد، كما اجتاز فناء «كرشنر» الذي يضع فيه الأخشاب حيث كانت ألواح الصنوبر البيضاء ترقد هنا وهناك، وحيث كان يعثر تحتها دائمًا على الديدان التي يستخدمها كطعم في الأعوام الخوالي. ومر على كوخ المفتش «جسلر» وكانت ابنته «إما» هي الفتاة التي كان من الممكن أن يجعلها محط اهتمامه منذ سنتين أثناء الانزلاق على الجليد. فقد كانت أكثر الفتيات رقة وأناقة في المدينة، كما أنها كانت في مثل سنه، وفي ذلك الحين لم يكن يشتاق إلى شيء يفعله في هذا العالم كما كان يشتاق إلى الحديث إليها أو أن يأخذ يدها بين يديه مرة واحدة فحسب. ولكنه لم يقدم على شيء من هذا أبدًا، فقد كان حييًا حياء مفرطًا. ومنذ ذلك الحين أرسلت إلى مدرسة داخلية، وأصبح من العسير عليه الآن أن يتذكر شكلها. ومع أن هذه الذكريات الطفولية كان يبدو أنها تعود إلى ذهنه مرة أخرى من الماضي البعيد، إلا أنها كانت أكثر حياة، وتمتلك عطرًا غريبًا مشحونًا بالحنين أكثر من أي شيء آخر وقع منذ ذلك الحين. كانت هي تلك الأيام حين جلس تحت البوابة في المساء «ناسكولد ليزي» حيث قام بتقشير البطاطس والاستماع إلى حكايتها، وعندما ذهب مبكرًا جدًّا يوم

الأحد مشمرًا عن سراويله وبضمير ملوث لكي يبحث عن جراد البحر تحت السد أو يلقي نظرة على مصيدة السمك، لكي ينتهي الأمر بعقاب من أبيه فيما بعد على حُلة يوم الأحد المبتلة التي تتساقط منها قطرات الماء. ولقد كانت هناك أمور كثيرة محيرة وأشياء غريبة وأناس كثيرون في تلك الأيام. الإسكافي برقبته المتصلبة وكان اسمه «سترومايرِ» الذي دس السم لزوجته كما يعلم الجميع، والسيد «بيك» المغامر الذي كان يطوف بالحي وقد أمسك بعصاه ووضع مخلاته فوق ظهره، وكانوا ينادونه «بالسيد» لأنه كان رجلًا ثريًّا في سالف الأزمان وكان يمتلك أربعة من الجياد وعربة. وكانت معلومات هانز عن هؤلاء الأشخاص لا تتجاوز أسماءهم، وكان في وعي بشعور يتوغل في أعماق نفسه بأن هذا العالم المحلي الصغير قد مر عليه، ولم يكن ثمة شيء قوي أو قيم يمكن أن يأخذ مكانه.

ولما كانت لديه إجازة يستطيع أن يتغيب فيها في اليوم التالي، فقد نام نومًا جيدًا حتى الصباح، معتزًّا كل الاعتزاز بحريته. وعند الظهيرة التقى بأبيه الذي كان لا يزال متأججًا بتجاربه في «شتوتجارت».

قال بشيء من المرح: «لو أنك نجحت، هل تطلب شيئًا تحبه لنفسك؟ فكر في الأمر».

وتنهد الصبي قائلًا: «كلا، كلا، أنا موقن بأنني قد أخفقت».

– «أيها الغبي الأحمق، ماذا جرى لك؟ قل ماذا تحب قبل أن أغير رأيي!».

- «أحب أن أذهب للصيد في أيام العطلات، أيمكنني ذلك؟».

- «لك ما تريد، شريطة أن تجتاز الامتحان».

وفي اليوم التالي، وكان يوم أحد، هبت عاصفة رعدية أعقبها وابل من المطر، وجلس هانز يقرأ ساعات وساعات مفكرًا في حجرته. فاستعرض أداءه للامتحان في شتوتجارت مرة أخرى بكل تفصيلاته وانتهى إلى هذه النتيجة وهو أن حظه كان سيئًا وأنه كان يستطيع أن يؤدي أداء أفضل كثيرًا من ذلك الأداء. وعلى كل حال، ليس لديه أمل في النجاح. ثم ما بال هذا الصداع المأفون؟! وطغى عليه إحساس متزايد بالذعر، وأخيرًا أقبل على أبيه بحالة من القلق العميق.

- «أقول.. يا أبي».

- «ماذا تريد؟».

- «أن أسأل شيئًا. عن الرغبة. أحب أن تصرف النظر عن مسألة الصيد».

- «أوه! لماذا تثير هذه المسألة مرة أخرى؟».

- «لأنني... لأنني أتساءل عما إذا لم...».

- «هيا، انته من هذا الموضوع، ما كل هذا الهراء؟ ماذا إذن؟».

- «أريد أن أذهب إلى المدرسة الثانوية إذا أخفقت».

ولم يحر السيد جيبنرات جوابًا.

- «ماذا؟ المدرسة الثانوية!» وانفجر قائلًا: «أنت في مدرسة ثانوية!

من ذا الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟».

-» لا أحد. إنها فكرتي فحسب».

الخوف القاتل يمكن أن يقرأ على وجه الغلام، غير أن الأب لم يفطن إليه.

قال وهو يغالب ضحكه: «واصل حديثك، يا لها من أفكار مسرفة! يبدو أنك تعتقد أنني عضو في الغرفة التجارية».

ولوح بيده وكأنه ينحي المسألة جانبًا بقوة، بحيث استسلم هانز، وغادر الحجرة يائسًا.

وزمجر الأب خلفه: «يا له من ابن لك. طيب، ها هو الآن يطلب الالتحاق بالمدرسة الثانوية. حظ طيب لك، أنت تخطئ هذه المرة».

جلس هانز على حافة النافذة زهاء نصف ساعة، محملقًا في ألواح الأرضية التي مسحت حديثًا، ومحاولًا أن يتخيل الأمر فيما لو ترك الكلية اللاهوتية، والمدرسة الثانوية، والدراسة أيًّا كانت. سوف يلحقونه بالعمل صبيًّا لبقال أو يضعونه في مكتب، وسيصبح واحدًا من الناس الفقراء الذين يزدريهم ويريد أن يتفوق عليهم. وحينذاك ارتسم على وجهه الوسيم الذكي تعبير ينم عن الغضب الأليم، فوثب في حالة من الاهتياج، وبصق، وقبض على منتخبات الشعر اللاتيني التي ترقد هناك وقذف بالكتاب بأقصى ما فيه من قوة على أقرب جدار. ثم انطلق مندفعًا في المطر.

وعاد إلى المدرسة صبيحة يوم الإثنين.

سأله الناظر باسطًا إليه يده: «كيف حالك؟ كنت أظن أنك سوف تأتي لزيارتي أمس. ماذا فعلت في الامتحان؟».

وأطرق هانز برأسه.

– «هيا تكلم! ألم تؤد أداء جيدًا؟».

– «كلا، أخشى ألا يكون الأمر كذلك».

– «تذرع بالصبر!».

وحاول الرجل العجوز أن يواسيه.

«سيكون التقرير في طريقه من شتوتجارت هذا الصباح».

وبدا هذا الصباح طويلًا طولًا لا نهاية له. ولم يصل أي تقرير. وما كان هانز يستطيع أن يبتلع غداءه من القلق.

وعندما دخل الفصل في الساعة الثانية بعد الظهر، كان مدرس الفصل حاضرًا بالفعل.

وصاح بصوت عال: «هانز جيبنرات».

وتقدم هانز إلى الأمام، وأمسك المدرس بيده.

– أهنئك يا جيبنرات. كان ترتيبك الثاني في الامتحان العام، وساد صمت مهيب. وانفتح الباب، ودخل الناظر.

– «تهانئي. والآن، ما قولك؟».

لم يحر الصبي جوابًا دهشة وفرحًا.

– يبدو الآن أنه لا يوجد لديك ما تقوله!

فتلعثم قائلًا: «لو أنني عرفت ذلك، لكان ترتيبي الأول».

قال الناظر: «اذهب الآن إلى البيت وأبلغ أباك. ولا داعي للحضور إلى المدرسة بعد الآن. وعلى كل حال فإن العطلة تبدأ بعد أسبوع».

سار الصبي عبر الشارع متجهًا إلى البيت، وعقله في دوامة، أبصر ميدان السوق وأشجار الزيزفون يغمرها ضوء الشمس، كل شيء كما كان. ولكنه يبدو الآن أشد جاذبية، وأكثر دلالة، وبالتأكيد أكثر مرحًا. لقد اجتاز المحنة.. وترتيبه الثاني وأعقب هذا الفرح الأولي شعور عميق بالارتياح. لم يعد الآن بحاجة إلى تحاشي القس، كما يستطيع الآن أن يمضي في دراسته، وأن يزيح مخاوفه فيما يتعلق بدكان البقال والمكتب!

وها هو ذا يستطيع أن يعود إلى صيده مرة أخرى. وعندما وصل إلى المنزل ألفى والده واقفًا في الرواق المسقوف.

سأله في مرح: «ما خطبك؟».

– «لا شيء. كل ما في الأمر أنهم صرفوني من المدرسة إلى البيت».

– «ماذا؟ ولما إذن».

– «لأنني أصبحت الآن طالبًا لاهوتيًّا».

– «عظيم. إذن فقد حقت عليَّ اللعنة! إذن فقد نجحت».

فأومأ هانز برأسه.

– «وكنت متفوقًا؟».

- «جاء ترتيبي الثاني».

لم يكن الرجل العجوز يتوقع ذلك. فلم يعد يدري ما يقول، فظل يخبط على ظهر ابنه، ويضحك، ويهز رأسه. ثم فتح فاه ليقول شيئًا. غير أن شيئًا لم يصدر عنه، فاكتفى بهز رأسه.

وأخيرًا أسعفه النطق: «المجد لك! المجد لك!».

واندفع هانز داخل البيت، وقفز على درجات السلم صاعدًا إلى الطابق العلوي، وفتح دولابًا في الحجرة الخاوية، وفتش لحظة، ثم أخرج صفوفًا من الصناديق وحزم البوص وسدادات الطفو.. إنه جهازه للصيد. فالشيء المهم الآن هو أن يخرج وأن يتخير عودًا ملحيًّا. وهبط الدرج متجهًا إلى أبيه.

- «أعرني المطواة التي تبري بها أقلامك يا أبي، لا بد أن أذهب لأقطع عودًا للصيد».

قال وهو في أوج سعادته: «إليك هذين الماركين، تستطيع أن تبتاع سكينًا لنفسك. ولكن لا تذهب إلى دكان هانفرد، وإنما اذهب إلى شاحذ السكاكين».

صنع هذا كله بأسرع ما يستطيع. وسأله (السكاكيني) عن الامتحان، فأنبأه بالأخبار السعيدة، فكان أن أعطاه سكينًا بديعًا استثنائيًّا. وفي أعلى النهر تحت جسر «بروهيلبروك» كانت تنتصب بضع بوصات بديعة سهرية وبضعة أعواد من شجر البندق، فاقتطع منها عودًا كاملًا قويًّا ولكنه مرن، وهرول مسرعًا عائدًا به إلى البيت.

كانت وجنتاه متوهجتين وعيناه براقتين وهو يؤدي هذه المهمة المرحة، مهمة إعداد هذا العود، وهي مهمة كان يستمتع بها استمتاعه بالصيد الفعلي نفسه. ولقد أخرج الخيوط البيض والبنية والخضر، وفحصها بعناية، وأصلح بعضها من العقد والمثلثات القديمة. كما اختبر جميع السدادات والطوافات من جميع الأشكال والأحجام، وصنع بعض سدادات الطفو من جديد، كما دق بعض قطع الرصاص من أوزان متباينة لتتوازن مع الخيوط. وجاء بعد ذلك دور السنانير والخطاطيف ولم يكن لديه منها غير رصيد بسيط. وعند حلول المساء كان كل شيء جاهزًا، وعرف هانز أنه لن يعاني من ساعات السأم والملل في عطلة الأيام السبعة الطويلة التي تنتظره، فالآن بعد أن أصبحت لديه عصا الصيد يستطيع أن يمضي أيامًا كاملة وحيدًا مع النهر.

* * *

الفصل الثاني

كانت إجازة صيف كما ينبغي أن تكون الإِجازات، السماء صافية الزرقة فوق التلال، والأيام الحارة تتلوها أيام حارة أخرى لمدة أسابيع، لم يقطعها غير يوم واحد هبت فيه عاصفة رعدية قصيرة. والنهر –رغم أنه يتدفق بين صخور رملية كثيرة وأخاديد ضيقة، وتظلله في أغلب الأحيان غابات الصنوبر الوارفة– كان من الدفء بحيث يستطيع أن يستحم فيه المرء حتى ساعة متأخرة من المساء. وكان أريج التبن المنبعث من المحصول الثاني ينتشر في طول المدينة الصغيرة وعرضها، والأشرطة الضيقة من حقول الحنطة القلائل أخذت تتحول إلى اللون الخمري ثم إلى اللون الذهبي، وعلى طول الجداول والغدران كان ينمو نبات الشوكران بأزهاره البيضاء، وخيماته العملاقة التي تغطيها دائمًا الحشرات الدقيقة، وبجذوعه الخاوية التي يمكن أن تصنع منه أصنافًا من الناي البدائي وأنابيب النفخ –كان ينمو حتى يبلغ قامة رجل من بني الإِنسان. وهناك على حواف الغابة تسطع صفوف طويلة فخمة من نبات آذان الدب ذي الأوراق الصفر الملساء، وأطول منها تتأرجح حشائش الصفصاف الوردية على سوقها النحيلة الطويلة بحيث تحيل سفوح التلال إلى بحر من الأرجوان. وتحت ظلال شجر الصنوبر ينتصف

نبات قفاز الثعلب الطويل بأوراقه الجذرية الفضية العريضة وجذوعه القوية الصلبة، وبزهوره الحمراء الكثيفة المتشابكة- ينتصب هناك مستقرًّا، بديعًا، غريبًا على نحو ما. وعلى مقربة من هذا كله صنوف متباينة من الطحالب -الحمراء والغروية اللزجة المتألقة، وعش الغراب العريض اللحيم، ومخلب الدب المغامر، والطحلب المرجاني المليء بالعقد وعش طائر الصنوبر بشكله العليل. وبين السفوح الكثيرة التي يكسوها زهر الخلنج بين الغابات والغياض يتوهج زهر الوزال الأصفر الخشن، بحيث تأتي بعده أشرطة من الخلنج الأرجواني، تتبعها حقول ما زال معظمها ينتظر الحصاد الثاني وهي تموج بخليط متعدد الألوان من زهور «تطريز السيدة» (أشبه بالدانتللا) والمنثور البري، والزهور المريمية، وشيخ الربيع. وكانت الغابات زاخرة بتغريد العصافير الذي لا ينتهي، والسناجب الحمراء في غابة الصنوبر ترتع فوق قمم الأشجار والسحالي الخضراء تتألق وتزحف سعيدة على الحواف والجدران، وفي الحفر الجافة، وفوق الغياض ترتفع سقسقة شحارير الحصاد الحادة التي لا تعرف الكلل.

وكانت المدينة تبدو رعوية، خاصة في هذا الوقت من السنة، بعرباتها التي تحمل الحصاد، ورائحة التبن المنتشرة، ورنين المناجل على أحجار الشحذ الذي يملأ الطرقات، ويتردد صداه في الفضاء الواسع، ولولا هذين المصنعين اللذين تضمهما المدينة لحسبت نفسك في قرية من القرى.

وفي ساعة مبكرة من صباح أول يوم له في الإِجازة، كان هانز يقف

بالفعل نافد الصبر في المطبخ منتظرًا قهوته بعد أن نزلت آنا العجوز من حجرتها.. ساعد في إشعال النار، وبحث عن الخبز في سلة الخبز، واندفع إلى الطابق السفلي بعد أن قام بتبريد قهوته بشيء من اللبن الطازج، ودس بعض الخبز في جيوبه، وركض مسرعًا. وقف على رصيف القطار، وأخرج علبة مستديرة من جيب سرواله وبدأ عمله في صيد الجراد. ومرت به القطارات، ولكنها لم تكن مسرعة بسبب انحدار هذه البقعة، وإنما كانت تسير بسرعة مريحة مفتحة النوافذ جميعًا، وربما كانت حفنة من المسافرين تترك وراءها سحابة مرحة طويلة من الدخان وراء القطارات. راقبها وهي تتلاشى، ولاحظ كيف أن الدخان الأبيض يلتف حول نفسه صاعدًا، ولكنه سرعان ما يذوب في هواء الصباح المبكر الصافي. ما أطول الزمن الذي مر على رؤيته لهذا الهواء! أطلق تنهدات عميقة وكأنه متلهف على اقتناص الشهور المرحة التي فاتته بأسرع ما في وسعه، ليصبح مرة أخرى التلميذ الصغير العادي الذي لا يشعر بأي مسئولية، وخفق قلبه بسرور خفي في استباق للصيد وهو يخطو فوق الجسر ومن ورائه وخلال الحدائق الغناء، حيث توجد أعمق بقعة في النهر، بعلبته التي احتفظ فيها بالجراد، وبعصاه الجديدة. وكان يعرف ركنًا حيث يستطيع المرء وهو يسند ظهره إلى جذع شجرة الصفصاف أن يصطاد وهو في راحة أكبر، وبأقل إزعاج ممكن عن أي مكان آخر. فك الدوبارة، ووضع في مكان منها قطعة رصاص صغيرة، وبلا رحمة ألبس السنارة إحدى الجرادات، وألقى بالدوبارة في منتصف النهر بأقصى ما في وسعه. وبدأت اللعبة القديمة المألوفة، تدافع السمك

الصغير حول الطعم وحاول أن ينتزعه من السنارة. وقبل مضي زمن طويل كان السمك قد قضمها تمامًا، فوضع جرادة ثانية مكان الأولى، ثم أخرى ورابعة وخامسة. وعمد بعد ذلك إلى تثبيتها في السنارة بعناية متزايدة، وأخيرًا وازن الدوبارة بقطعة إضافية من الرصاص، وهكذا ذهبت إلى الطعم أول سمكة يمكن أن تقبض عليها السنارة. وغمزتها لحظة أو لحظتين، ثم تركتها، وحاولت من جديد.

والآن، قضمت السمكة الطعم بحق –والصياد الماهر يشعر بهذه الجذبة، وعصا الصيد مستقيمة بين أصابعه. حاولت السمكة أن تتملص، وعندما ظهرت على سطح الماء تعرف هانز عليها فكانت من الشبوط.. ومن الممكن تحديد هويتها على الفور بجسمها الأصفر العريض اللامع المائل إلى البياض، وبرأسها المثلث، وبزعانفها الأرجوانية البديعة المحيطة بالبطن. كم كان وزنها؟ ولكنه قبل أن يختبرها، قامت السمكة بنخعة يائسة، وتملصت في هلع على سطح الماء، وذهبت. وكان لا يزال يستطيع رؤيتها وهي تدور ثلاث أو أربع مرات في الماء، ثم توارت في الأعماق وكأنها ومضة من برق فضي. لم تكن السنارة قد أمسكت بها جيدًا.

كانت الإِثارة والتركيز الشديد في هذه اللعبة قد استيقظا عند صيادنا. ركز عينيه على الدوبارة البنية الرفيعة، وكانت وجنتاه متوهجتين، وحركاته مقتضبة سريعة واثقة من نفسها. وجاء شبوط آخر ليقضم الطعم فاصطاده، ثم شبوط آخر صغير كاد يشعر بالخجل لأنه لم يقذف به إلى الماء، ثم ثلاث من القوبيون النهري على التوالي. وقد سرَّه

بخاصة هذا الصنف الأخير الذي يتحيز إليه أبوه بوجه خاص. ذلك أن لها أجسامًا لحيمة تكسوها حراشف دقيقة، ورأسًا سمينًا بلحية بيضاء مضحكة، وعينين صغيرتين، وبطنًا نحيفًا. ولونها شيء بين الأخضر والبني بحيث يقترب من الأزرق الذي يشبه الصلب حين يخرج إلى الأرض.

وكانت الشمس قد ارتفعت الآن، والزبد الذي يغطي السد كان يسطع سطوع الجليد الأبيض، والهواء الدافئ يرسل بريقًا متقطعًا فوق المياه، وعندما صعد ببصره كان يستطيع أن يرى سحابات قلائل صغيرة ذات لون أبيض مبهر قابعة فوق «موكبرج». كان الجو يزداد حرارة. ولا شيء يعبر عن حرارة يوم صيف لا يكدره شيء سوى بضع سحب وادعة معلقة بوداعة وصفاء في منتصف السماء الزرقاء، ومن ثم تكون مشبعة بالضياء بحيث لا تستطيع أن تحتمل النظر إليها طويلًا. ولكن بمجرد وجودها يمكن ألا تشعر بدرجة القيظ الحقيقية، فأنت لا تشعر بها بالنظر إلى السماء الزرقاء أو إلى صفحة النهر المتألقة، بل عندما يقع بصرك على هؤلاء البحارة القلائل من الزبد الأبيض المكثف عند الظهيرة بأنك أصبحت بغتة شاعرًا بهجير الشمس، فتهرع باحثًا عن الظل، وتمسح بيدك جبينك الذي تفصَّد منه العرق.

وأخذ انتباه هانز لصيده يقل شيئًا فشيئًا. وكان أقرب إلى التعب، وعلى أي الأحوال نادرًا ما يصيد شيئًا ملحوظًا أثناء الظهيرة. وسمك الشبوط، حتى أكبره سنًّا وأضخمه يصعد التماسًا للشمس، فهو يسبح حالمًا مع تيار الماء على كثب من السطح في أسراب ضخمة داكنة،

وأحيانًا يولي الفرار دون سبب ظاهر ويرفض أن يقضم الطعم خلال هذه الفترة من الزمن.

ألقى هانز بسنارته في الماء فوق غصن من أغصان الصفصاف، وجلس على الحشائش وأخذ يحملق في المياه الخضراء. وصعد السمك متباطئًا، ظهر داكن بعد آخر ظهر على السطح -هادئًا بطيئًا سابحًا في أسراب سحرية، مندفعًا بلا مقاومة إلى السطح بفعل حرارة الجو. لا بد أنها تشعر بالروعة في المياه الدافئة! وخلع هانز حذاءه، وترك قدميه تعبثان في الماء الذي كان فاترًا على السطح. وفحص صيده، كان السمك يسبح حول تلك البقعة بمقادير كبيرة محدثًا حفيفًا ناعمًا من حين إلى آخر. ما أبدعها! بيضاء، وبنية، وخضراء، وفضية، وذهبية باهتة، وزرقاء، وألوان أخرى تلمع في كل حركة تتحركها بزعانفها وفلوسها.

كان المكان هادئًا، فلا يكاد يسمع ضجة العربات وهي تعبر الجسر، والضوضاء التي تصدر عن عجلة الطاحونة تكاد تكون غير مسموعة حيث كان يقف. والصوت الحقيقي الوحيد الذي كان مسموعًا هو صوت اندفاع المياه اللطيف الذي لا ينتهي وهي تصب في تكاسل على السد، وتدور في نعومة حول ألواح الأرماث الطافية.

أما اليوناني والنحو اللاتيني، والإنشاء، والحساب، وكل ذلك الكدح المعذب في عام دراسي طويل لا يستقر فيه على قرار... فقد غاص في هدوء بعيدًا عنه في تلك الساعة الدافئة الغافية. انتابه صداع خفيف، ولكنه لم يكن بالسوء الذي كان عليه من قبل، فهو يستطيع أن

يجلس الآن على حافة الماء مرة أخرى، وجعل يراقب الزبد وهو يتكسر إلى رذاذ عندما يصطدم بالسد، وألقى نظرة على سنارته، مدركًا أن السمك أصبح في متناول يده، وهو يسبح في القادوس. كان شيئًا بديعًا، وفي الوقت نفسه تذكر أنه قد اجتاز الامتحان العام وجاء ترتيبه الثاني، فطرطش الماء بقدميه العاريتين، ودس يديه في جيوب سرواله وشرع يصفر لحنًا من الألحان. لم يكن يستطيع الصفير في الواقع، وكانت هذه نقطة مريرة في الأيام الخوالي، وكان موضع استهزاء زملائه في المدرسة. لم يكن يستطيع الصفير إلا من خلال أسنانه فحسب، وحتى هذا كان يأتي به خافتًا، ولكنه كان كافيًا للأغراض المنزلية، وعلى كل حال لا يستطيع أحد أن يسمعه في اللحظة الحاضرة. كان الآخرون في المدرسة، يتلقون درسًا في الجغرافيا، وهو وحده الذي كان حرًّا خارج المدرسة. لقد تفوق عليهم، فأصبحوا الآن أدنى منه. لقد قاموا بتعذيبه بما فيه الكفاية، وفيما عدا أغسطس لم يكن له أصدقاء، كما أنه لم يكن يجد أي متعة في ألعابهم ومعاركهم. حسن، إنهم يستطيعون أن يراقبوه الآن، أولئك البلهاء، كان يزدريهم ازدراء شديدًا بحيث كف عن الصفير برهة ليرسم تكشيرة على وجهه. ثم أخذ يلف خيط سنارته، ولم يتمالك نفسه من الضحك عندما ألقى السنارة خالية من الطعم. وأطلق الجراد الذي تبقى في علبته، فأخذ يزحف دائخًا مغمومًا فوق العشب القصير. وعلى مقربة كانت المدبغة وكان العمال قد انصرفوا منها لتناول الغداء. وكان الوقت قد حان ليتناول هو أيضًا غداءه.

ولم يجر حديثًا على المائدة.

سأله أبوه: «هل اصطدت شيئًا؟».

- «خمس».

- «حقًا؟ جميل، ولكن حاذر من أن تصطاد السمك الكبير، فلن يكون هناك سمك صغير بعد ذلك».

وانقطعت المحادثة بعد ذلك. كان الجو قائظًا. ويا له من عار ألا يسمح لك بالسباحة بعد الغداء مباشرة. لماذا هذا التحريم؟ كان من المفروض أنه ضار! ولكن، أكان فيه أي ضرر؟ هانز على معرفة أفضل. ورغم هذا التحريم ذهب للاستحمام مرارًا وتكرارًا. ولكنه لم يفعل ذلك مرة أخرى، لقد كبر الآن على مثل هذه الألاعيب، يا للسماوات، لقد أطلقوا عليه لقب «سيد» في الامتحان.

على كل حال إنه لا يمانع في الاستمتاع بساعة يسترخي فيها في الحديقة تحت شجرة الصمغ الصنوبرية. الظلال وارفة هناك، والمرء يستطيع إما أن يقرأ أو يراقب الفراشات. رقد هناك حتى الساعة الثانية بعد الظهر، وكاد يذهب لينام. لولا أن راودته السباحة! لم يكن هنا في بقعة السباحة سوى أولاد قلائل، أما الكبار فكانوا في المدرسة، وأحس هانز بالأسف من أجلهم. فتجرد متمهلًا من ثيابه، ونزل في الماء. كان يعرف كل شيء عن الاستمتاع بالدفء تعقبه البرودة والعكس بالعكس، بدأ بالسباحة برهة من الزمن، وقام بشيء من الغطس والطرطشة فيما حوله، ثم رقد منبطحًا على بطنه فوق الشاطئ. وأحس بحرارة الشمس على جلده الذي أخذ يجف بسرعة، وزحف الصبيان الصغار حوله في شيء من الرهبة. أجل، لقد أصبح شهيرًا. والواقع أنه كان يبدو مختلفًا

عنهم تمام الاختلاف. فبذلك الرأس المرهف الحس، بمحياه الذكي، وعينيه المفكرتين، يستقر في يسر وجاذبية على عنقه البرونزي الضيق. وكانت أطرافه نحيلة رقيقة المنظر، ويمكنك أن تحصي أضلاعه، ولم يكن لديه في حقيقة الأمر ربلتان في ساقيه.

وقضى بعد الظهر كله تقريبًا في النزول والخروج من الماء. وبعد الساعة الرابعة أقبل كل أعضاء فصله هاتفين:

– «مرحى، يا جيبنرات! أنت على ما يرام!».

بسط نفسه في فخامة وقال: «أجل. أنا في خير حال!».

– «متى ستلتحق بالكلية اللاهوتية؟».

– «ليس قبل سبتمبر. إنها الإِجازة الآن».

تركهم يحسدونه. ولم ينزعج من أن السخرية تزداد علوًّا في الخلفية، وأن أحدهم رفع عقيرته بالغناء:

«لو أن حياتي يمكن أن تكون

مثل حياة شولتسه ليزابيت!

فهي ترقد اليوم بطوله في الفراش

وليس لي مثل حظها»

ولم يتمالك هانز نفسه من الضحك. في حين أخذ الصبيان يتجردون من ثيابهم، على حين قفز أحدهم فورًا إلى الماء، أما بعضهم الآخر، الأكثر حذرًا، فقد بللوا أنفسهم بالماء البارد أولًا، بينما رقد

البعض الآخر برهة على الأعشاب. واستطاع أن يفوز غواص بارع منهم بالإعجاب العام. ودفعوا بصبي عصبي إلى الماء وهو واقف بظهره، وتصايحوا: «جريمة!» وأخذوا يطارد بعضهم بعضًا، ويركضون، ويسبحون، ويرشون الذين لم يمسهم الماء على الشاطئ. وكانت الضجة التي يحدثها الرش بالماء والتصايح رهيبة، وأخذ عرض النهر كله يلمع بالأجساد المبتلة اللامعة.

رحل هانز بعد ساعة من هذا تقريبًا. وكانت ساعات المساء الدافئة قد هبطت –وهي الفترة التي يبدأ فيها السمك في التقاط الطعم مرة أخرى– وظل قائمًا يصطاد حتى حان موعد العشاء. وكانت الأسماك شرهة، وكانت السنارة تغمز كل لحظة، بحيث لم يكن سريع التصرف في صيد أي سمكة. وكان يستخدم ثمار الكرز كطعم، وكان من الواضح أنها ناعمة أكثر من اللازم. وعقد عزمه على أن يقوم بالمحاولة مرة أخرى.

وأنبأوه أثناء تناوله للعشاء أن حشدًا من المعارف قاموا بالزيارة لتهنئته. كما أطلعوه على الصحيفة الأسبوعية وكان مكتوبًا تحت عنوان «الأخبار الرسمية» هذه الملحوظة:

«لم ترسل مدينتنا هذا العام غير مرشح واحد لامتحانات الالتحاق بالكلية اللاهوتية للصغار، وهذا المرشح هو هانز جيبنرات. ويسرنا أن نعلم أن المرشح المذكور قد فاز بالمركز الثاني».

وطوى الصحيفة، ووضعها في جيبه، ولكنه كان ممتلئًا بالزهو والفرح. ثم عاد إلى صيده، وأخذ معه هذه المرة قطعًا قلائل من الجبن

ليستخدمها كطعم، فالسمك يحبها، كما أنه يستطيع أن يراها في العتمة.

وقد ترك عصاه خلفه، واكتفى بعود من البوص. وكان يؤثر الصيد بلا عصا ودون أن يمسك الطوف بيده –وهكذا كان كل جهازه يتألف من عود وسنارة. وهذا يحتاج إلى مجهود أكبر، ولكنه كان لذيذًا، فأنت تستطيع أن تتحكم في أقل حركة للطعم، وأن تشعر بكل غمزة وقضمة، وأن تتابع تحركات السمكة التي تشد العود وكأنك تراها فعلًا أمامك. وبالطبع كان لا بد من فهم هذه الطريقة للصيد حق الفهم، كما أنك تحتاج في اتباعها إلى أصابع مرهفة الحس، وإلى كل يقظة الجاسوس.

هبط الغسق مبكرًا على الوادي الضيق العميق الذي تسفعه الرياح، وكانت المياه ساكنة سوداء هادئة تحت الجسر، وما برح ثمة ضوء يلوح عند الطاحونة المنخفضة والأحاديث والأغاني يمكن أن تسمع على الجسور، وفي الطرقات الضيقة، والجو شديد الحرارة والرطوبة، وفي كل لحظة، كانت سمكة داكنة اللون تثب وثبة قصيرة في الهواء. والسمك يبدو منفعلًا بشكل واضح في مثل هذه الأمسيات، فهي تمرق هنا وهناك، وهي تمرق خارجة من الماء، وتصطدم بعود الصيد، وترتمي بطريقة عشوائية على الطعم. وفي اللحظة التي استهلك فيها هانز آخر قطعة من الجبن، التقط أربعًا من الشبار الصغير، واعتزم أن يحملها إلى القس في اليوم التالي.

اكتسح الوادي نسيم دافئ، واشتدت الظلمة غير أن السماء ما برحت مضاءة. وبرج الكنيسة وسقف القلعة كانا وحدهما ينتصبان بحدة مجللين بالسواد تحت سماء صافية، من المدينة القابعة تحتها

حيث بدأت الظلمة تتراكم عليها. لا بد أن هناك عاصفة رعدية في مكان ناء، إذ يتناهى إلى السمع من حين إلى آخر هدير خافت مكتوم.

وعندما ذهب هانز إلى فراشه في الساعة العاشرة كان متعبًا تعبًا لذيذًا، يشعر به في رأسه، وأطرافه، على نحو لم يشعر به منذ أمد بعيد. ها هي سلسلة طويلة من أيام الصيف البديعة تمتد أمامه، وادعة حافلة بالإغراء، أيام للخمول والسباحة، والصيد، وأحلام اليقظة. شيء واحد كان مبعث قلقه وهو أن ترتيبه لم يكن الأول في الامتحان.

* * *

وفي ساعات الظهيرة المبكرة كان يقف بالفعل تحت القوس المزخرف لمقر القس، ويقوم بتسليم أسماكه. وخرج القس من مكتبه:

– «أوه، هانز جيبنرات! صباح الخير! دعني أهنئك من صميم قلبي. وما هذا الذي تحمله؟».

– «بضع سمكات. ذهبت للصيد أمس».

– «بديع، انظر هنا! أشكرك شكرًا جزيلًا. تفضل بالدخول».

دخل هانز المكتب المألوف له من قبل. ولم يكن يبدو مكتبًا شبيهًا بمكتب الكاهن المتوسط، ولم تفح منه رائحة النبات أو رائحة التبغ. وكل ما في المكتبة الضخمة كان جديدًا، وقد طليت حديثًا، وزينتها كتب مجلدة بماء الذهب، ولا تحتوي على شيء من تلك الكتب الهرئة التي أكلتها العتة، والتي تطالعك عادة في مكتبات القساوسة. ويكشف الفحص الدقيق عن روح جديدة، روح مختلفة كل الاختلاف بالتأكيد

عن تلك الروح المرتبطة بجيل يختفي اختفاء سريعًا، ويتألف من رجال مهذبين محترمين من السلف القديم. والكتب المبجلة القديمة التي تصادفها في مكتبة الكاهن من أمثال مجلدات «بنجل» و«أويتينجر» و«شتاينهوفر» وكتاب الأناشيد الصوفية الذين يتناولهم «موريكه» تناولًا حارًّا في كتابه **Turmhahn**، لم تكن موجودة هنا أو تغطيها طائفة من المؤلفات الحديثة وقصارى القول إن كل شيء هنا من حامل الدوريات ومنضدة تلاوة الكتاب المقدس. والمكتب الضخم الذي تتناثر عليه الأوراق عليه مسحة من الجد والتبحر في العلم. ويغزوك الانطباع بأن قدرًا كبيرًا من العمل يجري هنا، وهذا بالتأكيد ما يحدث فعلًا، لا من قبيل المواعظ أو الصلوات أو تراتيل الكتاب المقدس، بل من قبيل البحث والمقالات التي تنشر في الدوريات، أو ما شاكل الدراسات التمهيدية لكتبه الخاصة، ولم يعد للأبحاث الباطنة، والتصوف الغامض مكان هناك، كما لم يعد ثمة مكان للاهوت الأصيل الحدسي (الوجداني) الذي يعبر الهوة بين المعرفة والاستجابات للحاجات العاطفية للأرواح الظامئة من طبقات الشعب، وبدلًا من ذلك كانت هناك انتقادات الكتاب المقدس والبحث عن «المسيح التاريخي»، وهذا النوع من الأبحاث هو الذي يجري بحماسة شديدة.

واللاهوت لا يختلف عن أي موضوع آخر، فهناك اللاهوت الذي هو فن، وهناك اللاهوت الآخر الذي هو علم، أو الذي يحاول على كل حال أن يكون علمًا. يصدق ذلك على الأمس كما يصدق الآن، والباحثون العلميون قد أهملوا دائمًا الخمر القديم بحثًا عن

القناني الجديدة، على حين أن هؤلاء الذين يحبون التناول الجمالي والذين صمدوا ضد اتهامهم بالهرطقة الظاهرة قد جلبوا الفرح والعزاء للكثيرين، إنه ذلك الصراع القديم غير المتكافئ بين النقد والإِبداع، بين المعرفة والفن، وبينما كان ممثلو النزعة الأولى على حق دائمًا، دون مكسب لأي إنسان، استمر ممثلو النزعة الثانية في نثر بذور الإِيمان والحب والعزاء والجمال والإِحساس بالأبدية، وما فتئوا يكشفون أسسًا طيبة. ذلك أن الحياة أقوى من الموت، والإيمان أقوى من الشك.

ولأول مرة في حياته جلس هانز على أريكة المختبئ الصغير بين منضدة تلاوة الكتاب المقدس وبين النافذة، وكان القس في حالة مزاجية رائقة بوجه خاص، فتحدث عن الكلية اللاهوتية بلهجة ودود، واصفًا كيف كان المرء يعيش هناك ويدرس.

وختم حديثه قائلًا: «أهم شيء جديد سيكون مدخلك إلى العهد الجديد باللغة اليونانية إنه سيفتح أمامك عالمًا جديدًا، ثريا بالعمل والمتعة، وستحتوي اللغة على صعوبات في مبدأ الأمر، ذلك أنها ليست اليونانية الأتيكية، ولكنها يونانية قديمة، أعني أنها صيغة جديدة ظهرت إلى الوجود نتيجة لروح جديدة».

أنصت هانز في شغف، مزهوًّا بأن المعرفة الحقيقية أصبحت الآن في متناول يده.

وواصل القس حديثه قائلًا: «والمدخل الأكاديمي لهذا العالم الجديد يسلبه كثيرًا من سحره. وفي الكلية، ربما استولت العبرية لأول وهلة على انتباهك. وإذا أردت يمكننا أن نشرع في بداية متواضعة خلال

الإِجازات الحالية، وسوف يسعدك أن يتاح لك الوقت والطاقة الإِضافية لأمور أخرى في الكلية، نستطيع أن نبدأ معًا بفصول قلائل من إنجيل لوقا، وفي الوقت نفسه يمكنك أن تتعلم اللغة كما تتعلم لعبة ما. وفي إمكاني أن أعيرك قاموسًا، وتستطيع أن تكرس ساعة –أو ساعتين على الأكثر– يوميًّا لهذا، لا أكثر، وبالطبع فإن الشيء المهم لك كل الأهمية هو أن تظفر بفترة الاسترخاء التي كسبتها، وما هذا إلا مجرد اقتراح بالطبع، فما كنت أحب أن أفسد شعورك بالإِجازة».

وبالطبع أعجب هانز بهذه الخطة. ومع أن درس القديس لوقا كان يحوم فوقه كأنه سحابة صغيرة في السماء الزرقاء البهيجة لحريته، فقد خجل من رفض هذا العرض. فضلًا عن ذلك، فإن فكرة تعلم لغة جديدة في الإِجازات كانت تبدو أكثر ما تبدو من طبيعة المتعة وليست واجبًا مفروضًا، وقد كان عصبيًّا على نحو طفيف فيما يتعلق بطائفة المواد الجديدة التي عليه أن يعالجها في الكلية اللاهوتية، وبخاصة اللغة العبرية.

ومن ثم لم يكن مكتئبًا حين غادر القس، فاتخذ سبيله خلال شارع أشجار الصنوبر متجهًا صوب الغابة، والهموم الصغيرة التي أحس بها تلاشت بالفعل، وكلما أمعن الفكر في المسألة، بدت له أدعى للقبول، ذلك أنه كان يدرك جيدًا أن عليه تكريس نفسه للعمل بحماسة أكبر مما كان يفعل في الكلية التدريبية إذا اعتزم التفوق على أقرانه، وكان هذا هو هدفه بكل تأكيد، ولكن لماذا؟ إنه لم يكن حتى واثقًا من نفسه. فالآن وقد مضت ثلاث سنوات، كانوا جميعًا قد ركزوا أنظارهم عليه:

المدرسون، والقس، ووالده، وناظر المدرسة كان يستحثه للمضي قدمًا، دون أن يمنحه لحظة للراحة. ومن فصل إلى الفصل الذي يليه، كان ترتيبه الأول بلا منازع، والآن أصبح الأمر تدريجيًّا مسألة شرف بالنسبة إليه أن يبقى في القمة وألا يحتمل أي منافس. غير أن الامتحان الغبي قد انتهى.

كانت الإِجازات –بلا ريب– خير زمان، ما أجمل ما تبدو الغابة على غير المعتاد في ساعات الصباح حين لا يكون هناك أحد سواه! وجذوع الصنوبر تصطف في تشكيل منتظم وكأنها أعمدة في قاعة واسعة غطاها سقف أزرق ضارب إلى الاخضرار، أما الأشياء التي لم يكتمل نموها فقد كانت قليلة –مجرد شجيرة توت برية هنا وهناك– وبدلًا من ذلك، تمتد أمام البصر أرضية طولها ميل ناعمة تغطيها الطحالب والأعشاب وحيث تنمو أيضًا نباتات عنب الدب الخفيضة والخلنج. وكان الندى قد تبخر بالفعل، والاقتراب الحميم من الصباح ممتزجًا بحرارة الشمس، وبأريح الضباب والطحالب والغراء وإبر الصنوبر والأعشاب – هاجم هذا كله الحواس بنشوة خفيفة، ولكن لا سبيل إلى مقاومتها. وألقى هانز بنفسه على الطحالب، وجمع عددًا من ثمار التوت من النباتات الكثيفة والتهمها، واستمع إلى نقار خشب لونه أخضر يدق بمنقاره جذع شجرة، وأنصت إلى نداءات وقواق غيور، وكشفت السماء عن زرقة عميقة صافية لا تكدرها السحب، من خلال قمم الصنوبر القاتمة وآلاف من الجذوع المتعامدة المتضامة لتؤلف جدارًا بنيًّا متينًا، وهنا وهناك كانت بقعة من ضوء الشمس تسقط دافئة متوهجة على الطحلب المنتشر.

كان هانز يعتزم في البداية أن يقوم بمسيرة طويلة، على الأقل حتى يبلغ «مزرعة لوتسلر» أو غيضة الزعفران، ولكن ها هو ذا يرقد فوق العشب، ويأكل ثمار التوت، ويتأمل في تكاسل تلك الأسماء الزاخرة بالأعاجيب. وبدأ يشعر بالدهشة من إحساسه بهذا التعب الشديد، على حين أنه كان يسير في الأيام الخوالي ثلاث ساعات أو أربعًا دون أن ينتابه أي نصب، كان عاقد العزم على أن ينفض عنه هذا الكسل وأن يشرع في مسيرة طويلة قطع منها حوالي مائة ياردة ولكن، ها هو ذا يجد نفسه مستلقيًا على العشب مرة أخرى. وظل راقدًا في مكانه، تاركًا عينيه المنبهرتين تتجولان بين ذرى الأشجار والجذوع والأرض الخضراء. كم يشعره هذا الهواء بالاسترخاء!

وعندما رجع إلى البيت في منتصف النهار، عاوده الصداع، كما كانت عيناه تؤلمانه، فقد كانت الشمس تضرب ممر الغابة بلا رحمة أو شفقة، وجلس داخل المنزل في فترة ما بعد الظهر، وهو يشعر بالإِحباط. ولم يحس بالانتعاش إلا بعد أن استحم. وقد حان الآن موعد ذهابه إلى القس.

وأبصره فليج الإسكافي الذي كان جالسًا على آلته ذات الأرجل الثلاث، فدعاه للدخول:

– «إلى أين أنت متجه يا بني؟ لم نعد نراك هذه الأيام!».

– «يجب أن أذهب الآن إلى القس».

– «أما زلت؟ غير أن الامتحانات قد انتهت!».

– «أجل، ولكنه الآن شيء آخر. العهد الجديد. أعني العهد الجديد باليونانية، ولكنها يونانية مختلفة تمامًا عن اليونانية التي تعلمتها، وعليَّ أن أتعلم هذه الآن».

أزاح الإسكافي قبعته إلى الوراء، وارتسمت على جبينه العريض المتأمل أخاديد عميقة، وأطلق تنهيدة عميقة.

قال بصوت رفيق: «هانز، سأخبرك بشيء أغلقت دونه فمي حتى الآن بسبب الامتحان، ولكن يجب أن أحذرك الآن. القس رجل شكاك، وسيقرر ويحاول أن يبرهن على أن الكتب المقدسة زائفة، ولو أنك قرأت العهد الجديد معه فسوف تفقد إيمانك دون أن تعرف كيف كان ذلك».

– «ولكن يا سيد فليج إنها مجرد مسألة تتعلق باللغة اليونانية، ولا بد لي على أي الأحوال أن أتعلمها في الكلية اللاهوتية».

– «هذا ما تقوله، ولكنها مسألة مختلفة تمامًا أن تدرس الكتاب المقدس مع مدرسين ضليعين أتقياء، عن أن تدرسه مع شخص انصرف عن الإيمان بالله».

– «أجل، ولكننا لا نعرف إن كان قد انصرف حقًّا عن الإيمان؟!».

– «نحن نعرف يا هانز. لسوء الحظ».

– «ماذا عليَّ أن أفعل إذن؟ لقد وافقت بالفعل على الذهاب إليه».

– «من الواضح أنه ينبغي أن تفعل ذلك، ولكنه إن أشار إلى الكتاب المقدس بوصفه من عمل أناس، ومن ثم فإنه مزور وليس موحيًا بالروح

القدس، فينبغي أن تأتي إليّ، وسنتحدث معًا عن هذا الأمر، أتوافق على ذلك؟».

– «أجل، يا سيد فليج، غير أن الأمر لن يصل إلى ذلك».

– «انتظر، ولا تنس أن تأتي إليّ».

كان القس في الخارج، فلم يجد هانز بدًّا من انتظاره في المكتب. وبينما كان يفحص عناوين الكتب الموشاة بالذهب، عاودته كلمات الإسكافي، وكان قد سمع مرارًا آراء مماثلة عن القس، وبخاصة عن القساوسة من هذا الطراز الجديد، ولكنه أحس لأول مرة بأنه محاصر، وبأنه مهتم اهتمامًا شديدًا بصفة شخصية. ولكنهم لم يمثلوا له الأهمية الفاضحة التي ينظر بها الإسكافي إليهم، بل تكهن بأن المعتقدات القديمة ما زالت مستترة وراءهم. وفي أيامه المدرسية، كانت مسائل الحضور المستمر للإله، ومقر الأرواح الإنسانية، والشيطان والجحيم، قد أثارت في بعض الأحيان أنظارًا خيالية في عقله، غير أنه خلال سنوات الجهد الشاق والامتحان، غفت هذه المسائل جميعًا، ولم يكن إيمانه المسيحي كتلميذ يظهر إلا في مناسبات عارضة في مجال حياته الشخصية حين يشتبك في مناقشات مع القس، ولم يتمالك نفسه من الابتسام حين قارن هذا الأخير بفليج. إذ لم يكن الفتى قادرًا على أن يفهم موقف الإسكافي الصارم الذي اكتسبه خلال أعوام من التصميم المرير، وإذا كان فليج ذكيًّا، فقد كان أيضًا غريب الأطوار متعصبًا، وكم استهزأوا به بسبب تقواه المبالغ فيها. كان قاسيًا لا يعرف التوسط في عرضه للقانون، وإنجيليًّا رهيبًا في اجتماعات «الإخوة»، كما كان

يحضر أيضًا فصولًا في الدعوة في القرى المجاورة. أما في غير ذلك من الجوانب، فقد كان مجرد «صانع فني» وليس أقل من بقية الناس في ضيق الأفق. أما القس فلم يكن مجرد مثقف وداعية فصيح فحسب، بل كان شخصًا مجتهدًا وباحثًا مدققًا، ونظر هانز متهيبًا إلى صفوف كتبه.

ولم يلبث القس أن وصل، فقام بتغيير معطفه الذي كان يرتديه في الخارج، وارتدى سترة خفيفة سوداء، ثم ناول الغلام النص اليوناني لإنجيل القديس لوقا، وأمره بالقراءة. كان الأمر شديد الاختلاف عن دروس اللاتينية، ولم يقرأ سوى جمل قلائل ترجمت فيما بعد بحرفية تنطوي على كثير من الاجتهاد، ثم ضرب القس أمثلة غير واعدة بشيء، وجعل يسهب عن روح اللغة بكثير من الفصاحة والإقناع، ومضى يتحدث عن أصول الكتاب المقدس، وفي هذه الحصة الواحدة أدخل الفتى في تصور جديد تمامًا للتفقه والقراءة، وهكذا حصل هانز على فكرة عن المشكلات والواجبات المستترة في كل أي وكلمة، وكيف أن آلاف الدارسين والباحثين والفلاسفة قد احتاروا حول هذه المسائل منذ أقدم العصور، وأدرك أنه حتى هو نفسه في هذا الدرس الحاضر قد حوصر في دائرة الباحثين عن الحقيقة.

وأعاره القس معجمًا وكتابًا في النحو، وانكب على العمل في المنزل طوال المساء، وأصبح من الواضح الآن بالنسبة إليه أي جبال من العمل والمعرفة سوف يقوده إليها طريق البحث الحقيقي، وكان على استعداد للسير دون أن يتلكأ في جانب من الطريق. ونسي الإسكافي تمام النسيان في هذه الآونة..

استغرقته هذه الحياة الجديدة تمام الاستغراق لبضعة أيام. فكان يذهب كل عصر إلى القس، وفي كل يوم كان التفقه الحقيقي يبدو ألطف وأصعب، وأجدر بالاحترام. غير أنه كان يذهب للصيد في الساعات المبكرة من الصباح، وفيما بعد الظهر كان يجد نفسه في بحيرة السباحة، أما فيما عدا ذلك فكان لا يغادر المنزل أبدًا. كان طموحه الذي طغى عليه القلق والانتصار في الامتحان -قد استيقظ الآن مرة أخرى، ولم يدع له أي راحة. غير أنه يعاني في الوقت نفسه من تواتر إحساس خاص يعاوده في رأسه كان يشعر به بين حين وآخر في الشهور الأخيرة -لم يكن ألمًا ولكنه خفقان سريع لا يستقر على حال في نبضه، نوع من الطاقة الانفعالية، نزوع شنيع لأن يندفع قدمًا. أما الصداع، فكان يأتي بعد ذلك، ولكن بينما كانت الحمى تدوم كانت قراءته وعمله يتقدمان بوجه عام في سرعة محمومة، فكان يستطيع أن يقرأ أصعب جملة في «إكزينوفون» والتي تستغرق عادة ربع الساعة في لحظات قلائل- وفي مثل هذه الفترات لم يكن يحتاج إلى المعجم، بل إن عقله اليقظ كان قادرًا على معالجة صفحات صعبة بأكملها في مرح وبسرعة. هذا النشاط المحموم والظمأ للمعرفة كان يصاحبهما شعور معين بالزهو من جانبه، وكان عالمًا من المدرسة والمدرسين وأعوام الدراسة تستلقي وراءه بعيدًا، وبأنه يطأ طريقه الخاص صوب ذرى المعرفة والعلم.

كان يشعر الآن بمثل هذا الشعور، وكان نومه لا يقر له قرار، وكثيرًا ما تقطعه أحلام غريبة واضحة. فإذا استيقظ في الليل وهو يعاني من صداع خفيف، ولا يقدر على النوم مرة أخرى، كان نفاد الصبر هذا من

المضي في طريقه ممتزجًا بالزهو حين يرى تقدمه على أقرانه جميعًا في المدرسة، وكيف أن مدرسيه والناظر ينظرون إليه بنوع من الاحترام قريب من الإِعجاب.

وكان الناظر يستمد رضا داخليًّا من إرشاده للطموح المحمود الذي أثاره في تلميذه، ومن مراقبته وهو ينمو. لا تقل أبدًا إن النظار لا يملكون قلوبًا، وإنهم بلا أرواح، وبأنهم متحذلقون متحجرون! إنهم أبعد عن ذلك، وعندما يفطن المدرس إلى موهبة طفل غفت طويلًا ثم انفجرت بغتة، ويرى صبيًّا مستلقيًا إلى جانب سيفه الخشبي يصنع قوسًا وسهمًا، وبعض اللعب الصبيانية الأخرى -عندما يرى أنه شرع في السعي قدمًا، ويرى العمل الجاد يقوم بتحويل وجه طفولي إلى وجه مهذب، يكاد يكون زاهدًا، يراقب هذا الوجه وهو يصبح أكثر عقلانية، فالنظرة أعمق وأكثر استهدافًا واليدان أكثر بياضًا وأقل حركة غير مستقرة، هنا تكون روحه هي التي تضحك داخله مفعمة بالفرح والفخر، وواجبه، والمهمة التي كلفته بها الدولة تقتضي أن يكبح وأن ينتزع تلك الطاقة الجامحة، والرغبات الطبيعية ليزرع مكانها مثلًا عليا وديعة معتدلة تعترف بها الدولة. وكم من شخص قد أصبح الآن مواطنًا قانعًا وموظفًا مثابرًا كان من الممكن أن يكون مجددًا لا يعرف النظام أو حالمًا عابثًا، لولا تلك الجهود التي بذلتها المدرسة. وقد كان في هانز شيء وحشي، غير مروض، غير مهذب، ينبغي أن ينكسر منذ البداية، شعلة خطرة ينبغي أن تنطفئ وأن يداس عليها. فالإنسان كما صنعته الطبيعة -مخلوق مظلم خطر غير قابل للحساب- ينبوع ينفجر أمامه من جبل مجهول،

غابة قديمة لا درب فيها ولا طريقًا ممهدًا.. غابة قديمة يجب أن تطهر وتشذب لتصبح منطقة مأهولة. ووظيفة المدرسة هي أن تحطم الإِنسان الطبيعي، وأن تكبح جماحه وتعمل على تحويله، ووفقًا للمبادئ التي اعتمدتها الدولة، عليها أن تجعله عضوًا نافعًا في المجتمع، وأن تبعث في نفسه تلك الصفات، وأن يكتمل تطويره حتى يبلغ تلك النتيجة المنشودة من النظام المحسوب جيدًا في ثكنة الميدان.

ما أبدع التطور الذي جرى على الفتى جيبنرات! لقد تخلى عن ألعابه تمامًا، وها هو ذا ينعم بالكسل على طريقته الخاصة، وأصبحت مشاغباته في الفصل شيئًا من أفعال الماضي، بل لقد هجر العناية بحديقته أيضًا، وهجر رعاية الأرانب، وهواية الصيد اللعينة.

وذات مساء، ظهر الناظر في دار جيبنرات بشخصه. وبعد أن طرح جانبًا في أدب تملقات الأب، دخل إلى حجرة هانز حيث وجد الصبي منكبًّا على إنجيل القديس لوقا. فحياه بطريقة أكثر ما تكون مرحًا:

– «جيبنرات الرائع، يعود إلى العمل فعلًا! ولكن لماذا لم تعد تظهر للناس؟ كنت أتوقع ظهورك كل يوم».

قال هانز معتذرًا عن نفسه: «كنت أستطيع أن آتي من قبل، ولكنني كنت أريد أن اصطاد سمكًا لأحمله إليك».

– «سمكًا! أي نوع من السمك؟».

– «أوه! شبوط أو شيء من هذا القبيل».

– «لقد عدت إلى الصيد إذن؟».

- «أجل، إلى حد ما. سمح لي أبي بذلك».

«أتستمتع به كثيرًا؟».

- «إلى حد ما!».

- «هذا بديع أيضًا. ليس من شك أنك كسبت إجازاتك. ولا أظن أنك متلهف على القيام بأي عمل أيضًا؟».

- «نعم، أريد ذلك».

- «تأكد أنني أكره أن أفرض عليك أي عمل لا تريده أنت نفسك».

- «ولكنني أريد فعلًا».

تنفس الناظر الصعداء، وعبث بلحيته الصغيرة، وجلس على مقعد.

«إليك هذا يا هانز. الأمر على هذا النحو. دلت التجربة الماضية على أن النتيجة الطيبة لأي امتحان يعقبها في معظم الأحيان رد فعل مباغت. وسوف يكون عليك أن تعالج عددًا من المواد الجديدة في الكلية اللاهوتية. وهناك دائمًا عدد من الصبيان يقومون بإعداد العمل خلال الإِجازات. والواقع أنهم أولئك الذين لم يبرزوا في الامتحان بخاصة. وفجأة تراهم يقفزون ليسبقوا أولئك الذين استناموا على نجاحهم خلال الإجازة». وتنهد مرة أخرى.

- «وهنا في المدرسة لم تجد أي صعوبة في الحفاظ على مركزك كأول الفصل دائمًا. ولكنك في الكلية سوف تجد صبيانًا آخرين موهوبين مثلك، أو مجتهدين إلى أقصى حد بحيث لن يكون من السهل التفوق عليهم. أتفهمني؟».

- «أجل».

- «والآن، أقترح أن تقوم بقليل من العمل التمهيدي أثناء الإجازة. ليس كثيرًا بالطبع! ومن حقك، بل من واجبك نحو نفسك أن تستمتع براحة طيبة. وأعتقد أن ساعة -أو ربما ساعتين هي القدر المطلوب. وإلا كان من اليسير أن يرين عليك الصدأ، وهنا تستغرق أسابيع لكي تعود إلى المضي مرة أخرى. ما رأيك».

- «أنا على أتم استعداد، يا سيدي، إن لم يكن في الأمر ما يزعجك كثيرًا».

- «عظيم، بعد العبرية، يمكن أن يفتح لك هوميروس عالمًا جديدًا. وسوف تقرؤه بمتعة مضاعفة، وأن تفهم بعد ذلك. إذا أرسينا الآن أساسًا متينًا. لغة هوميروس، اللهجة الأيونية القديمة، وعلم العروض الهوميري أشياء غريبة -إنها تؤلف لغة خاصة بها، وتتطلب عملًا شاقًّا، وأساسًا راسخًا إذا أراد المرء أن يتذوق الشعر تذوقًا كاملًا».

وكان هانز متأهبًا كل التأهب لولوج ذلك العالم المذكور، ووعد بأن يبذل أقصى جهده.. وحان الوقت لبلوغ الخاتمة. تنحنح الناظر لتسليك حلقه وواصل حديثه بنفس النبرة اللطيفة:

- «سوف يسرني أيضًا إذا وافقت على تكريس بضع ساعات للرياضيات. وأنت لست سيئًا في الحساب، غير أن الرياضيات لم تكن حتى الآن نقطتك القوية. وفي الكلية اللاهوتية سيكون عليك أن تدرس الجبر والهندسة، وخير نصيحة لك هي أن تأخذ بعض الدروس التمهيدية».

- «أوافق».

- «ستلقى دائمًا كل ترحيب في منزلي. أنت تعرف ذلك. ومن دواعي الشرف أن أراك تنجز أعمالًا عزيمة. وفيما يتعلق بالرياضيات، ينبغي عليك أن تسأل والدك في أن تأخذ درسًا خصوصيًّا من أستاذ الرياضة ثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع الواحد».

- «بكل تأكيد يا سيدي».

* * *

انغمس هانز في العمل مرة أخرى، فإذا اصطاد أو قام بجولة في ساعة من فراغ، أحس بتأنيب الضمير. وكان عليه أن يضحي بسباحته المعتادة من أجل دروسه مع أستاذ الرياضيات.

وبانهماكه في هذه الدروس كما كان يفعل، لم يعد قادرًا على استخلاص أي متعة من دروس الجبر. كانت شيئًا كئيبًا في أصيل قائظ حقًّا، أن يذهب إلى حجرة الأستاذ الخانقة بدلًا من بحيرة السباحة وأن يردد معه أ + ب و أ - ب، عندما يكون التعب قد نال من عقله كل منال، وحلقه قد أصابه الجفاف في ذلك الجو المترب الممتلئ بالذباب، وسُلط فوق رأسه جو ثقيل ضاغط كان يتحول بسهولة في الأيام السيئة إلى اكتئاب وقنوط. ولم يتقدم تقدمًا ملحوظًا في درس الرياضيات، ولكنه لم يكن من ناحية أخرى من أولئك التلاميذ الذين تعد هذه المادة بالنسبة إليهم شيئًا مستحيلًا، ففي بعض الأحيان كان يهتدي إلى حلول جيدة فيشعر بالسرور. وكان ما يحبه في الرياضيات هو أنه لم تكن

تسمح بأي خطأ أو إمكانية للانحراف عن المادة موضوع البرهان، أو بأي انتهاك للأراضي المجاورة أو الأجنبية.

ووجد اللاتيني جذابًا لهذه الأسباب عينها، وهي أنه واضح يقيني لا يسمح بالغموض أو ازدواج الدلالة، ولكن في الرياضيات بعد استخلاص جميع النتائج لا يخرج منها شيء واقعي. والكتب والدروس المتصلة بالموضوع كانت أشبه بالسير في طريق ريفي مسطح، فأنت تتقدم إلى الأمام، وفي كل يوم تمسك بشيء لم تكن تفهمه في اليوم السابق، ولكنك لا تبلغ أبدًا قمم جبل يمكنك أن تشرف منه وتكتشف على الفور مناظر شاسعة.

أما دروس الناظر فكانت تزداد تنشيطًا له يومًا بعد آخر. ومع أن القس كان يتوصل دائمًا إلى استخلاص شيء أكثر جاذبية وأشد تأثيرًا من العهد القديم المكتوب باليونانية أكثر مما يستخلصه الناظر من لغة هوميروس بكل نضارتها الشبابية.. إلا أن هوميروس هو الذي يدهشك حقًّا، ويسرك، ويغويك إذا استطعت أن تتخطى الصعوبات الأولية. وكثيرًا ما كان هانز يجلس مرتعدًا بنفاد الصبر والإثارة أمام سطر غنائي عذب ولكنه صعب، متلهفًا للعثور على المفتاح الذي يفتح له ذلك البستان الهادئ البهيج.

تجمعت لديه الآن كمية لا بأس بها من الواجبات المنزلية، وفي كثير من المناسبات كان يجلس إلى المنضدة مستغرقًا بعمق في بعض الواجبات حتى ساعة متأخرة من الليل. ولاحظ السيد جيبنرات هذا الاجتهاد بشيء من الزهو. ففي رأسه الغبي استقر في شيء من الغموض

ذلك المثل الأعلى الذي يعتز به كثير من الناس ذوي الذكاء المحدود، فكان يتخيل غصنًا يخرج منه وينمو بحيث يتجاوزه إلى ارتفاع لا يملك إلا أن يتأمله في رهبة صامتة.

وفي الأسابيع الأخيرة من إجازاته صار الناظر والقس أكثر رعاية له ورفقًا به بشكل ملحوظ. فكانا يزينان له القيام بجولات، وانقطعا عن بعض الدروس، وألحا على أهمية أن يشرع في المرحلة الجديدة من شخصيته يقظًا منتعشًا.

وقام هانز بالصيد مرات قلائل، إذ كان يعاني من صداع لا يفتأ يعاوده، فيجلس شاردًا على ضفة النهر الذي كان يعكس الآن سماء خريفية زرقاء شاحبة، وكان مما حيره السبب الذي جعله يتطلع إلى الإِجازة الصيفية، فها هو الآن سعيد بانتهائها، وأنه على وشك الدخول في كلية سيتغير فيها برنامج حياته وعمله تغيرًا كاملًا. ولما أصبح الآن غير مكترث إلى حد ما بالصيد فإنه لم يصطد سمكة واحدة تقريبًا. وفي مناسبة ما، عندما طفق أبوه يضايقه بسبب هذا الموضوع أخذ السنانير والعصي وضعها في صندوق من الصفيح وألقى بها في السندرة.

ولم يخطر على باله إلا في الأيام القلائل الأخيرة فحسب، أنه لم يقم بزيارة فليج الإسكافي منذ أسابيع. وحتى هذه اللحظة كان عليه أن يجبر نفسه على زيارته. كان الوقت مساء، وكان فليج يجلس إلى نافذة حجرة الاستقبال ومع طفل صغير على كل من ركبتيه. وكانت رائحة الجلد وطلاء الدباغة تشيع في المكان كله رغم النافذة المفتوحة. فلما أحس هانز بالحيرة، وضع يده في راحة الإسكافي العريضة.

وسأله الإسكافي «كيف يمضي الحال؟ أما زلت تجتهد في الدرس مع القس؟».

– «أجل، كنت أذهب إليه كل يوم، وقد تعلمت كثيرًا».

– «أي نوع من الأشياء؟».

– «اليونانية بصورة رئيسة، ولكني تعلمت أشياء أخرى أيضًا».

– «ولم تشعر أبدًا بدافع المجيء إليّ؟».

– «شعرت به من غير شك، يا سيد فليج، ولكنني لم أستطع تنفيذه، درسي مع القس يوميًّا، ودرسان يوميًّا مع الناظر، وكان عليَّ بعد ذلك أن أذهب لأستاذ الرياضيات أربع مرات في الأسبوع».

– «هذا كله خلال الإجازات؟ شيء لا معنى له!».

– «لست أدري، فالمدرسون أرادوا أن أتلقى هذه الدروس كلها، ووجدت الدراسة يسيرة عليّ».

قال فليج ممسكًا بذراع الغلام: «قد يكون الأمر كذلك».

– «قد لا يهم الأمر فيما يتعلق بالدراسة، ولكن انظر إلى هاتين الذراعين النحيلتين، ووجهك النحيف. أما زال الصداع يفاجئك؟».

– «من حين إلى آخر».

– «هذا كله خطأ وخطيئة. وكان ينبغي في سنك أن تستمتع بالهواء والرياضة وقسط طيب من الراحة. لماذا كانت الإجازات إذن؟ بالتأكيد هي ليست للجلوس داخل المنزل ومزيد من الدراسة، لست سوى جلد

على عظم».

وضحك هانز.

– «أوه أجل، سوف تكسب.. غير أن ما يزيد عن الحد ينقلب إلى الضد. وماذا عن الدروس مع القس. ماذا كان عنده ليقوله؟».

– «أشياء كثيرة، ولكنه لم يقل شيئًا يمكن أن تستنكره. إنه غزير العلم».

– «ولم يتحدث باحترام عن الكتاب المقدس؟».

– «كلا، ولا مرة واحدة».

– «طيب. ولكن ينبغي أن أقول هذا: الضرر عشرة أضعاف لجسمك خير من الضرر الذي يصيب روحك! أنت تعتزم أن تصبح من رجال الكهنوت فيما بعد، وهذه الوظيفة صعبة وذات مسئولية، ولهذا تحتاج إلى نمط آخر من المرشحين يختلف عن معظم شباب اليوم. ولعلك تكون المادة الصالحة، وسوف تصبح معوانًا ومعلمًا للأرواح . وأود ذلك من صميم قلبي، وسأصلي لهذا الغرض».

نهض على قدميه، ووضع يديه بحزم على كتفي الصبي:

– «وداعًا يا هانز، كن فتى صالحًا! وليباركك الرب ويحفظك، آمين».

وجد هانز هذه اللغة الاحتفالية، وهي المباركة واللغة العتيقة ثقيلة مستهجنة، أما طريقة القس عندما ودعه، فكانت مختلفة تمام الاختلاف.

وعبرت أيامه القلائل الأخيرة كما تعبر الومضة في حمى من الإِعداد والتوديع. وأرسلت بالفعل حقيبة تحتوي على أغطية السرير والثياب والكتب إلى مكانه الجديد، وذات صباح بارد شرع الأب والابن في الرحيل إلى «مولبرون» وكانت تجربة مقبضة غريبة أن يرحل عن مسقط رأسه وبيت أبيه ويذهب إلى مؤسسة غريبة.

* * *

الفصل الثالث

يمتد دير الرهبان البندكتيين الكبير في مولبرون شمال غربي المقاطعة، وسط تلال تغطيها الغابات وبعض البحيرات الصغيرة الوادعة. والمباني القديمة البديعة رحبة متينة البنيان، أحسنت صيانتها، وتغري أي إنسان بالإِقامة فيها؛ وذلك لأناقتها في الداخل والخارج على السواء، وعلى مر القرون صارت بالتدريج جزءًا منسجمًا مع المنظر الجميل من حولها. ويلج الزائر للدير من بوابة رائعة المظهر في جدار مرتفع، يدلف منها إلى ممر رحب هادئ. وثمة جدول يتخللها؛ وهنا وهناك على كلا الجانبين تصطف أشجار عتيقة ومبان حجرية راسخة؛ وفي الخلفية تنتصب واجهة المبنى الرئيس للكنيسة تعلوها شرفة على الطراز الرومانسكي المتأخر، الذي شاع في عصر «جاليليو»، وهي ذات رشاقة وسحر لا مثيل لهما. وعلى سقف الكنيسة الرحب يرتفع برج صغير هزلي بحيث يصعب على المرء أن يتصور أن هذا البرج الصغير يمكن أن يأوي جرسًا ضخمًا. وجوهرة الجناح التي ما زالت متماسكة تمام التماسك وهي في حد ذاتها عمل بالغ الروعة والكمال تعد مصلّى بديع الصنع. ومطعم الرهبان بسقفه المعقود المضلع، والمنبر، وقاعة الاستقبال، ومنزل الأسقف، وكنيستان تؤلف جميعًا كلًّا ضخمًا شامخًا.

والجدران الخلابة المنظر والنوافذ المقوسة، والممرات التي تؤدي إلى البوابة، والحدائق، والطاحونة ومنازل إقامة الرهبان، تشكل تضادًّا مرحًا بيتيًّا مع المباني الفخمة القديمة التي تحيط بها. ويمتد ممر المدخل خاويًا ساكنًا يلعب مباراة مسترخية مع ظلال الأشجار. ولا تشيع فيه إثارة من حياة إلا في الساعة التي تعقب منتصف النهار، ففي ذلك الوقت يخرج من الدير سرب من الشباب، ويتناثر في المنطقة الرحبة تصاحبه صيحات مفعمة بالحياة، والمحادثات، والضحكات، وأحيانًا يلعب هؤلاء الشبان مباراة في الكرة، وبعد انتهاء ساعة الراحة، يختفون سراعًا خلف الجدران دون أن يتركوا وراءهم أثرًا، ولا بد أن كثيرين قد خطر لهم وهم واقفون في هذا الميدان أن هذا هو المكان الذي ينفقون فيه فترة صحية من حياتهم وسعادتهم، وأن شيئًا حيًّا نافعًا لا بد وأن يزدهر، وأنه في هذا المكان ينبغي أن يفكر رجال ناضجون صالحون أفكارهم المرحة وينجزون أعمالهم المفرحة.

هذا المكان البعيد الفخم، المتواري خلف التلال والغابات خصص لطلاب الكلية اللاهوتية البروتستانتية، حتى يستطيع هؤلاء الشباب أصحاب الحساسية المرهفة أن يعيشوا في بيئة من الجمال والسكينة. وفضلًا عن ذلك، فإنهم يبعدون بهذه الطريقة عن المؤثرات الملهية التي تصدر عن المدن وعن الحياة العائلية، ويتمتعون بحصانة من المشهد الضار للنشاط الدنيوي. وبهذه الطريقة أيضًا يمكن التأكد من أن دراسة اليونانية والعبرية، وغيرهما من الموضوعات الجادة المتصلة بهما، سوف تصبح نصب أعينهم سنوات طوالًا بوصفها هدف حياتهم،

وسوف تصرف هذه الأرواح الشابة الظمأى إلى طموحات ومباهج مثالية. وحياة المدارس الداخلية عامل مهم في هذا النظام بتوكيدها على الاعتماد الذاتي وروح الجماعة. والأساس الذي يجعل هؤلاء الطلبة جديرين بامتياز الحياة والدرس على هذه النحو، هو أن يكون هؤلاء التلاميذ مشحونين بروح خاصة –سوف تميزهم فيما بعد– هي تلك السمة المهذبة المحددة التي ألمحنا إليها فيما سبق. وفيما عدا قلة تنحرف عن الطريق المرسوم، فإن كل طالب لاهوتي من إقليم «سوابيا» يمكن التعرف عليه بوصفه كذلك في البقية الباقية من عمره.

والفتيان الذين ما زالت أمهاتهم على قيد الحياة حتى ذلك الوقت عندما دخل أبناؤهن هذه الكلية يتذكرون ذلك اليوم بشعور من الامتنان الحزين. ولم يكن هانز جيبنرات واحدًا من هؤلاء؛ فقد غادر المنزل دون أي عاطفة، ولكنه لم يكن يملك إلا أن يرى أمهات أولئك الفتيان الآخرين، فترك ذلك على نفسه انطباعًا غريبًا، وفي عنابر النوم التي لم تكن في الواقع سوى ممرات طويلة تصطف فيها الدواليب وضعت أمامها الحقائب والسلال، والفتيان الذين اصطحبهم آباؤهم كانوا منهمكين في فك حوائجهم. وكان لكل فتى درج مرقوم، كما أروه رف الكتب المخصص له في حجرة الاستذكار. كان الآباء والأبناء ينحنون لحل متاعهم الموضوع على الأرض؛ وقد أخذ المدرس المختص بشؤون الطلبة يتجول وسطهم كأنه أمير، يمنحهم من حين إلى آخر نصيحة ثمينة. انتشرت الثياب التي أخرجت من حقائبها، قمصانًا مطوية، كتبًا مكوَّمة، أحذية، وخفافًا رُصَّت في صفوف. وكانت معظم ثياب الصبيان

الخارجية متشابهة إلى حد بعيد، إذا أُعطيت لكل منهم قائمة بالحد الأدنى من الثياب الداخلية والضرورية على السواء. ونقشت أسماؤهم على أحواض اغتسال الطلبة، وكذلك أوعية الصابون، والأمشاط، وفُرش الأسنان. وبالإضافة إلى هذا أحضر كل صبي مصباحًا، وعلبة من البارافين، ومجموعة من أدوات المائدة.

وكان الفتيان جميعًا في حالة شديدة من الانشغال والإثارة. وحاول الآباء أن يقدموا لهم يد العون وهم يبتسمون، وهم يرجعون إلى ساعاتهم في فترات الملل، وبذلوا جهدًا في البقاء في الخلفية. وكانت الأمهات هن اللواتي شاركن في الانشغال. فالتقطن صنوف الثياب المختلفة، وحاولن تسوية ما فيها من غضون وكرمشة، وشددن الأشرطة حتى تستقيم، وفصلن كل البنود المختلفة استعدادًا لوضعها مطوية بعناية في الدواليب. وكان ثمة تدفق منتظم للتحذيرات، والاقتراحات، والتشجيعات الحارة التي تصاحب كل هذا النشاط.

– «عليك أن تكون معتنيًا عناية خاصة بقمصانك الجديدة؛ فقد كلفنا كل منها ثلاثة ماركات ونصفًا».

– «لا بد أن ترسل غسيلك بالقطار كل شهر –بالطرد البريدي، إن كان هناك داعٍ للاستعجال. وعليك أن تحتفظ بقبعتك السوداء لأيام الآحاد؟».

وكانت هناك امرأة بدينة، يبدو على وجهها الارتياح –تجلس على حقيبة ضخمة تعلم ابنها فن خياطة الأزرار.

وكانت هناك أخرى تقول: «إذا أحسست بالحنين إلى البيت، واظب على الكتابة إليّ. لن يطول الوقت كثيرًا على حلول أعياد الميلاد».

وثمة امرأة جميلة، ما زالت في ريعان شبابها -تفحص دولاب ابنها، وتمسح بيدها في حنان على كومة من الملاءات والسترات والسراويل. وعندما فرغت من هذا، شرعت في تقبيل الغلام. وحاول الابن المتورد الوجنتين، والعريض المنكبين أن يوقفها، وأطلق ضحكة مرتبكة، وحتى لا يبدو طفلًا مدللًا دس كلتا يديه في جيبي سرواله. وكان يبدو عليه أنه لا يتأثر بهذا الرحيل تأثر أمه به.

وكان العكس هو ما يحدث مع الآخرين.. إذ كانوا ينظرون إلى أمهاتهم المنهمكات في شيء من العجز وقلة الحيلة، وكأنما يؤثرون العودة إلى البيت مع أمهاتهم. كان هناك صراع هائل يدور في صدورهم جميعًا -الخوف من تركهم والشعور الحاد بالحنان والاعتماد من جهة، وتوكيد الذات المتحدي الذي تتسم به المراهقة من جهة أخرى. واتخذ عدد من الأولاد الذين كانوا على وشك البكاء- اتخذوا تعبيرًا باللامبالاة العارضة، وسلكوا مسلك من لا يعنيهم الأمر بوجه خاص، كما تكلفت الأمهات ابتسامات رسمنها على وجوههن. وكان كل صبي تقريبًا قد اصطحب معه بعض الأشياء «الإِضافية» خارج البنود المنصوص عليها، وعليه أن يخرجها من حقيبته- وكان من ضمنها قراطيس التفاح، والسجق المدخن، وسلال من المعجنات. وأحضر بعضهم الآخر زحافات الانزلاق. ولفت صبي ضئيل يبدو عليه المكر الأنظار إليه إذ كان يملك قطعة كبيرة من لحم الخنزير دون أن يتجشم

أي عناء لإِخفائها.

ولم يكن من الصعب التمييز بين هؤلاء الذين أتوا مباشرة من بيوتهم، وبين أولئك الذين كانوا ملتحقين بالفعل في مدارس داخلية أو في مؤسسات مشابهة. ومع ذلك كان من الممكن للمرء أن يتبين شيئًا من الانفعال والتوتر حتى بين هؤلاء الآخرين.

وكان السيد جيبنرات يساعد ابنه على فك أمتعته، وشرع في هذا العمل بطريقة رشيقة عملية، فانتهى لذلك قبل معظم الآخرين، ووقف إلى جانب هانز في عنبر النوم وقد بدا عليه الضجر. وبينما كان يلاحظ الآباء الآخرين وهم يسدون النصائح من كل صوب، ويلقون المواعظ الأخلاقية، والأمهات وهن يجلبن العزاء والتشجيع لأبنائهن، والأبناء ينصتون، خطر له أنه قد يكون من الملائم أن يضع هانز على طريق الحياة بأن يلقي على مسامعه بعض الكلمات الذهبية من ابتكاره. فكر مليًّا بضع لحظات، ثم اقترب من ابنه على نحو من الارتباك، وبغتة فتح النيران بسيل من المواعظ المنتقاة استمع إليها هانز في دهشة صامتة حتى لمح كاهنًا يقف هناك مبتسمًا على الخطب التي ألقاها والده. استبد به الخجل، وسحب المتحدث نحوه.

– «حسن، إني على يقين من أنك ستكون فخرًا لأسرتك وأن تطيع السلطات».

قال هانز: «أجل، طبعًا».

توقف أبوه، وتنفس الصعداء متنهدًا. كان الضجر قد بدأ يدب إلى

نفسه من كل هذا. وأحس هانز أيضًا بشيء من الحيرة –ففي لحظة كان ينظر في فضول منبهر خلال النافذة إلى الرواق الهادئ بسكينته العتيقة وهيبته التي تتعارض مع الحياة الشابة الصاخبة التي تجري في الطابق الأعلى– وفي اللحظة التالية كان ينظر في عصبية إلى أقرانه من التلاميذ الذين لا يعرف منهم أحدًا حتى الآن. فلم يظهر قريبه القادم من شتوتجارت ويبدو أنه لم ينجح في القبول رغم كل لاتينه المتفوق في جوبينجن –وعلى كل حال، لم يره هانز في أي مكان. ودون أن يعطي هذه المسألة كثيرًا من التفكير، جال بعينيه على رفاقه المقبلين. ومع أن ثيابهم كانت متشابهة في الطراز وتتألف من البنود نفسها، لم يجد أي صعوبة في تمييز أبناء المدن من أبناء المزارعين، والأغنياء من الفقراء. والواقع أن أبناء الآباء الأثرياء لا يأتون إلى الكلية عادة، وهو أمر كان يرجع إلى كبرياء الآباء أو بُعْد نظرهم. ومع ذلك فإن عددًا من الأساتذة وكبار الموظفين كانوا يرسلون أبناءهم إلى «مولبرون» في ذكرى أيامهم في هذا الدير. ومن ثم كان من الممكن أن تقع عيناك على تنوع واسع في الثياب وفي الطراز بين الأربعين سترة الحاضرة، ويشتد الخلاف ويصبح أكثر تميزًا في آداب السلوك، واللهجات، والهيئة بين هؤلاء الشباب أنفسهم. إذ كان بينهم أولاد يتميزون بالرشاقة ومتانة الأطراف وهؤلاء قادمون من الغابة السوداء، ومنهم من يتميز بالفظاظة والخشونة وهؤلاء قادمون من منطقة «الجاو» بشعورهم الكتانية وأفواههم الواسعة، ومنهم فتيان يتميزون بالنشاط، وهم قادمون من السهول؛ وأنماط مهذبة ينتمون إلى شتوتجارت بأحذيتهم المدببة وبلهجتهم المختلطة المسرفة في

التهذيب. وخمس زهرة هؤلاء الشباب يضعون نظارات على أعينهم. ومنهم فتى رقيق يرتدي ملابس أنيقة ويبدو عليه أنه «ابن أمه»، وأنه قادم من شتوتجارت، كان يضع على رأسه قبعة من الفلين الصلب، وكان يمشى في خُيلاء، وهو لا يدري لحسن حظه أن أي شذوذ –حتى ولو كان في اليوم الأول– سيجعله ملحوظًا وسيكون سببًا فيما بعد لكثير من المتاعب من جانب من يتميزون بالجرأة.

وسوف يدرك الشخص الذي هو أكثر تمييزًا أن هذه الجماعة من الفتيان العصبيين يمكن أن يكونوا ممثلين لشباب البلاد جميعًا. فإلى جانب الأولاد المتوسطين، كان هناك عدد من صنف يتميز بالحساسية المرهفة أو بالتصميم العنيد وتحت جباههم الناعمة تختفي أحلام عن حياة راقية. وربما كان من بينهم واحد أكثر من هذه العينة الحساسة والعنيدة قادم من سوابيا، ويماثل أولئك الذين انتهوا بعد أعوام، وفي الوقت المناسب، إلى خدمة العالم الكبير، وجعلوا من أفكارهم الجافة الضيقة نوعًا ما النقطة البؤرية لمذهب فلسفي جديد له تأثيره. ذلك أن سوابيا لا تزود نفسها والعالم فحسب باللاهوتيين المهذبين، ولكنها تفخر باستعداد تقليدي للنظر الفلسفي الذي أعطى في أكثر من مناسبة المولد لرسل ذوي أهمية ملحوظة، دون ذكر للرسل المزيفين. وهكذا، فإن هذه المقاطعة التي ترجع تقاليدها السياسية العظيمة إلى الماضي السحيق، هذه المقاطعة ما زالت تمارس تأثيرها على العالم، وعلى كل حال في المجال الروحي للفلسفة الدينية. وجنبًا إلى جنب مع هذا كان يوجد بين سكانها استمتاع بالشكل الجميل، والشعر الحالم الذي يرجع

هو أيضًا إلى الماضي والذي أنجب من حين إلى آخر شعراء وناظمين لم تذهب جهودهم هباء وبلا تقدير.

وقد لا تجد النظرة السطحية أي أثر للعنصر السوابي في العادات الخاصة بكلية مولبرون اللاهوتية ونظامها؛ بل على العكس، فقد أُلصق عدد من العناوين بين الأسماء اللاتينية التي تركت منذ إنشاء الدير. والدراسات التي يتوزع عليها الطلبة تحمل أسماء فورام، وهيلاس، وأثينا، وإسبرطة، والأكروبوليس، وحقيقة أن أصغرها وآخرها والذي سُمي «جرمانيا» يمكن أن يؤخذ على أنه يبين أن لديهم ما يدعو إلى الربط بين ألمانيا الحديثة وبين مثل أعلى يوناني –روماني. غير أنه حتى هذا كان سببًا سطحيًّا، والواقع هو أن الأسماء العبرية كان من الممكن أن تكون أكثر ارتباطًا، وذلك أنه كما تشاء المصادفة –فإن الدراسة التي سميت بأثينا، بدلًا من أن تتلقى أرحب العقول وأفصحها، عهد إليها بعدد من الباعثين الأمناء على الضجر، كما لم تكن إسبرطة هي وطن المحاربين والزهاد بل حفنة من التلاميذ المحترمين، سريعي التهيج، أسكنوا فيها لحضور المحاضرات الخارجية. ووضع هانز في «هيلاس» مع مجموعة تتألف من تسعة آخرين من الرفاق.

واستولى عليه شعور غريب حين دخل هو والتسعة الآخرون عنبر النوم البارد القاحل لأول مرة في المساء ورقد في سريره المدرسي الضيق. وكان يتدلى من السقف مصباح زيتي كبير ساعدهم ضؤوه الأحمر على التجرد من ثيابهم، وأطفأه مدرس الطلبة في الساعة العاشرة والربع. وكانت الأسِرَّة مصطفة جنبًا إلى جنب وبين كل زوج

منها مقعد صغير يكومٌ عليه الطلبة ملابسهم؛ وعلى العمود عُلِّق الحبل الذي يرن جرس الصباح. وكان اثنان أو ثلاثة من الطلبة قد تعارفوا فيما بينهم بالفعل فأخذوا يتبادلون همسات قلائل خجلة، ولم يلبثوا أن كفوا تمامًا؛ أما بقيتهم فكان كل منهم غريبًا على الآخرين، فرقدوا في أسرتهم هادئين مكتئبين. أما الذين ناموا فعلًا فكانوا يتنفسون بعمق، وكلما حركوا ذراعًا في نومهم صدر عن اللحاف حفيف خافت. وأما الذين ما زالوا مستيقظين فقد التزموا السكون. وظل هانز غير قادر على النوم لفترة طويلة. وأنصت لتنفس جاره، وبعد برهة التقطت أذناه صوتًا غريبًا مخيفًا من السرير المجاور له، وكان هناك فتى يرقد باكيًا وقد غطى رأسه بملاءته. هذا النحيب المسموع أثر على هانز تأثيرًا غريبًا. ولم يكن هو نفسه يعاني من الحنين إلى البيت، ولكنه كان يفتقد الحجرة الصغيرة الهادئة التي كانت له في بيته، وفضلًا عن ذلك كان هنالك ذلك الخوف العصبي من موقفه الجديد ومن كل تلك الوجوه الجديدة. ولم يكن الليل قد انتصف بعد، غير أن أحدًا في عنبر النوم لم يكن مستيقظًا. ورقد النائمون جنبًا إلى جنب، تضغط وجناتهم على الوسائد المخططة، المحزونون منهم والمتحدّون، الأدفياء منهم والخائفون، وقد غشيهم جميعًا نفس النعاس العذب الذي لا يكدره شيء، ونفس النسيان. وصعد نصف قمر شاحب فوق الأسطح المنحدرة العتيقة، وفوق الأبراج، والنوافذ المقوسة، والبريجات، والتحصينات، والأروقة القوطية المغطاة (البواكي)؛ وانسكب ضؤوه عبر الكورنيشات، وأفاريز النوافذ، وتدفق على النوافذ القوطية والبوابات الرومانسكية، وتألق

مُذْهبًا فوق الجفنة الكبيرة البديعة التي تبدو عليها نافورة الدير. وكذلك سقطت أشعة صفراء فوق عنبر النوم الهلاسي من خلال نوافذ ثلاث، وشكَّل مصاحبًا ودودًا لأحلام الفتيان النائمين، كما كان يصاحب الرهبان في الأيام الخوالي.

وفي اليوم التالي جرى احتفال الالتحاق المهيب في المصلّى. وكان المدرسون يقفون في ستراتهم الفراك، وألقى رئيس الدير الخطبة؛ أما الطلبة فكانوا يجلسون على الأرائك الخشبية، وقد أحنوا رؤوسهم مستغرقين في التفكير، مسترقين النظر من حين إلى آخر إلى آبائهم الذين يجلسون وراءهم بمسافة طويلة. وكانت الأمهات يبتسمن بحزن إلى أبنائهن، جلس الآباء في استقامة تامة وهم يتابعون الخطبة بجدية متجهمة. وكانت مشاعر الزهو والفخار والآمال العريضة تملأ صدورهم، ولم يخطر لواحد منهم أنه كان يبادل ابنه نظير ميزة مالية. وأخيرًا، نودي على كل طالب بالاسم ليقف قبل الآخرين حتى يصافحه رئيس الدير المصافحة الاحتفالية بوصفها عهدًا من المؤسسة أن تقوم الدولة برعايته وحمايته بقية حياته إذا سلك المسلك القويم. ولم يكن يبدو أن أحدًا منهم –والآباء أقل من الجميع– يدرك أن كل هذا نظير لا شيء.

وعندما حان الوقت ليقوم الأولاد بتوديع أمهاتهم وآبائهم، كان المشهد أشد حزنًا. وقف بعضهم على أقدامه، وأطل بعضهم الآخر من العربة، أو من أي وسيلة للانتقال عثروا عليها في استعجالهم، كانوا الآن يختفون عن أنظار أبنائهم الذين تركوهم، وقد ظلوا يلوحون لهم بمناديلهم فترة طويلة في هواء سبتمبر العليل حتى ابتلعتهم الغابة أخيرًا،

ورجع أبناؤهم هادئين متفكرين إلى الدير.

قال مدرس شؤون الطلبة: «حسن، لقد رحل الآن آباؤكم».

وشرع الطلبة يقيس بعضهم بعضًا بأنظارهم، محاولين أن يتعارف بعضهم على بعض، مبتدئين بطلبة فصولهم. وملأ كلٌّ محبرته، وعمّروا المصابيح بالزيت، وقاموا بترتيب كتبهم وكراريسهم، وحاولوا أن يشعروا بأنهم في بيوتهم في حجرتهم المشتركة. فحص كل منهم الآخرين بلهفة، ودخلوا في محادثات، وسأل كل منهم الآخر عن المكان والمدرسة التي جاء منها، وذكَّر بعضهم بعضًا بالعذاب الذي اجتازوه في «الامتحان العام»، وانعقد الصبيان المتحدثون حول المناضد المدرسية المنعزلة، ومن حين إلى آخر كانت تنطلق الضحكات الصافية الصبيانية، وعندما حل المساء، كان أعضاء كل فصل قد تعرفوا فيما بينهم بأكثر مما يتعرف المسافرون في نهاية رحلة بحرية طويلة.

وبين الأصدقاء التسعة الذين شاركوا هانز في «هيلاس»، كان هناك أربعة يتميزون بشخصيات حقيقية؛ أما الباقون فلم يكونوا يتميزون بشيء. كان هناك أولًا «أوتو هارتنر»، وهو ابن أستاذ في شتوتجارت- شاب موهوب، هادئ، واثق من نفسه، ومثالي في سلوكه. وكان عريض المنكبين، وسيمًا، حسن الهندام، وترك انطباعًا مؤثرًا على مجموعته بخطوته الحازمة العازمة. ثم كان هناك كارل هاميل، وهو ابن عمدة قرية صغيرة من أعالي سوابيا. واستغرقت معرفته بعض الوقت، لأنه كان حافلًا بالمتناقضات، ونادرًا ما كان يخرج من بلادته الظاهرية، فإذا خرج منها، صار متحمسًا، عاصفًا، عنيفًا، وسرعان ما يهدأ مرة أخرى،

وحينئذ يكون من العسير أن يكتشف المرء: هل هو ملاحظ هادئ، أو مجرد شخص ماكر.

وكان «هرمان هايلنر» شخصًا يسترعي النظر، وفيه لمحة من الأصالة، وينحدر من أسرة عريقة في الغابة السوداء. وكان من الجلي من أول يوم أنه شاعر وباحث؛ وانتشرت أسطورة تقول إنه كتب موضوع إنشائه في الامتحان العام بالشعر المنظوم. وكان متحدثًا نشطًا بليغًا، ويملك آلة كمان بديعة، ويترك انطباعًا بأن المرء يستطيع أن يقرأ شخصيته التي تتألف أساسًا من مزيج من العواطف الشابة غير الناضجة ومن المرح وكأنه كتاب مفتوح. ومع ذلك، كان هناك جانب أقل شخصية يحتفظ به مخفيًّا. وكان مكتمل النمو من الناحيتين الجسمانية والعقلية بحيث يبدو أكبر من سنه، وقد بدأ بالفعل يرتاد دروبًا تجريبية من صنعه.

أما أغرب صبي في هيلاس، فكان «إميل لوشيوس»، المتحفظ، ذا الشعر الجعد، الحيي، المجتهد، وكان جافًا كفلاح عجوز. ورغم هيئته وملامحه التي لم يكتمل تطورها بعد، فإنه لم يكن يعطي الانطباع بأنه صبي؛ وكان فيه شيء قد نما إلى درجة أنه ليس من المحتمل أن ينمو أكثر من ذلك. وحتى في اليوم الأول حين كان الآخرون يعانون من الضجر ويتحادثون، ويحاولون الاستقرار، جلس هادئًا، منكبًّا على كتاب في النحو، وقد وضع يديه فوق أذنيه، وأخذ يستذكر وكأنه يستدرك أعوامًا ضائعة بأكملها لم يفعل فيها شيئًا.

وبالتدريج، أصبح الآخرون يألفون طرائق هذا الصبي الهادئ، ويجدون أنه خبير في الوضاعة والأنانية، بحيث إن كماله في هاتين

الرذيلتين يدفعهم –إن لم يكن إلى احترامه– فإنه يدعوهم إلى درجة من التسامح. وكان قد وضع خطة ماكرة في التوفير والفائدة، لم تظهر دقائقها التفصيلية إلى النور إلا تدريجيًّا، وحينئذ أثارت كثيرًا من الدهشة. بدأت أول شيء في الصباح عندما صحوا من نومهم. كان لوشيوس حريصًا إما الأول أو الأخير في الحمام لكي يستعير فوطة شخص غيره، وإذا أمكن– صابونته أيضًا حتى يتمكن بهذه الطريقة من المحافظة على فوطته بحيث يستخدمها أسبوعين أو أكثر. وكان من المفروض أن يتم تجديد الفوط كل أسبوع، وفي صباح كل يوم إثنين كان مدرس شؤون الطلبة يقوم بمراجعتها، ومن ثم اعتاد لوشيوس أن يعلق فوطة نظيفة على مشجبه المرقوم وأن يأخذها مرة أخرى خلال استراحة الغداء. فكان يطويها حينئذ دون استخدام ويعيدها إلى صندوقه، ويعلق الفوطة القديمة التي ادخرها في مكانها. وكانت صابونته صلبة، وليس في الإمكان استخلاص أي رغوة منها، ومن ثم كانت تدوم شهورًا. ورغم هذا كله، لم يكن «إميل لوشيوس» يبدو قذرًا في مظهره، بل يبدو دائمًا نظيفًا حسن الهندام، وقد قام بتصفيف شعره الأصفر الناعم مفروقًا في عناية شديدة، كما كان يعتني بملاءة سريره وثيابه على نحو نموذجي.

وبعد أن يغتسلوا، كان الإفطار هو المرحلة التالية ويتألَّف من فنجان من القهوة، وقالب سكر، وشطيرة. وكان معظم الطلبة المفتوحة شهيتهم في هذا العمر بعد ثماني ساعات من النوم، لا يرون هذا الإفطار رائعًا، ومع ذلك، لم يجد لوشيوس مجالًا للشكوى، بل كان يدخر قالب السكر اليومي، دون أن يفشل أبدًا في العثور على من يبتاعه منه ببنسين،

أو خمسة وعشرين قالبًا في مقابل كراسة للتمرينات. لا عجب إذن أنه كان يؤثر العمل في المساء تحت مصابيح زملائه الآخرين لتوفير زيت المصابيح المرتفع الثمن. والغريب أنه لم ينحدر من أبوين فقيرين، بل نشأ في ظروف مريحة، وعرف كيف يعيش بطريقة اقتصادية شحيحة نادرًا ما تتحقق بواسطة أطفال أناس فقراء حقًّا، يعيشون مثلهم من اليد إلى الفم.

ولما لم يكن راضيًا عن تدبيره لاقتناء الممتلكات المادية، والخيرات الملموسة، بحث لوشيوس عن وسيلة لاستغلال المزايا التي يملكها في مجال العقل، وفي هذا لم يكن أقل خبرة. وحينما أقدم على ذلك كان من الحرص والحصافة بحيث لا ينسى أبدًا أن الامتلاك العقلي لا يتمتع إلا بقيمة نسبية؛ وبالتالي فقد ادخر جهوده الحقيقية للموضوعات التي يمكن أن تكون مثمرة في الامتحان التالي، مكتفيًا بالحصول على درجة متوسطة متواضعة في العلوم الأخرى. وفي كل ما يستذكره وينجزه فإنما يقيسه بأداء زملائه الآخرين، وخير عنده أن يكون الأول في مادة من المواد يعرفها معرفة ناقصة، من أن يكون الثاني بمقدار مضاعف من المعرفة. وكانت النتيجة أن تراه جالسًا في هدوء عاكفًا على عمله في المساء، على حين يمضي أصدقاؤه في كل صفوف اللهو وتزجية الفراغ مثل الألعاب أو القراءة. ولم يكن يعير الضجة التي يثيرها الرفاق من حوله أدنى اهتمام، وإنما كل ما يفعله هو أن يلقي عليهم من حين إلى آخر نظرة عابرة، ذلك أنهم إذا عكفوا على المذاكرة مثله في الوقت نفسه، فإن عمله الإِضافي هذا لم يكن ليجلب إليه أي مكافأة.

ولم يكن أحد ينظر شزرًا إلى هذه الحيل الماكرة التي يلجأ إليها هذا المجتهد الذي يسعى إلى الحصول على الأفضل. ولكنه مثل جميع أولئك الذين يحاولون التفوق على أقرانهم، فإنه سرعان ما جعل من نفسه موضعًا لاستهزائهم. إذ لما كان كل تعليم في الكلية بالمجان، فقد أراد أن يستغل هذه الميزة ليتلقى دروسًا في العزف على الكمان. لا لأنه يتمتع بأي استعدادات، في الأذن أو الموهبة، للموسيقى، أو حتى كان يستمد أي متعة من الإِصغاء إليها. ولكن كان خاضعًا لانطباع بأنك تستطيع أن تتمكن من العزف على الكمان كما تستطيع أن تتعلم اللاتينية أو الرياضيات. فقد سمع أن الموسيقى يمكن أن تكون مفيدة فيما يقبل من الحياة، وأنها تغدق المزايا على أصحابها، ثم إنها لا تكلفه شيئًا ما دامت الكلية هي التي تزود التلاميذ بالآلات التي يستعملونها.

وقف شعر رأس مدرس الموسيقى حين أتى إليه لوشيوس ليدرس الموسيقى، ذلك لأن السيد هاسّه كان يعرف سلفًا من دروس الغناء عندما كان أداء لوشيوس يلهي زملاءه التلاميذ، ولكنه يؤدي بمدرسه إلى القنوط. فبذل أقصى ما في وسعه لإِقناع الصبي بالعدول، غير أن هذا الأمر بالنسبة للوشيوس كان مستحيلًا، ذلك أن الغلام ابتسم ابتسامة ماكرة متواضعة، وأشار إلى حقه في تلقي الدروس، وأطنب في غرامه الشديد بالموسيقى. فعهد إليه المدرس بأسوأ آلة كمان للتدريب، وتلقى درسين أسبوعيًّا، وأخذ يتدرب نصف ساعة يوميًّا. وبعد جهوده الأولى أعلن رفاق دراسته أن هذه المرة ستكون الأولى والأخيرة، وبأنهم يرفضون أن يحدث مثل هذا الضجيج الذي لا يطاق.

ومنذ تلك اللحظة، كان لوشيوس يتجول قلقًا تحت الشرفات باحثًا عن ركن يمكن أن يتدرب فيه، ومن أي مكان كان هذا التدريب، فإن أصواتًا تدخل في باب النشاز والعواء والأنين كانت تتصاعد لتزعج كل من يجاوره. وقد شبه الشاعر هايلنر هذه الأصوات وكأن الآلة المعذبة تستجدي الرحمة بشيء من اليأس من كل الثقوب التي أحدثتها الديدان فيها. ولما لم يحرز لوشيوس أي تقدم، أضحى مدرسه المتألم أشد عصبية وأكثر صراحة. وظل لوشيوس يتدرب في يأس متزايد، وارتسم على وجهه الشبيه بوجه البائع –قنوط متزايد، وبعد أن كان وجهًا ناعمًا لا يزعجه شيء، بدأ القلق يخط غضونه عليه. وكان الأمر مأساويًا، لأنه حين أعلن مدرسه أخيرًا أنه غير قادر تمامًا، ورفض أن يستمر في إعطائه مزيدًا من الدروس، اختار المتحمس الخائب أن يدرس البيانو، وكرس نفسه شهورًا طويلة عديمة الجدوى من العذاب، حتى أنهكه الصراع، فتخلى عن تلك الدروس. غير أنه في الأعوام التالية، إذا احتدم النقاش حول الموسيقى، كان يسمح لنفسه أن يقول إنه هو أيضًا قد تعلم البيانو والكمان، وأن الظروف لم تكن مواتية فعزلته عن هذا الفن الجميل.

وكثيرًا ما اندفعت مجموعة هيلاس إلى تسلية نفسها على حساب أعضائها، وحتى المفكر هايلنر شارك في كثير من هذه النوادر الصاخبة، وقام كارل هاميل بدور المراقب الساخر حاضر البديهة. وكان يكبر الآخرين بعام واحد، فاكتسب من جراء هذه الحقيقة اعتبارًا خاصًا، وإن لم يأت بأي محاولة لاستغلالها أو فرض احترامه عليهم بأي وسيلة؛ وكان متقلب المزاج، وفي مرة كل أسبوع على الأقل كان يشعر بدافع

إلى أن يختبر قوته الجسمانية في «معركة» يصبح فيها عنيفًا إلى درجة القسوة.

وكان هانز جيبنرات يراقبه بدهشة شديدة، ولكنه مضى في طريقه رفيقًا طيبًا، مسالمًا. وكان يجتهد اجتهادًا شديدًا، لا يقل عن اجتهاد لوشيوس، فاكتسب احترام رفاقه في المجموعة، فيما عدا هايلنر الذي اكتسب سمعة على طيشه ونزقه المبتكر، فكان يسخر منه بوصفه «صمامًا». ولكن المجموعة ككل كان معظمها متعايشين تعايشًا كافيًا خلال هذه الفترة التي تشهد النمو السريع في حياتهم، حتى وإن كانت النوادر الليلية في عنابر النوم أمرًا مشتركًا. ذلك أنهم كانوا متلهفين على الشعور بأنهم كبار، وعلى تبرير ذلك الشكل المحترم والذي ما برح جديدًا عليهم، الذي يخاطبهم به المدرس بجديتهم المنتظمة وسلوكهم الطيب، وكانوا ينظرون وراءهم إلى المدرسة الكلاسيكية التي تركوها لتوهم بكثير من الاستهزاء كما يستهزئ جامعي جديد بأيام دراسته الثانوية. غير أن روحًا صبيانية طبيعية كانت تنفجر من حين إلى آخر من خلال هذا الوقار المصطنع باحثة عن منفذ. وحينئذ يضج عنبر النوم بدق الأقدام على الأرض، وتصايح سكانه.

* * *

من الأمور المفيدة والقيمة بالنسبة لرئيس الدير أو أي مدرس في مؤسسة ما من هذا النوع أن ينظر إلى هذا القطيع من الصبيان بعد أن قضى الأسابيع الأولى في الحياة الجماعية، كيف أن هذا القطيع يشبه مزيجًا كيماويًّا تتجمع فيه السحب وندف الثلج المعلقة، ثم تنفصل مرة

أخرى لتؤلف تركيبات أخرى ليكون الناتج فيما بعد عددًا من التراكيب الكيماوية. فبعد أن تغلب الأولاد على حيائهم الأول وتعارفوا فيما بينهم التعارف الكافي؛ حدثت حركة عامة، فتقاربت مجموعات، ونشأت صداقات وعداوات. ولم يكن من المعتاد أن يرتبط زميل قادم من مدينة ما بزملائه القادمين من مدرسة واحدة، وإنما يتطلع معظمهم للارتباط بأصدقاء جدد –وهكذا يسعى سكان المدن إلى أبناء الفلاحين. والأولاد القادمون من أعالى فورتمبرج كانوا يسعون إلى الأولاد القادمين من الوادي، تدفعهم الجاذبية اللا شعورية إلى الاختلاف والتكامل. وكان الفتيان يتحسسون طريقهم مترددين إلى هذه الصداقات؛ وتعرفهم على التشابه سرعان ما أعقبه البحث عن الاختلافات، وفي كثير من الأولاد كانت جرثومة الشخصية قد ظهرت الآن لأول مرة. وجرت مشاهد صغيرة غريبة من العاطفة والغيرة، وتطورت أو تحولت إلى عداوة صريحة وانتهت إلى علاقات مؤثرة وجولات ثنائية. أو إلى مشاغبات عنيفة وتبادل للكلمات.

ولم يكن لهانز دور ظاهري في هذه المسائل. فقد عرض عليه كارل هاميل صداقته بلا مواربة، غير أن هانز تراجع عن قبولها خائفًا. وبعد ذلك مباشرة عقد هاميل أواصر الصداقة مع طالب في مجموعة «إسبرطة»، وترك هانز لاختيار من يشاء. كان على استعداد قوي لينظر إلى أرض الصداقة بوصفها صاعدة إلى خط السماء في ألوان متألقة؛ وفي هدوء ولكن بلا مقاومة اجتذبته إليها. غير أن حياءه حال بينه وبينها وجذبه إلى الوراء. ذلك أن موهبته لصنع روابط الحب كانت قد

انكمشت في الأيام المتجهمة التي قضاها في طفولة محرومة من عطف الأم، فأصبح الآن يشعر برعب من كل إظهار خارجي للعاطفة. وفضلًا عن ذلك كانت هناك كبرياؤه الصبيانية، وحافزه الأليم إلى التفوق لكي يشعر الآخرون بأهميته. وكان مختلفًا عن لوشيوس؛ كما كان حريصًا على المعرفة حقًّا من أجل المعرفة ذاتها، ولكنه كان مثل هذا الأخير يتجنب كل ما يمكن أن يصرفه عن عمله. ومن ثم كان يعكف مجتهدًا على مكتبه، وإن لم يكن ذلك بغير غصة من الحسد والشوق وهو يرى الآخرين يستمتعون بصداقاتهم. كان كارل هاميل هو الصديق الخطأ، ولو أن أحدًا آخر أقبل غيره ومارس أي قدر من الجاذبية لتبعه مسرورًا. وهكذا جلس منتظرًا مثل فتاة خجول حتى يأتي من يسعى إليه، ويكون شخصًا أقوى وأشجع منه يصحبه معه ويرغمه على قبول السعادة. ولما كان أمامه قدر كبير من العمل، وبخاصة في اللغة العبرية، وفقًا للمقرر، فقد مرت هذه الأيام الأولى سراعًا بالنسبة للأولاد. وكانت البحيرات الصغيرة المتعددة والبرك التي تحيط بمولبرون تعكس سماء شاحبة تتميز بها الأيام الأخيرة من الخريف، وتلقى لونًا أصفر على الأشجار الرمادية، وأشجار البتولا الفضية، وأشجار البلوط، ويطول الغسق، وتكتسح الريح السابقة على الشتاء، في أنات جذلة خلال الأشجار، وقد تساقط بالفعل رذاذ خفيف من البرد.

وكان «هرمان هايلنر» الرومانسي الذي حاول عبثًا أن يجد رفيقًا متجانسًا معه، يتجول يوميًّا على انفراد خلال الغابات في وقت فراغه، وكانت تجتذبه بوجه خاص بحيرة الغابة، وهي مستطيل بني مكتئب من

المياه تحيطه أعواد البوص وتظلله أوراق الشجر الذابلة، هذا الجمال الحزين في هذا الركن من الغابات كان يشكل نداءً لا سبيل إلى مقاومته للصبي المرهف الحس. وهنا كان يستطيع أن يرسم حالمًا حلقات في الماء الساكن بغصن يمسك به، وأن يتلو «أغاني البوص» للشاعر «ليناو» وهو يستلقي بين انعكاس نبات السمار على اللحن الخريفي الذي يعزفه العام المحتضر، بينما تتنهد ذرى الأشجار التي تجردت من أوراقها في هارمونية مكتئبة. وهنا يخرج من جيبه مفكرة صغيرة ليخط فيها أبياتًا قلائل من الشعر.

وبينما هو مستغرق على هذا النحو في ظهر يوم رمادي من أواخر أكتوبر، التقى بهانز جيبنرات الذي كان يتجول هو الآخر في المكان نفسه. فرأى الغلام الشاعر جالسًا على لوح صغير من ألواح السد، وقد وضع المفكرة على ركبته، والقلم المسنون بين أسنانه متفكرًا. وإلى جانبه كان هناك كتاب مفتوح. فاقترب منه متئدًا:

- «مرحى يا هايلنر. ماذا تفعل؟».

- «أقرأ هوميروس، وأنت، يا أيها الشاب جيبنرات».

- «أنا لا أصدقك.. وأظن أنني أعرف ما تفعل».

- «صحيح؟».

- «طبعًا، أنت تقرض الشعر».

- «أتظن ذلك؟».

- «بالطبع».

- «اجلس هنا».

وجلس جيبنرات إلى جوار هايلنر على اللوح، وترك رجليه تعبثان فوق المياه، مراقبًا ورقة تسقط وراء أخرى في الهواء الهادئ البارد لتستقر في سكون فوق صفحة النهر البني.

قال هانز: «المكان ها هنا حزين».

- «أجل».

واستلقى كل منهما على ظهره بطوله بحيث لم تكن تظهر لهما سوى قمم قليلة من الأشجار، بينما انكشفت لهما السماء الشاحبة تتخللها جزر وادعة من السحاب.

قال هانز وهو يتأمل هذا المنظر في إعجاب: «يا لها من سحب رائعة».

قال هايلنر متنهدًا: «أجل، أيها الشاب جيبنرات، آه لو كنا مجرد سحابات مثلها».

- «ثم ماذا كان يحدث؟».

- «كنا نبحر قُدمًا إلى الأمام، فوق الغابات والقرى، والضياع والمقاطعات، كأننا سفن رائعة. هل رأيت سفينة ذات مرة؟».

- «كلا، يا هايلنر، وأنت؟».

- «أجل، شاهدت واحدة. ولكن، ماذا تعرف عن مثل هذه الأشياء! طالما كنت تحفظ دروسك عن ظهر قلب، وتصل إلى النتيجة التي تريدها!».

- «أنت تنظر إليّ على أنني أحمق، أليس كذلك؟».

- «قلت ذلك، أتراني لم أفعل!».

- «كنت غبيًّا كما ظننت حتى الآن. ولكن واصل حديثك لي عن السفن».

تدحرج هايلنر، حتى أوشك أن يسقط في المياه بهذه العملية. وها هو ينبطح الآن على بطنه، وقد أحاط ذقنه بيديه كما يحاط الفنجان.

استأنف حديثه قائلًا: «لقد شاهدت زوارق على نهر الراين أثناء الإِجازات. وفي يوم أحد، كانت هناك موسيقى على السفينة، وفي الليل كانت هناك مصابيح ملونة. وانعكست الأضواء على الماء وذهبنا بمحاذاة النهر إلى حيث تنبعث الموسيقى. فشربنا خمر الراين. وكانت الفتيات يرتدين ثيابًا بيضاء».

أنصت هانز دون أن يحر جوابًا، غير أنه أغمض عينيه فكان يستطيع أن يرى القوارب وهي تسافر خلال ليلة صيف تصاحبها الموسيقى والأنوار والفتيات في ثياب بيضاء. واستمر الآخر قائلًا:

- «نعم؛ ما أبعد الاختلاف الآن. من يعرف هنا عن مثل هذه الأشياء؟ إنهم جميعًا أغبياء مضجرون! إنهم يعملون ويكدحون، والمثل الأعلى لمعرفتهم هو الأبجدية العبرية. وأنت لا تختلف عنهم في شيء».

وأخلد هانز إلى الصمت. هذا الهايلنر مخلوق عجيب. إنه شخص متحمس، شاعر. وكان كثيرًا ما يتولاه العجب من أمره قبل ذلك. وكان هايلنر يقوم بعمل ضئيل، ولكنه ثمين، يعترف به الجميع، ولكنه كان

يعرف فضلًا عن ذلك قدرًا كبيرًا من المعرفة، ورغم أن ازدراءه لكل هذه المعرفة، فقد كان يجيب إجابات طيبة.

استأنف حديثه باحتقار متضائل: «هنا نحن نقرأ هوميروس، وكأن الأوديسا كتاب للطهي، بيتان كل ساعة، ثم نمضغ هذا كله بعد ذلك، ثم ندخل فيها الامتحان فنمقت النظر إليها. والدروس جميعًا تنتهي على النحو نفسه: «أنت ترى كيف أدار الشاعر هذه الأبيات. وهنا تظفر بلمحة عن سر الإبداع الشعري! كثير جدًّا من السكر حول نفس الجزيء ويحيط بالقرص حتى نستطيع أن نبتلعه دون أن نغص به. وأنت تستطيع أن تأخذ هوميروس كله مني، مقابل هذا الثمن. ولكن ما صلة هذه المادة اليونانية العتيقة بنا، على كل حال؟ ولو أراد واحد منا وحاول أن يحيا وفقًا للطريقة اليونانية للحياة فسوف يكون موضع السخرية. ولهذا سميت مجموعتنا الدراسية «هيلاس»!! يا لها من إهانة! لماذا لا تسمى سلة المهملات، أو «قفص العبيد»، أو «حجرة التعذيب»؟ كل الدراسة الكلاسيكية خدعة»، وبصق في الهواء.

سأله هانز: «لقد كتبت شعرًا من قبل، أليس كذلك؟».

– «نعم»..

– «عن ماذا؟».

– «عن هذه البقعة؛ وعن البحيرة والخريف».

– «أرينيها».

– «كلا؛ فهي لم تنته بعد».

- «ولكن، عندما تنتهي».

- «أجل، إذا استحببت ذلك».

ونهض الاثنان، وسارا راجعين إلى الدير. وسأله هايلنر:

- «هل لاحظت ذات مرة حقًّا ما في هذا كله من جمال؟» وكانا يمران على مركز «جاليليو» -قاعات، نوافذ مقوسة، مصليات، مطاعم قوطية ورومانسيكية، ثراء في الصنعة يتبدى في هذه الأشياء جميعًا. «ولأي غرض كان كل هذا السحر؟ لأربعين شخصًا من الفقراء الذين يواظبون على حضور الكنيسة. إن الدولة في حاجة إليهم».

وكان هايلنر موضع تفكير هانز طيلة العصر. أي نوع من الأشخاص كان؟ من المؤكد أنه لا يشاطر هانز آماله وضروب قلقه. إن له أفكاره وعباراته الخاصة، وهو يعيش حياة أكثر شدة وحرية، ويعاني من متاعب غريبة خاصة به، ويبدو أنه يزدري كل شيء حوله. وكان يفهم ما في الأعمدة والجدران من جمال، ويمارس ذلك الفن السري غير المألوف، فن التعبير عن عواطفه بالشعر، وإبداع عالم خاص به من خياله. لم يكن يستقر على حال، وكان جامحًا صعب المراس، ويأتي من الشطحات في يوم واحد، ما يأتيه هانز في عام كامل. وكان حزينًا مكتئبًا، ولكنه يبدو أنه يتلذذ بحزنه وكآبته وكأنهما شيء غريب ثمين.

وفي هذا المساء نفسه ضرب للمجموعة الدراسية بأكملها مثلًا بيِّنًا على شخصيته المزدوجة المثيرة. استنفره إلى الدخول في معركة مع واحد من رفاقه التافهين المتنفجين يدعى «أوتو فينجر». وظل هايلنر

هادئًا برهة، مستخفًّا بزميله ومترفعًا عنه، ثم ترك لطبعه العنان، لطم خصمه على أذنه. وفي الحال فقد كل منهما أعصابه واشتبك بالآخر اشتباكًا عنيفًا، وأخذا يتنقلان من هذا المكان إلى ذاك وكأنهما سفينة بغير دفة، فهما يتحركان الآن في أنصاف دوائر، ثم يقتحمان جدران حجرة المجموعة الدراسية، ويرتطمان بالمقاعد ويتدحرجان على الأرض، وقد استولى عليهما الغضب، فأخذا يلهثان.

وكان أصدقاؤهما ينظرون إليهما بعيون ناقدة، ويفسحون لهما ساحة المعركة، وينقذون مناضدهم ومصابيحهم، وينتظرون النتيجة بانفعال مرح، وبعد لحظات قلائل نهض هايلنر متألما على قدميه، ووقف هناك يلهث في مشقة. وكان يبدو متوترًا، وقد احمرت عيناه وتمزقت ياقة قميصه، وكان هناك تمزيق في ركبة سرواله. وأخذ خصمه يعد نفسه لتجديد هجومه، غير أن هايلنر وقف وقد شبك ذراعيه على صدره وقال في احتقار: «أنا على استعداد للتوقف إذا فعلت ذلك؛ فلنتصافح». وذهب أوتو فينجر يغمغم شيئًا. واستند هايلنر إلى منضدته، وأطفأ مصباحه، ودس يديه في جيبي سرواله، وبدا عليه أنه يرى أن من واجبه أن يمعن الفكر في شيء ما، وفجأة انهمرت الدموع من عينيه، وأخذ يطارد بعضها بعضًا على وجنتيه، أسرع فأسرع. كان عرضًا فاضحًا؛ ذلك أن البكاء كان أبشع ما يمكن أن يقترفه طالب. بل إنه لم يحاول أي محاولة لإِخفائه. ولم يترك الحجرة، بل جلس ساكنًا وقد أدار وجهه الشاحب ناحية المصباح، كما أنه لم يمسح دموعه، أو يخرج يديه من جيوبه. والتف حوله الفتيان الآخرون، محملقين فيه،

متسائلين وماكرين. حتى زرع هارتنر نفسه أمامه وقال: «أنت يا هايلنر، ألا تخجل من نفسك؟».

وحملق الصبي الباكي حوله متمهلًا وكأنه شخص يستيقظ بعد نوم عميق. ثم قال بصوت مرتفع متهدج: «أخجل -أمامكم. كلا، أيها الرجل الطيب».

مسح وجهه الذي ارتسمت عليه ابتسامة مريرة، وأطفأ المصباح وغادر الحجرة.

بقي هانز جيبنرات في مكانه طوال الحادثة، قانعًا بأن يسترق نظرات خائفة في اتجاه هايلنر. وبعد ربع ساعة، جازف باتباعه. فرآه يجلس بلا حراك في عنبر النوم البارد المظلم ناظرًا إلى أروقة الدير. وكانت كتفاه ورأسه الضيق الحاد يتخذان مظهرًا جادًّا غريبًا لا يمت إلى الصبيانية بصلة. ولم يتحرك عندما اتجه إليه هانز ووقف عند النافذة، ومضت برهة قبل أن يسأل -دون أن يدير رأسه -بصوت أجش:

- «ماذا وراءك؟».

قال هانز في حياء: «إنه أنا؟».

- «ماذا تريد؟».

- «لا شيء».

- «أوه، إذن تستطيع أن تذهب من حيث جئت».

وهنا أحس هانز أنه قد أهين، فهمَّ بالسير، غير أن هايلنر أمسك به، وقال بلهجة جاهد أن تكون على شيء من المرح: «قف، فأنا لم أكن

أعني ذلك».

نظر كل منهما إلى الآخر. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يدرس فيها كل منهما وجه الآخر، وأحس كل منهما أن وراء ملامح الآخر الناعمة يحيا شخص فردي، وروح قريبة، لكل منهما خصائصها.

وفي تؤدة وتمهل بسط هرمان هايلنر ذراعه وقبض على هانز من كتفه وجره نحوه حتى تدانت وجنتاهما. وفي هلع مباغت، أحس هانز بشفتي صديقه تلامس شفتيه.

خفق قلبه خفقانًا سريعًا، وأخذ يشعر بضيق غير مألوف في صدره. هذا الوجود معًا في عنبر النوم المظلم، وتلك القبلة المباغتة، كانا مغامرة جديدة، بل لعلها خطيرة أيضًا. وخطر له كم يكون الأمر بشعًا إذا شاهدهما أحد في مثل هذه الفعلة، مدركًا بحدسه أن هذه القبلة سوف تبدو نادرة وفضيحة أكثر مما بدا البكاء السابق. وكان عاجزًا عن أن يتفوه بكلمة، غير أن الدماء تصاعدت إلى وجنتيه، وأحس بدافع إلى الجري بعيدًا.

إن شخصًا ناضجًا، يرى هذا المشهد الصغير، يمكن أن ينشأ لديه سرور خفي من هذه العاطفة الحية الوجلة. من هذا الإعلان المضرج بحمرة الخجل للصداقة، ومن هذين الوجهين الصبيانيين الجميلين الزاخرين بالوعود، وبعذوبتهما الطفولية المشحونة بتحدي المراهقة الفاتن.

وبالتدريج كان هؤلاء الشبان جميعًا يكتشفون بعضهم بعضًا في

الحياة المشتركة التي يحيونها. كان لا بد من أن يعرف أحدهما الآخر، وأن يكوّن فكرة عما يكون عليه رفاقه الآخرون، وهكذا عُقدت طائفة من الصداقات. فكان هناك أزواج من الأصدقاء يستذكرون الأفعال العبرية معًا، وأزواج يرسمون الاسكتشات (المخططات) معًا، أو يذهبون في جولات، أو يقرأون «شيللر». وكان هناك دارسون جيدون للغة اللاتينية، ودارسون سيئون في الرياضيات يصادقون دارسين سيئين في اللاتينية ولكنهم جيدون في الرياضيات حتى يتشاطروا في فوائد العمل المشترك. وكانت هناك أيضًا صداقات قائمة على نوع آخر مختلف من التوافق هو الملكية المشتركة. وهكذا فإن الطالب المحسود على ملكيته للحم الخنزير يجد نصفه المكمل له في ابن بستاني قادم من «شتامهايم» يمتلئ صندوقه بالتفاح الفاخر. وفي إحدى المناسبات حين استبد به العطش بعد أكله للحم الخنزير، طلب من الآخر تفاحة وعرض عليه قطعة من لحم الخنزير على سبيل التبادل. وجلسا معًا، وشرعا في محادثة حذرة كان موضوعها العام أن يستبدل بلحم الخنزير بعد انتهائه وأن صاحب التفاحة يكون قادرًا على سحب الإمدادات من والده في العام الجديد. وهكذا نشأ تفاهم متين بينهما دام أطول كثيرًا من عقود صداقة مثالية ومتهورة.

عدد قليل لم يعقد صداقة مع أحد، ومن بينهم لوشيوس الذي كان تكريسه المولع بالاكتساب للفن في أوجه حينذاك.

كما كان هناك أيضًا أزواج من الصداقات أُسيء اختيارها، والمثل الصارخ على ذلك، تلك الصداقة التي قامت بين هرمان هايلنر وهانز

جيبنرات –بين الطائش وصاحب الضمير الحي، بين الشاعر والباحث عن الحقيقة. وكان كل منهما ذكيًّا وموهوبًا بصورة استثنائية، ولكن على حين أن هايلنر كان يفرح بتنكيته الساخر إلى حد ما بأنه عبقري، كان هانز حريصًا على أن يوصف بأنه فتى نموذجي. ومع ذلك فقد تُرك كل منهما دون تحرش نسبيًّا، حيث كان كل منهما مشغولًا بصداقته.

ومهما يكن من أمر، ورغم كل هذه التعقيدات الشخصية والأحداث، كانت الأمور في الكلية تسير على ما يرام لأنها كانت هي التي تضع السرعة والإِيقاع، حيث كانت موسيقى لوشيوس، وأشعار هايلنر، وعهود الصداقة جميعًا. والصفقات المادية، وتبادل اللكمات أحيانًا –كان هذا كله يبدو بالمقارنة مجرد تلهيات لا وزن لها. وكانت هناك دائمًا –بوجه خاص– مسألة اللغة العبرية. فهذه اللغة الغريبة الخاصة بيهوه، اللغة الفظة –وإن كانت حية على نحو مستسر، كانت تحوم بصعوبتها وبما تثيره من حيرة أمام أعين أولئك الطلبة، صعبة في تفريعاتها الغريبة، مبهجة بأزاهيرها الملونة العطرة على نحو يسترعي الأنظار. وهذه الأرواح التي عاشت ألف سنة زودت فروعها بأساطيرها بعضها يثير الخوف في النفوس، وبعضها الآخر يوحي بالعودة، بعضها ساذج، وبعضها الآخر يتسم بالجاذبية. والألفاظ التي كان لها رنين بعيد حالم في الكتاب المقدس اللوثري أصبحت الآن في الأصل القوي شيئًا من لحم ودم، واتخذت واقعًا عتيقًا مضجرًا، ولكنه صلب شؤوم. كان هذا على كل حال هو ما بدا لهايلنر الذي كان يلعن يوميًّا وفي كل ساعة أسفار موسى الخمسة كلها، ومع ذلك كان يجد فيها حياة وروحًا أكثر

مما يجده فيها كثير من الدارسين الذين سيطروا على مفرداتهم وتخطوا مرحلة الوقوع في الخطأ أثناء القراءة.

وإلى جانب هذا، ملأه العهد الجديد حيث كانت الأشياء تتحرك بمزيد من الخفة والحنان، والذي كانت لغته -وإن لم تكن شديدة القدم، إلا أنها كانت عميقة وثرية -ملأه العهد الجديد بروح شابة مفعمة بالحنين بل حالمة في كثير من الأحيان، ومشحونة باللاواقع.

والأوديسا التي تنطلق منها أشعار قوية رنانة منتظمة أشبه بالذراع البضة البيضاء المستديرة لحورية الماء، والمعرفة والشعور بحياة تلاشت بملامحها الواضحة وسعادتها، وأحيانًا حازمة شاملة في خطوطها العريضة المرسومة بجسارة، والتي تبدو للآخرين متوهجة كحلم خفي توحي به شيئًا من الإيحاء بضع كلمات قلائل وأبيات.

وكان هناك أيضًا المؤرخان «إكزينوفون» و«ليفي» كأنهما مصابيح صغرى، متواضعة وتكاد تكون قليلة الوزن بالمقارنة.

وكان هانز مندهشًا حين لاحظ كيف يبدو هذا كله مختلفًا لأصدقائه. فبالنسبة لهايلنر لم يكن ثمة شيء مجرد، لا شيء يوجد ليس في إمكانه هو شخصيًا أن يبعثه أو يرسمه مصطبغًا بألوان خياله، والموضوعات التي لا يصلح فيها منهجه ينبذها في اشمئزاز. أما الرياضيات بالنسبة إليه فكانت عبارة عن أبي الهول مشحون بألفاظ خادعة، ونظرته الباردة الشريرة تفتن ضحاياها، وهكذا أرقد هذا المسخ في مضجع واسع.

كانت العلاقة بين هذين الصديقين علاقة غريبة. فالصداقة كانت

عند هايلنر متعة وترفًا، وعزاءً، أو حالة مزاجية، بينما كانت عند هانز كنزًا يحرسه مزهوًّا في لحظة من اللحظات، وعبئًا جاثمًا في لحظة أخرى. وكان هانز قد خصص المساء دائمًا حتى الآن للمذاكرة. ولكنه الآن –على كل حال– كان هرمان يأتي لرؤيته بعد أن يكون قد أخذ كفايته من الكدح اليومي. فينتزع منه الكتاب الذي يدرس فيه، ويحتكره لنفسه احتكارًا تامًّا. وأخيرًا، بدأ هانز يرتجف في كل مساء قبل أن يحين موعد وصول هرمان، إذ كان صديق قد أصبح عزيزًا عليه، ولهذا فإنه كان يضاعف همته وسرعته في الفترة التمهيدية الإِجبارية حتى لا يفقد صلته بعمله. وكان من دواعي كآبته أن يبدأ هايلنر في الهجوم على هذه الحماسة للعمل مدعمًا هجومه بالحجج، فيقول: «إنه مجرد عمل أدبي، فأنت تقوم بعملك كله في حرية وبإرادتك، ولكنه في أساسه يتم بدافع الخوف من مدرسيك أو من رجلك العجوز. ماذا تحصل منه إن كان ترتيبك الأول أو الثاني؟ أنا ترتيبي العشرون، غير أنني لست أكثر غباء من أولئك الكادحين».

واستولى الرعب على هانز أيضًا حين لاحظ لأول وهلة كيف يعامل هايلنر مراجعه. ففي إحدى المناسبات ترك كتبه في حجرة المحاضرة، ولما أراد أن يُعِدَّ درس الجغرافيا التالي استعار الأطلس الذي يملكه هايلنر. فاشمئز حين رأى أنه قد غطّى صفحات بأكملها بخربشة من قلمه الرصاص، واكتشف أنه قام بتشويه شبه الجزيرة الإِسبانية فجعل منها بروفيلًا فخمًا وصلت فيه الأنف من أوربورتو إلى لشبونة، وتحولت منطقة رأس فينيسترا إلى باروكة من خصلات الشعر المجعد، على حين

شكّل رأس سانت فنسانت إلى نقطة ملتوية جميلة في لحية إنسان. وعلى هذه الوتيرة جرى الأمر من صفحة إلى صفحة، فرسمت صور هزيلة في ظهور الخرائط، وكتبت قوافي مهينة ومضحكة تتخللها بقع من الحبر. وكان هانز قد تعود أن يعامل كتبه بوصفها مقدسات، وبدا له هذا اللون من الاستهانة تجديفًا لقدس الأقداس، بل جريمة، وإن تكن فعلًا بطوليًّا.

وربما كوَّن المرء انطباعًا بأن جيبنرات النموذجي ما هو في حقيقة الأمر سوى لعبة لصديقه مجرد قطة منزلية، بل إن هانز أحس بهذا أحيانًا. غير أن هايلنر تشبث به لأنه في حاجة إليه. كان لا بد له من أن يكون له صديق للاستماع إليه في هدوء وتلهف حين كان يقوم بهجمات نارية على الكلية وعلى الحياة بوجه عام. كما كان يحتاج أيضًا إلى من يستطيع أن يجلب العزاء والراحة، إلى شخص يستطيع أن يضع رأسه في حجره في لحظات الانقباض. ومثل تلك الطبائع جميعًا، كان الشاعر الشاب يعاني من نوبات من كآبة غامضة لا جدوى منها ترجع أسبابها في شطر منها إلى مفارقة الأشياء الطفولية، وفي شطر آخر إلى فوران الجانب الحيواني فيه الذي لا يستهدف أي غرض، وإلى أشواق ورغبات غامضة؛ وفي شطر ثالث إلى النمو المستسر إلى الرجولة. كما كان يشعر أيضًا بحنين غير صحي للتعاطف والحب. ففي حياته المبكرة كان حبيب أمه، وهو الآن –وإن لم يصبح بعد ناضجًا لحب فتاة –فإن صديقه العزيز عليه كان يقوم بدور المعزِّي.

كان يأتي في كثير من الأحيان إلى هانز في المساء، يدفعه اكتئاب

شديد، فينتزع الكتاب من بين يديه، ويرغمه على مصاحبته إلى عنبر النوم. وهناك في تلك الحجرة الباردة أو في قاعة الخطابة كانا يسيران في الغسق جيئة وذهابًا، أو يجلسان مرتعدين على فتحة النافذة. وفي تلك المناسبات كان هايلنر يتحدث عن كل ضروب الأحزان بأسلوب الشباب الرومانسي الذي صوره هايني وأغرم به، وكأنما تلفعه سحابات من الحزن الطفولي لم يكن هانز يستطيع سبر أغواره تمامًا، وإن أثَّر عليه بل وانتقلت إليه عدواه أحيانًا. كان هايلنر المثقف الحساس عرضة بوجه خاص لهذه الأحوال المزاجية في الجو الرمادي، وكانت أنّاته وشكاواه تبلغ أوجها في الأمسيات التي تنشر فيها السحب الممطرة في أواخر الخريف الظلام على صفحة السماء، على حين يواصل القمر مساره خلفها، وهو يختلس النظر خلال الحجاب ومن فروج السحاب. حينئذ ينغمس في ذلك المزاج الأوسياني الذي يجد التعبير عنه في التنهدات والأحاديث والقصائد التي يصبها على أذني هانز البريء.

وعندما كان هانز يتألم وينقبض من هذه المشاهد المحزمة، فإنه ينكب في الساعات المتبقية على العمل، الذي ازداد صعوبة بالنسبة إليه.. ولم يجد غرابة بعد ذلك حين يصاب بأنواع الصداع المتكررة، ولكنه كان حزينًا أشد الحزن حين وجد نفسه ينفق ساعات مرهقة لا جدوى منها بهذه الطريقة، ثم كان عليه بعد ذلك أن يدفع نفسه للقيام بالعمل الضروري. وبالطبع كان يحمل شعورًا غامضًا بأن صداقته مع رفيقه الشارد كانت ترهقه وتشيع الفوضى في ذلك الشطر من وجوده الذي لم يكن يكدره شيء من قبل، ولكن كلما ازداد حزن صديقه

ودموعه، ازداد بالتالي شعوره بالاضطراب، كما يزداد في الوقت نفسه تأثرًا وزهوًا لأنه أصبح شيئًا لا غنى عنه لصديقه.

وفي الوقت نفسه، أدرك أن هذه الكآبة المرضية لم تكن إلا تعبيرًا عن غريزة مرضية مبالغ فيها، وبأنها لا تنتمي حقًّا إلى طبيعة هايلنر التي كان يكن لها إعجابًا وفيًّا أصيلًا. وعندما كان صديقه يقرأ عليه قصائده، ويناقش مثله العليا الشعرية، أو يتحدث عن مقتطفات من شيللر أو شكسبير بحماسة. وإشارات فخمة، كان هانز يشعر، وكأن صديقه يطفو في الهواء بفضل موهبة يفتقر هو إليها، ويتحرك بحرية شبيهة بحرية الآلهة، وبعاطفة نارية، ويحلق فوقه وفوق أمثاله بصنادل مجنحة كرسول هوميري. وحتى هذه اللحظة الحاضرة كان عالم الشعراء مجهولًا بالنسبة إليه تقريبًا، بل إنه بدا قليل الأهمية، غير أنه أصبح الآن مدركًا للقوة الخادعة للألفاظ ذات الجرس الحسن، والصور الخلابة، والإيقاعات المطربة، وتنامى احترامه لهذا العالم الجديد الذي انفتح له -مع إعجابه بصديقه- حتى أضحى شعورًا واحدًا مشتركًا.

* * *

وفي هذه الأثناء، حلت أيام نوفمبر المعتمة المضطربة حيث لم يكن في الإمكان أن يعمل بلا مصابيح سوى سويعات قلائل كل يوم؛ والليالي السوداء حين العاصفة ترسل جبالًا ملفوفة من السحب فوق التلال المحتجبة، وتتضارب في أنين وعويل حول جدران الدير العتيقة المبنية بناءً متينًا. وفي هذا الوقت، كانت الأشجار قد تخلت تمامًا عن أوراقها، وكانت أشجار البلوط الضخمة، ملكات المشهد الملفع

بالغابات –هن وحدهن اللواتي يشخللن أوارقهن الجافة بنغمة أعلى واثقة من نفسها عن بقية الشجر. وكان هايلنر في حالة إحباط تام، واعتاد مؤخرًا أن يأخذ كمانه للتمرين منفردًا في حجرة نائية، أو يشتبك في مشاغبات مع رفاقه بدلًا من الجلوس مع هانز.

وذات مساء حين ذهب إلى حجرة الموسيقى ألفى لوشيوس المتحمس منهمكًا في التمرين أمام حامل للنوتة الموسيقية. فعاد على عقبيه غاضبًا ولم يعد إلا بعد نصف ساعة، وكان لوشيوس ما زال منهمكًا في التدريب.

لعنه هايلنر قائلًا: «كان ينبغي أن تتوقف الآن، فهناك أناس غيرك يريدون أن يتدربوا أيضًا. والنشاز الذي يصدر عنك كارثة».

ورفض لوشيوس الاستسلام؛ فأخذ هايلنر يسب سبابًا قبيحًا، وعندما استأنف الآخر نشازه بهدوء ركل هايلنر الحامل الموسيقي بحيث تناثرت أوراق الموسيقى على الأرض، وضرب الحامل العازف في وجهه. وانحنى لوشيوس ليجمع أوراقه الموسيقية.

قال في حزم: «سأبلغ الرئيس بما صنعت».

فصاح هايلنر في ثورة غضبه: «عظيم، ويمكنك أن تخبره أيضًا أنني ركلتك مجانًا». وهمَّ بأن يترجم أقواله إلى فعل.

وثب لوشيوس جانبًا، واتجه صوب الباب. ولحق به مطارده وأعقب ذلك هجوم حار صاخب عبر الدهاليز والحجرات، وهبط إلى السلم وعبر البسطات حتى أبعد جناح للمؤسسة حيث يقوم منزل

الرئيس في روعة متفردة. ولم يأخذ هايلنر بتلابيب الهارب إلا أمام باب مكتب رئيس الدير. وعندما طرق لوشيوس الباب بالفعل ووقف في المدخل المفتوح، هنا تلقى ركلة موعودة في اللحظة الأخيرة، فانفجر كالقنبلة في محراب الرئيس، وقد أصابه الهلع فلم يغلق الباب وراءه.

وكانت فضيحة بجلاجل. وفي صباح اليوم التالي ألقى رئيس الدير محاضرة رسمية عن انحلال الشباب. وأصغى لوشيوس موافقًا ومتفكرًا، على حين استمع هايلنر إلى الحكم عليه: فترة طويلة من الحجز، وكان كما يلي: «مثل هذه العقوبة القاسية لم يصدر مثلها هنا منذ أعوام». بهذا هدر الرئيس: «وأنا واثق أنكم ستذكرونها طيلة عشرة أعوام. وأنا أضرب بهايلنر المثل الفظيع لمن بقي منكم».

ونظرت إليه الكلية كلها نظرة رعب، وهو يقف هنالك شاحبًا متحديًا، متماسكًا، لا تطرف له عين، أمام نظرة الرئيس. وكان عدد كبير من الطلاب معجبين به سرًّا؛ ومع ذلك، فقد تُرِك وحده وتجنبه زملاؤه كأنه مصاب بالبرص في نهاية الدرس، وتقاطروا في الدهاليز محدثين ضجيجًا. كان الأمر يحتاج إلى شجاعة للوقوف الآن إلى جانبه.

وحتى هانز نفسه لم يجرؤ على ذلك. لقد شعر أنه يمكن أن يفعل هذا، غير أن جبنه أحبطه، فانكمش بائسًا خزيان في فتحة نافذة، عاجزًا عن رفع عينيه. أحس بدافع قوي للبحث عن صديقه، وكان من الممكن أن يعطي الكثير لو استطاع أن يفعل ذلك دون أن يفطن إليه أحد. غير أن فتى تلقى مثل هذه العقوبة، عقوبة الحجز الصارم أصبح موصومًا. وكل شخص آخر يعلم أنه منذ الآن فصاعدًا سيكون المحكوم عليه تحت

رقابة مشددة، وأنه من الخطر، ومن السمعة السيئة أن يتعامل معه أي شخص. ذلك أن النظام القاسي الذي لا يرحم هو الثمن الذي يدفعه الطلبة المستفيدون من المزايا التي تقدمها لهم الدولة. وهذه الفكرة قد أشير إليها في الخطبة الافتتاحية الشهيرة.. وكان هانز مدركًا لهذا، ومن ثم فقد أذعن في هذا الصراع بين الولاء لصديقه وبين رغبته في اكتساب السمعة الحسنة. وكان طموحه الآن هو أن يمضي في طريقه قدمًا، وأن يجتاز الامتحان بنتائج باهرة، وأن يلعب نوعًا من الدور في المؤسسة، على ألا يكون هذا الدور رومانسيًّا أو خطرًا. ومن ثم فقد أخذ يفكر في ركنه. ما زال في استطاعته أن يتقدم، وأن يكون شجاعًا، غير أن المسألة صارت أكثر صعوبة في كل لحظة، وقبل أن يحققها، كانت خيانته قد أضحت واقعًا.

ولم يفت على هايلنر أن يلاحظ هذا كله، فقد كان هذا الفتى العاطفي يعلم أنه أصبح موضعًا للتجنب، وقد فهم ذلك، غير أنه قد اعتمد على هانز. والآن بدت له مشاعره السابقة عن الإساءة التي لحقت به والتي كانت بلا أساس، بدت له الآن عديمة الجدوى مسرفة في المغالاة. إذ قورنت بتعاسته الحالية ونفوره. وقف إلى جانب جيبنرات هنيهة وهو يبدو شاحبًا فخورًا، وقال بصوت خفيض: «أنت جبان عادي يا جيبنرات، عليك اللعنة»! وخطا مبتعدًا وهو يصفر بين أسنانه وقد دس يديه في جيبي سرواله.

وكان من الخير وجود أفكار أخرى وانشغالات تسترعي اهتمام الأولاد. فبعد أيام قلائل من هذه الحدث، سقط الثلج سقوطًا مباغتًا،

يتبعه شتاء واضح قارس البرودة، جليديًّا، فاستطاعوا بذلك أن يصنعوا كرات من الثلج، وأن ينزلقوا على الجليد، وأدركوا جميعًا أن أعياد الميلاد والإِجازات وشيكة، فلم يكفوا عن الحديث حولها. وقل اهتمامهم بهايلنر. غير أنه كان يسير بينهم هادئًا متحديًا، وقد رفع رأسه إلى أعلى، وارتسم على وجهه تعبير بالزهو، ولم يكن يتحدث إلى أحد وينظم الشعر في كراسة يحملها مغلفة بغلاف من القماش الزيتي الأسود كتب عليه هذا العنوان: «أغاني راهب». وكان الصقيع البارد، والثلج المتجمد (البرد) يتخذ أشكالًا رقيقة خيالية معلقة على أشجار البلوط والشربين والصفصاف. والثلج الشفاف يتقوقع فوق البحيرات المتجمدة. وفناء الدير يبدو مثل حديقة صامتة من الرخام. وشاعت روح من الإثارة المرحة الاحتفالية في جميع أجنحة الدراسات، وأنتج توقع أعياد الميلاد ألقًا من التسامح والبهجة حتى بين الأساتذة ذوي المظهر الجهم الوقور. وسواء كان المرء مدرسًا أو تلميذًا، فإنه لم يكن من الممكن أن يكون لا مباليًا بالكريسماس، وحتى هايلنر بدا عليه أنه أقل تألمًا وحزنًا، وطفق لوشيوس يفكر في أي كتب وأحذية يمكن أن يأخذها معه أثناء الإِجازات. وبدأت بنود جديدة تظهر في الرسائل الواردة من الأوطان: أسئلة عن الرغبات المفضلة، أخبار عن أيام الخبيز، تلميحات عن المفاجآت المقبلة، والاجتماعات المرحة.

ومرت على الكلية، وعلى مجموعة «هيلاس» تلهية طفيفة شغلتهم قبل الرحيل إلى أوطانهم. وقد تقرر أن تُدعى هيئة التدريس إلى احتفال بأمسية عيد الميلاد، على أن يكون مكان هذا الاحتفال في «هيلاس»،

لأنها أكبر أجنحة الدراسات. ويتألف البرنامج من خطبة ترحيب، وحفلتين موسيقيتين تتألف إحداهما من عزف منفرد على الفلوت، والأخرى من آلتين للكمان. وكانت الحاجة تدعو إلى فقرة فكاهية لكي يكتمل البرنامج. وتشاور الأولاد معًا، فقدمت اقتراحات ورفضت جميعها دون الوصول إلى أي اتفاق. وحينئذ اقترح كارل هاميل أن أفضل فقرة لإِشاعة المرح يمكن أن تكون عزفًا منفردًا على الكمان من إميل لوشيوس. وتمت الموافقة على هذه الفكرة. وبالإِلحاح في الطلب وبذل الوعود والتلويح بالتهديد، أجبر الموسيقي التعس على القبول. وهكذا تضمن البرنامج الذي أرسل إلى هيئة التدريس مشفوعًا بدعوة مهذبة أبرزت بوصفها نمرة خاصة مقطوعة «الليل الهادئ» لحن للكمان من أداء إميل لوشيوس العازف البارع لموسيقى الحجرة. واستحق هذا اللقب نتيجة لمواظبته على التمرين في حجرة الموسيقى النائية.

ودُعِي إلى الحفل الموسيقي رئيس الدير والأساتذة، والمشرفون ومدرس الموسيقى، ومدرس شؤون الطلبة، وقد ظهروا جميعًا في الحفل. وتفصد جبين مدرس الموسيقى عرقًا عندما دخل لوشيوس، مرتديًا سترة سوداء بذيل استعارها من هارتنر، وقد رسم على وجهه ابتسامة متواضعة. حتى الانحناءة التي قام بها كانت دعوة إلى الطيش. فقد تحول لحن «الليل الهادئ» تحت أصابعه إلى ترنيمة جنائزية؛ وكان المدخل زائفًا، وأخذ يعذب اللحن تعذيبًا، ويقتله قتلًا، وقد أخذ يخبط الإِيقاع بقدمه ثم هاجمه بقوة إنسان يحاول تحطيم شجرة في يوم عاصف.

وأومأ الرئيس بإشارة إلى أستاذ الموسيقى الذي ازداد شحوبًا من العار الذي جلله.

ولما بدأ لوشيوس للمرة الثالثة، وتوقف نتيجة للارتباك الذي استبد به، خفض كمانه، واستدار صوب المتفجرين معتذرًا: «لا فائدة.. غير أنني لم أتعلم الكمان إلا منذ الخريف الأخير».

فصاح به الرئيس: «هذا شيء بديع يا لوشيوس، ونحن مدينون لك للجهود التي بذلتها. تشبث بها.. بالرجاء تصل إلى نجوم السماء» (قالها باللاتينية).

ومنذ الرابع والعشرين من ديسمبر، ومن الساعة الثالثة صباحًا فصاعدًا حدثت ضجة كبيرة ودب النشاط في عنابر النوم كافة. وتراكم الصقيع المتجمد على ألواح الشبابيك الزجاجية بطبقات سميكة، حتى ماء الاغتسال تجمد في الصنابير، وهبت ريح ثلجية حادة على الدير، حاول الأولاد تناسيها. وكانت حلقات متكاثفة من دخان القهوة تدور في قاعة الطعام، ولم تلبث جماعات من الطلبة المتلفعين بمعاطفهم وكوفياتهم أن شقوا طريقهم إلى محطة السكة الحديدية البعيدة عبر الحقول البيضاء التي ينبعث منها وهج خافت، وخلال الغابات الساكنة. كانوا جميعًا يثرثرون ويلقون بالنكات، ويطلقون ضحكات عالية، غير أن كلًّا منهم كان مأخوذًا من الداخل برغباته الخاصة ومباهجه وآماله. وكانوا يعلمون أن آباءهم وأشقاءهم وأخواتهم ينتظرونهم في حجرات دافئة احتفالية بعيدًا داخل البلاد، في المدن، والقرى، والمزارع. وكان هذا أول عيد ميلاد للغالبية العظمى منهم يسافرون فيه إلى بيوتهم

من مكان ناءٍ، ومعظمهم يعلمون أن وصولهم منتظر بكثير من الحب والفخار.

وانتظروا القطار في المحطة الصغيرة التي تقع وسط غابة مغطاة بالجليد، وما كانوا من قبل أبدًا على هذا القدر من التسامح والمرح، وعلى هذا القسط من التوحد في التفكير. كان هايلنر هو الوحيد الذي أخلد إلى الصمت حين دخل القطار المحطة، وانتظر حتى صعد رفاقه جميعًا، ثم صعد إلى ديوان خاص بمفرده. ولاحظه هانز مرة أخرى حين استبدلوا بالقطار قطارًا آخر في المحطة التالية، غير أن الشعور بالعار والأسف تلاشى في الفرح والإِثارة الذين اتسمت بهما رحلة العودة إلى البيت.

وجد هانز أباه في البيت يبتسم ابتسامة اعتداد بالنفس، وجد مائدة مغطاة في سخاء بالهدايا التي تنتظره. لم يكن هناك عيد ميلاد حقيقي في منزل جيبنرات. لا شيء من ترنيمات أعياد الميلاد أو أي مظهر من المظاهر الاحتفالية الأخرى.. لا أم هناك، ولا شجرة عيد الميلاد. إذ لم يكن السيد جيبنرات يفهم فن الاحتفال بالإِجازات؛ ولكنه كان فخورًا بابنه، فلم يبخل بالهدايا التي أعدها له في هذه المناسبة. ولما لم يكن هانز متعودًا على شيء آخر مختلف، فإنه لم يفتقد شيئًا في واقع الأمر.

وظنوا أن شيئًا من الشحوب يعلو محياه، وأنه كان نحيفًا أشد النحافة، فافترضوا أن الغذاء الذي يتناوله في الكلية ليس كافيًا، ولكنه أنكر هذا بشدة، وأكد لهم أنه على خير ما يرام، فيما عدا ذلك الصداع الذي يعاوده من حين إلى آخر. غير أن القس منحه شيئًا من العزاء على

هذه النقطة، فهو أيضًا قد عانى من هذا الصداع في أيام شبابه. ومن ثم كان كل شيء على ما يرام.

وكان النهر قد تجمد تجمدًا صعبًا، ولكنه كان ناعمًا أملس، ومغطى بأناس يتزحلقون خلال فترة الإِجازة، وهكذا كان هانز يمضي يومه كله متزحلقًا، مرتديًا حلة جديدة، وعلى رأسه قبعة الكلية اللاهوتية الخضراء؛ فقد ترك رفاق المدرسة وراءه، وأحس أنه انتقل إلى عالم أسمى يُحْسد عليه.

* * *

الفصل الرابع

يحدث عادة أن تفقد الكلية واحدًا أو أكثر من أعضائها خلال فترة السنين الأربع. فأحيانًا يموت فتى ويدفن على غناء الأناشيد، أو ربما أخذ رفاته إلى بيته بصحبة موكب من الأصدقاء. وأحيانًا أخرى يمكن أن يلوذ غلام بالهرب أو يُطرد بسبب فعلة شنيعة ارتكبها. وفي أحيان نادرة قد يجد صبي حلًّا سريعًا لمشكلاته في المراهقة فيطلق الرصاص على نفسه، أو يلقي بنفسه في النهر.

وشاء مصير الكلية أن تفقد بعض أبنائها من فصل هانز جيبنرات وبمصادفة غريبة كانوا جميعًا ينتمون إلى «هيلاس».

ومن بين أعضاء هذه المجموعة، كان هناك شاب متواضع أشقر الشعر يدعي «هندينجر»، وأطلقوا عليه اسم «هيندو»، وهو ابن ترزي يقيم في الشطر البروتستانتي من مقاطعة سوابيا. وكان «هيندو» مواطنًا مسالمًا، وأصبح اختفاؤه من بينهم هو السبب الوحيد الذي جعله موضع الحديث. ولما كان يشاطر عازف «موسيقى الحجرة» البارع البخيل -لوشيوس- منضدة الدراسة، فقد كان يتعامل معه أكثر مما يتعامل معه الآخرون.

ولكن فيما عدا «لوشيوس»، لم يكن له أي أصدقاء. ولم يفطن أعضاء مجموعة هيلاس أنهم كانوا يفضلونه بوصفه جارًا طيبًا متسامحًا إلا بعد أن فقدوه، كما أدركوا أيضًا أنه ذو تأثير مهدئ في الحياة الصاخبة التي تشيع معظم الأحيان في مكان إقامتهم.

وذات يوم من أيام يناير، انضم إلى مجموعة من المتزحلقين الذين ذهبوا إلى «بحيرة الحصان». ولم يكن يملك أي زلاقات هو نفسه، ولكنه كان يتوق إلى الذهاب والتفرج عليهم. ومهما يكن من أمر، فسرعان ما أحس بالبرد، فأخذ يتجول على الشاطئ كيما يكتسب شيئًا من الدفء. وبينما كان يفعل ذلك أخذ يركض تدريجيًّا، وبعد قليل من الوقت ضل طريقه عبر الحقول، ووصل إلى بحيرة أخرى صغيرة، ولأن الينابيع التي كانت ترفدها أدفأ وأقوى، كانت طبقة الجليد التي تغطي مياهها لم تتجمد إلا قليلًا. وسار هندينجر فوق أعواد بوصها المتجمد. ومع أنه كان صغيرًا خفيف الوزن إلا أنه اختفى بين الثلوج القريبة من الشاطئ، وظل يناضل ويصيح طالبًا النجدة زمنًا قصيرًا، ولم يلبث أن ابتلعته البرودة السوداء دون أن يراه أحد.

وحتى الساعة الثانية. عندما بدأت الحصة الأولى بعد الظهر، هنالك لاحظوا غيابه.

صاح المدرس الشاب: «أين هندينجر؟».

فلم يحر أحد جوابًا.

- «ألقوا نظرة حول هيلاس»!

ولكن، لم يظهر له هناك أي أثر.

«لا بد أنه تأخر، دعونا نبدأ بدونه. انظروا، نحن في صفحة ٧٤، السطر السابع. أود ألا يحدث ذلك مرة أخرى. ينبغي أن تكونوا مواظبين».

وعندما دقت الساعة الثالثة ولم يزل هندينجر مفقودًا، استولت العصبية على المدرس، وبعث من يبلغ الرئيس. وحضر الرئيس بنفسه إلى الفصل وشرع في إجراء تحريات مكثفة، وبعث بمجموعة للبحث عنه مكونة من عشرة أولاد تحت إشراف مدرس شؤون الطلبة ومساعد مدرس. وكلفت بقية الفصل بتمرين تحريري.

وفي الساعة الرابعة دخل المدرس الفصل مرة أخرى دون أن يطرق الباب، وهمس بشيء في أذن الرئيس.

أمر الرئيس قائلًا: «سلوا» وجلس الطلبة في مقاعدهم بلا حراك، ونظروا إليه وهم في حالة من التوقع.

استأنفت قائلًا بنبرة أهدأ: «يبدو أن صديقكم هندينجر قد غرق في البحيرة، وعليكم أن تأتوا وأن تساعدوا في العثور عليه. وسوف يقود الأستاذ ماير المجموعة؛ وعليكم أن تطيعوا تعليماته، وألا تفعلوا شيئًا بمبادرتكم الخاصة».

أصابهم الخوف وأخذوا يتهامسون فيما بينهم، وشرعوا في المسير يتقدمهم الأستاذ. وانضمت إليهم حفنة من رجال القرية يحملون الحبال والمناجل والأعمدة، وهرول الجمع مسرعًا نحو البحيرة. كان الجو

قارس البرودة، وقد غرقت الشمس بالفعل حتى حافة الغابة.

وبعد برهة من الوقت، اكتشفت جثة الفتى المتجمدة في نهاية المطاف، ووضعت على سياج مؤقت فوق شجيرات السمار المغطاة بالثلوج، وانتشر الغسق عميقًا فوق كل شيء. وقف الأولاد حوله مذعورين، كأنهم طيور حيية، يحملقون في الجثة، ويدلكون أصابعهم الزرقاء المتصلبة. ولم تسر في أوصالهم رعشة مباغتة إلا بعد أن حُمل رفيقهم الغارق أمامهم، وأتبعوه صامتين عبر حقول الجليد، سرت الرعشة في قلوبهم الباردة، وتشمموا الموت كما تتشمم غزالة عدوها المطارد.

تصادف أن كان هانز جيبنرات بجوار صديقه السابق هايلنر في الفريق الحزين المتجمد. وأدرك كل منهما هذا الجوار وقرب أحدهما من الآخر في اللحظة عينها التي كانا يتعثران فيها فوق الأرض الخشنة في الحقل المفتوح. ولعل منظر الموت قد طغى عليه وأقنعه مؤقتًا بعبثية كل طموح؛ وأيًّا كان السبب، فإن هانز حين أبصر صديقه وقد علاه شحوب شديد قريبًا كل هذا القرب منه دون توقع -أحسن بحزن عميق لا سبيل إلى تفسيره، وفي نوبة من الانفعال الشديد تشبث بيد هايلنر. غير أن هايلنر سحب يده غاضبًا، ورشق هانز بنظرة جانبية حادة، ثم انتقل إلى مكان آخر في الموكب، واختفى في المؤخرة.

وخفق قلب هانز النموذجي في حزن وعار، ولم يتمالك دموعه من التساقط، فانهمرت على خديه زرقاء من البرد وهو يتعثر فوق الحقول المتجمدة. لقد أدرك الآن أن هناك خطايا وأخطاء لا يمكن أن تنساها

أبدًا، ولا يستطيع أي ندم أن يصلحها، وانتابه الشعور بأن ابن الترزي الصغير لم يكن هو المحمول في النعش فوق أكتافهم، وإنما صديقه هايلنر، وأنه يأخذ معه حزنه وغضبه على خيانته له إلى عالم آخر حيث لا يصدر الحكم على الناس بالشهادات التي أحرزوها أو بالامتحانات والنجاحات التي حصلوا عليها، وإنما وفقًا للحالة النقية أو المشوبة التي عليها ضمائرهم.

وفي هذه الأثناء كان الموكب قد بلغ الطريق الرئيس، ولم يمض وقت طويل حتى عادوا إلى الكلية، حيث كان جميع المدرسين وعلى رأسهم رئيس الدير حاضرين هناك لاستقبال هندينجر المتوفى الذي كان من الممكن في حياته أن يعدو ميلًا ليتجنب مثل هذا الشرف. والمدرسون ينظرون إلى طالب متوفي نظرة مختلفة تمام الاختلاف عن نظرتهم إلى طالب حي؛ فقد كانوا مقتنعين -في هذه اللحظة بالذات- إلى قيمة كل حياة فردية وكلت إليهم وتفردها، وكل وقتٍ من الشباب أخطأوا في حقه بمثل تلك اللا مبالاة بقية الوقت.

ولكن في ذلك المساء، وطيلة اليوم التالي بأكمله كان حضور الجثة النحيلة يؤثر تأثيرًا أشبه بالسحر، فهو يعمل على تخفيف وتهدئة -كل نشاط وكل محادثة بحيث إن كل شجار وغضب وضوضاء وضحك أخفيت كأنها عفاريت الماء الذين يختفون مؤقتًا من سطح الماء، ويتركونه هادئًا وكأنه ليس مسكونًا في الظاهر. وما إن يتحدث اثنان عن الصبي الغارق حتى يذكرونه باسمه الكامل، ذلك أن لقبه «هيندو» لم يكن الآن مبجلًا بما فيه الكفاية بعد وفاة الغلام. وهذا، «الهيندو»

الهادئ الذي لا يستطيع أن يختلط بالحشد دون أن يلاحظه أحد، ملأ الآن المؤسسة كلها باسمه وبحضوره الميت.

ووصل السيد هندينجر في اليوم التالي، ومكث ساعات قلائل وحيدًا في الحجرة الصغيرة التي رقد فيها ابنه. ثم دعي بعدئذ إلى تناول الشاي مع رئيس الدير، وقضى الليلة في جناح هيئة التدريس.

ثم حان وقت الجنازة. وضع التابوت في عنبر النوم، ووقف الترزي القادم من إقليم سوابيا إلى جواره، وهو ينظر إليهم جميعًا. كان ترزيًّا نمطيًّا، نحيلًا بدرجة شنيعة، بارز العظام، يرتدي سترة فراك سوداء، اخضرت بفعل الزمن، وسراويل ضيقة زرية الهيئة؛ وأمسك بيده قبعة عالية قديمة الطراز احتفظ بها للمناسبات الاحتفالية. وكان وجهه النحيف الضيق يبدو حزينًا، مكتئبًا، هشًّا كضوء سفينة في عاصفة، ووقف هناك في حالة دائمة من الارتباك والرهبة أمام رئيس الدير وبقية الهيئة.

وفي اللحظة الأخيرة، قبل أن يأخذ الحمَّالون التابوت تقدم هذا الرجل الضئيل النحيل مرة أخرى، ولمس غطاء التابوت بحركة حائرة خجول تنم عن الحنان. وقف هناك بلا حول أو طول، يكافح دموعه وسط الحجرة الواسعة الهادئة وكأنه شجرة ذاوية في الشتاء، مهجورًا، تعسًا، بحيث لا يطيق المرء النظر إلى هذه الضحية للظروف. أخذه القس من يده ووقف إلى جواره، ثم ارتدى قبعته الصلبة الغريبة وقاد موكب الجنازة إلى أسفل السلم عبر فناء الدير، ومن خلال البوابة القديمة، وفوق الأرض المتشحة بالبياض، في اتجاه جدار المدافن المنخفض.

وأثناء غناء النشيد الجنائزي أمام المدفن، لم يكن معظم الأولاد يتابعون الإِيقاع الذي يضبطه مدرس الموسيقى مما جعله ضيق الصدر؛ كانوا يحملقون في الشكل غير المنتظم الذي بدا به الترزي الصغير، والذي وقف بردان حزينًا، يستمع برأس مطرق إلى مواعظ القس، والرئيس وأول الطلبة، وكان يومئ برأسه شاردًا إلى الطلبة المنشدين، مرتبكًا يتحسس جيب سترته من حين إلى آخر بيده اليسري باحثًا عن المنديل الذي دسه في الجيب دون أن ينجح أبدًا في إخراجه.

قال أوتو هارتنر فيما بعد: «لم أتمالك نفسي من أن أتخيل كيف يكون الأمر إذا كان أبي هو الواقف هناك». وأمن الأولاد الآخرون على كلامه وقالوا: «أجل، هذا ما فكرنا فيه أيضًا».

وأحضر الرئيس والد هندينجر فيما بعد إلى مجموعة هيلاس، وسألهم الرئيس: «أيوجد هنا من كان صديقًا خاصًّا للصبي المتوفى»؟ وفي البداية، لم يجب أحد، ونظر والد هندينجر إلى الوجوه الشابة، المتألمة العصبية. وهنا خطا «لوشيوس» إلى الأمام، فأخذ هندينجر يده وضغط عليه بحزم برهة قصيرة، ثم أطرق برأسه في تواضع. وشرع بعد ذلك في رحلته الطويلة التي تستغرق يومًا كاملًا والتي ينبغي أن يقوم بها عبر مناظر الشتاء الصافية قبل أن يصل إلى بيته، ويصف لزوجته البقعة الصغيرة التي يرقد فيها ابنهما كارل الآن مدفونًا.

وعادت الأمور إلى مجاريها القديمة في الكلية، وأخذ المدرسون يزمجرون من جديد في وجوه التلاميذ، دون أن يفكروا إلا لمامًا في الفتى الذي رحل عن هيلاس الآن وإلى الأبد. أصيب عدد من أفراد

المجموعة بالبرد من جراء وقوفهم طويلًا أمام البحيرة الكئيبة، وهم يقضون الآن في غرفة المرضى، أو يحومون في خفافهم الفلينية، وقد أحاطوا أعناقهم بالكوفيات. ولم يلحق بهانز جيبنرات أي أذى في قدميه أو عنقه، غير أن التعبير المرتسم على وجهه كان أعجز وأشد جدية منذ وقوع الكارثة. طرأ عليه تغير، الصبي صار شابًّا، كما تحولت روحه أيضًا إلى عالم آخر حيث يحوم متوجسًا قلقًا، عاجزًا عن أن يجد مكانًا للراحة. ولم يكن ذلك نتيجة لخوف من الموت أو لحزن على «هيندو» الجدير بالحزن، وإنما هو شعور بالذنب تجاه هايلنر الذي طفا بغتة إلى سطح الحياة.

كان هذا الأخير مع طالبين آخرين في حجرة المرضى؛ وكان عليه أن يبتلع شايًا ساخنًا، وأتيحت له الفرصة لإخراج تعبيراته عن موت هندينجر لعله يستخدمها في المستقبل من أجل أغراضه الشعرية. ولكنه لم يظهر أي ميل ليفعل ذلك. كان يبدو أكثر تعاسة ومرضًا عن ذي قبل، ولم يتبادل كلمة واحدة مع زملائه من المرضى. وكانت فترة اعتزاله الإجباري منذ عقوبة الاحتجاز التي وقعت عليه قد جرحت مزاجًا مرهف الحس وأصابته بمرارة شديدة، وقد كان أحوج ما يكون إلى الفهم المتعاطف. وكان المدرسون ينظرون إليه شزرًا بوصفه ساخطًا ومتمردًا، أما الطلبة الآخرون فكانوا يتحاشونه، وعامله مدرس شؤون الطلبة بشيء من الود الساخر، غير أن الأرواح التي تمتّ إليه بصلة القرابة من أمثال «شكسبير» و«شيللر» و«لناو» فقد كشفت له عن عالم أعظم وأنبل من العالم الكئيب غير المشجع الذي يحيط به في الوقت

الحاضر. وتحولت «أغاني الراهب» التي كتبها في بداية الأمر في مزاجه المكتئب الذي تولد عن الاحتجاز -تحولت شيئًا فشيئًا إلى مجموعة من الأهاجي الساخرة اللاذعة للكلية ومدرسيها وطلبتها. ووجد في اعتزاله رضًا مريرًا أشبه برضا الشهداء، واستمتع بكونه غير مفهوم، وحسب نفسه جوفينالًا (جوفينال هو شاعر ساخر من شعراء الرومان، ولد في القرن الأول قبل ميلاد المسيح «المترجم») أصغر في أشعاره المستهزئة بلا رحمة.

وبعد أسبوع من الجنازة بعد أن شفي كل من الصديقين، وكان هايلنر هو الوحيد الذي تبقى في حجرة المرضى -قام هانز بزيارته. فحياه في خجل، وسحب مقعدًا بالقرب من سريره، وجلس باسطًا يده إلى الصبي المريض، الذي استدار غاضبًا صوب الجدار، وبدا أنه غير قابل للمصالحة تمامًا. غير أن هانز رفض الاستسلام. فتشبث بيده في إحكام، وأجبر صديقه السابق على النظر إليه. غير أن الآخر بدا مشمئزًّا.

- «ماذا تريد إذن؟».

ولم يطلق هانز يده.

قال: «ينبغي أن تصغي إليَّ. كنت جبانًا عندما خذلتك. ولكنك تدرك شعوري حينذاك. كان عزمي الأكيد أن أكون من بين أوائل الأماكن القلائل في الكلية، وأن أكون الأول إذا أمكن ذلك. أنت تُسمِّي هذا «التنقيب عن الدرجات»، وهذا صحيح فيما يتعلق بي، غير أنه كان حينذاك المثل الأعلى الذي وضعته نصب عيني، ولم أكن أعرف ما هو أفضل منه».

أغمض هايلنر عينيه، فاستمر هانز هادئًا: «ها أنت ترى.. لقد كنت مضطربًا. لم أعد أدري أَمِن الممكن أن تكون صديقي مرة أخرى، ولكنني لا بد أن أظفر بغفرانك».

ظل هايلنر صامتًا، ولكنه لم يفتح عينيه. كانت العناصر الطيبة والسعيدة في شخصيته في حالة فرح، ولكنه تعود على أن يتخذ دور الروح الجافية المتوحدة، أو على الأقل كان هذا هو القناع الذي يرتديه في بعض المناسبات، غير أن هانز لم يستسلم.

- «لا بد من أن تسامحني يا هايلنر! وإني لأؤثر أن أرسب في قاع الفصل على أن أظل أحوم حواليك على هذا النحو. فإذا وافقت، عدنا أصدقاء كما كنا، وأظهرنا للآخرين أننا لم نعد في حاجة إليهم».

وهنا رد عليه هايلنر بأن ضغط على يده وفتح عينيه.

بعد أيام قلائل من ذلك اللقاء بارح غرفة المرضى. وأثارت هذه الصداقة التي تجددت أواصرها انفعالًا ملحوظًا في الكلية. وكانت الأسابيع التي توالت بعد ذلك رائعة لكليهما؛ ومع أنه لم يحدث شيء بوجه خاص، فقد كان كل من الصبيين مترعًا بشعور غريب سعيد من الانسجام، ومن التفاهم الصامت المستسر. كان الأمر مختلفًا تمام الاختلاف عن ذي قبل. وهذا الاغتراب الطويل غير كلًّا منهما، فأصبح هانز أكثر دفئًا، ومودة، وحماسة؛ وتطورت في هايلنر شخصية أقوى وأكثر رجولة. وكان كل منهما يفتقد الآخر افتقادًا شديدًا في الأسابيع الأخيرة. بحيث اتخذ اتحادهما أهمية حدث عظيم، ومنحة لا تقدر بثمن.

وبقلبين يعمران بالتوجس الحيي، كان الغلامان يستمتعان بتنبؤ لا شعوري بالأسرار الرقيقة التي تكتنف أول حب. وكانت الرابطة بينهما تتسم بكل الإِثارة الخشنة التي تنشأ عن المراهقة تصاحبها الجاذبية المضافة التي تكمن في تحديهما المتبادل للقاعدة العريضة لزملائهما من الطلبة. هذه القاعدة العريضة التي لم تتجاوز صداقاتها التي لا تحصى مرحلة التسلية العابرة كانت تنظر إلى هايلنر بوصفه شخصًا مقيتًا، على حين تنظر إلى هانز بوصفه شخصًا غير مفهوم.

وكلما تشبث هانز بصداقته راضيًا بها، ازدادت المدرسة غربة في نظره. ذلك أن الشعور الجديد بالسعادة سرى في جسمه وعقله مسرى الدم، وكأنه خمر جديدة، وفقد «ليفي» وكذلك «هوميروس» بكل أهميتهما وإثارتهما بالنسبة إليه. وأصيب الأساتذة بالفزع وهم يرون أن جيبنرات الذي كان يومًا طالبًا نموذجيًّا يتحول إلى طفل مُشْكل، يقع تحت تأثير هايلنر المريب. ولا شيء يفزع المدرس في الواقع أكثر من هؤلاء المخلوقات الغريبة، هؤلاء الفتيان المبكرين في نضجهم في تلك المرحلة الخطرة من المراهقة. وفضلًا عن ذلك، فإن عنصرًا معينًا من العبقرية بدا لهم بالفعل أنه غير صحي في هايلنر، ذلك أن هناك فجوة تقليدية بين العبقرية وبين مهنة التدريس، وأي لمحة من هذا العنصر في التلاميذ ينظرون إليه في ذعر منذ البداية. وفيما يتعلق بهم فإن العبقريات هي أولئك التلاميذ الضالون الذين لا يظهرون لهم الاحترام اللائق، ويبدأون في التدخين في سن الرابعة عشرة، ويقعون في الحب في سن الخامسة عشرة، ويرتادون الحانات في السادسة عشرة، ويقرأون

الكتب المحرمة، ويكتبون المقالات الفاضحة، ويحملقون في مدرسهم باحتقار واضح، ويسجلون في الكتاب المدرسي اليومي بوصفهم مشاغبين ومرشحين لعقوبة الحجز وأي مدرس يؤثر أن يكون لديه فصل كامل من الأغبياء، على أن يدرس لعبقري واحد، وإذا أردنا الحق فهو مصيب، ذلك أن مهمته ليست هي تربية أولاد غير عاديين، وإنما هي تخريج أشخاص يتقنون اللاتينية، والرياضيات، وحمقى أمناء طيبين. أيهما يعاني أكثر من الآخر: المدرس على أيدي الصبي أو العكس، من هو الطاغية الأعظم أو المعذب، وأيهما الذي يحطم ويدنس -جزئيًّا على كل حال- حياة الآخر وروحه، من المحال أن يحكم المرء دون الرجوع بتفكيره إلى فترة شبابه الخاصة بغضب وشنار. غير أن هذا ليس ما يعنينا في الوقت الحاضر، وثم ما يريحنا وهو أننا نعرف أنه في العبقريات الحقة تلتئم الجراح دائمًا، وأنهم يصبحون الأشخاص الذين يبدعون روائعهم رغم أنف المدرسة، والذين حين يقضون نحبهم فيما بعد -وتحيطهم هالة البعد البهيجة- يضرب بهم المدرسون المثال للأجيال اللاحقة بوصفهم أشخاصًا نموذجيين، وكائنات نبيلة. وهكذا يتكرر مشهد المعركة الدائمة بين التنظيم والروح، في كل مدرسة بدورها، ونستمر في مراقبة الدولة والمدرسة تواقين في الانشغال إلى أن نقصف في البرعم حفنة البذور الواعدة المبشرة والأرواح النبيلة التي تنمو عامًا بعد عام. ويبقى دائمًا بوجه خاص إنهم الطلبة الذين يثيرون المتاعب دائمًا: الطلبة الذين يهربون، أو يطردون، هم أولئك الذين قدر لهم أن يثروا حياة بلادهم حين يصلون إلى سن الكهولة. ومع ذلك، فإن

كثيرًا منهم –ومن ذا الذي يستطيع أن يحصي عددهم– يبددون حياتهم في التمرد الصامت ثم يتردون في هاوية النسيان.

وتمشيًا مع المبدأ المدرسي التقليدي الحسن، ليس التعاطف وإنما الصرامة هي التي زادت طالبين غريبي الأطوار وقعا تحت الاشتباه. وكان رئيس الدير –وحده– الذي كان فخورًا بهانز بوصفه طالبًا مجتهدًا في اللغة العبرية– هو الذي بذل جهدًا فاشلًا في إنقاذه. فقد استدعاه إلى مكتبه، تلك الحجرة البديعة المنسقة ذات النوافذ المقوسة التي تحدثت عنها الأسطورة إن «فاوست» الذي كان يقطن مدينة «كنيتلينجن» المجاورة قد استمتع فيها باحتساء نبيذ «إلفنجز». وكان رئيس الدير رجلًا معقولًا، لا ينقصه نفاذ البصيرة والحكمة العملية، بل كان ميالًا إلى الطلبة الذين يحب أن يخاطبهم على أساس نوع من التنازل الودي. وكانت غلطته الرئيسة هي غرور طاغ أدى به في كثير من الأحيان إلى الانغماس في إظهار مسرف لذكائه من منصته الرفيعة بحيث لم يكن يسمح له بالتسامح مع أي تدخل أو تساؤل فيما يتعلق بسلطته. فلا يتقبل أي لوم ولا يعترف بأي خطأ. وهكذا كان الطلبة الأضعف أو الأقل أمانة يفوزون برضاه، على حين أن الشخصيات الأقوى والأكثر صراحة لا يتمكنون من التصالح معه، إذ إنه يثار لأقل تلميح إلى تناقضه. وكان خبيرًا في القيام بدور الصديق الأبوي مع اصطناع التعبير المشجع، والنبرة العاطفية السليمة، وكان هذا هو الدور الذي اتخذه الآن.

قال بمودة بعد أن صافح الصبي –الذي دخل لتوه في حياء– مصافحة حارة: «اجلس. أحب أن أتبادل معك حديثًا وديًّا، إذا كان لي ذلك».

- «أرجوك يا سيدي».

- «لا شك أنك شعرت أنت نفسك -يا عزيزي جيبنرات، أن عملك ليس على ما يرام إلى حد ما في الفترة الأخيرة- في اللغة العبرية، على كل حال. ولعلك كنت أفضل طالب عندنا في العبرية، ولهذا يؤسفني أن ألاحظ تخلفًا مباغتًا. ربما لم تعد تستمتع بهذه المادة».

- «أوه، ولكنني أستمتع بها، يا سيدي».

- «فكر مليًّا في الأمر. هذه الأشياء تحدث، كما تعلم. ولعلك تعطي لمادة أخرى اهتمامك الخاص في هذه اللحظة»؟

- «كلا، يا سيدي».

- «هل أنت متيقن؟.. إذن، ينبغي أن نبحث عن أسباب أخرى. أتستطيع أن تضعني على الطريق الصحيح».

- «لا أدري.. فقد قمت دائمًا بالعمل الموضوع».

- «لقد قمت به بكل تأكيد، يا ولدي العزيز. وهذا لا يزيد عن واجبك. ولكنك كنت تفعل أكثر من ذلك من قبل. ربما كنت أكثر اجتهادًا، أو على كل الأحوال، أكثر اهتمامًا بهذه المادة. وأنا أسألك الآن عن السبب في تباطؤ مجهودك المباغت؟ لست مريضًا، على ما أعتقد»؟

- «كلا».

- «أو تعاني من نوبات الصداع؟ لا يبدو أنك على خير ما يرام».

- «أجل، تنتابني نوبات الصداع في كثير من الأحيان».

- «أتكون واجباتك اليومية أكثر من اللازم، إذن؟».

- «كلا، على الإطلاق».

- «أتراك تقوم بقراءات خاصة. كن أمينًا معي».

- «كلا، أنا لا أقرأ شيئًا تقريبًا، يا سيدي».

- «إذن، فقد أخفقت في فهمك. ثمة خطأ في مكان ما، هل تعدني بأن تمنح عملك الاهتمام السليم في المستقبل»؟

وضع هانز يده في اليد اليمنى للرجل القوي الذي نظر إليه بنظرة عطوف رزينة.

- «هذا أمر طيب، يا ولدي العزيز. لا تتراخ في مجهودك، وإلا سقطت تحت العجلة».

وضغط على يد هانز الذي سار صوب الباب، وهو يتنفس بسرعة. إذ نادى عليه الرئيس فجأة:

- «هناك شيء آخر يا جيبنرات. أنت تلتقي بهايلنر كثيرًا. أليس كذلك»؟

- «أجل، لقاءات معقولة».

- «أكثر مما تلتقي بأي طالب آخر، على ما أظن، إذا لم أكن مخطئًا؟».

- «أجل، إنه صديقي».

- «كيف حدث ذلك. إنكما مزاجان مختلفان؟».

- «لا أستطيع أن أقول ذلك، ولكنه على كل حال هو الآن صديقي».

- «أنت تعلم أنني لست فخورًا جدًّا بصديقك -فهو روح قلقة ساخطة؛ قد يكون موهوبًا، ولكنه لا يفعل شيئًا، وقد كان له تأثير عليك. سأكون راضيًا لو أنك تحاشيت صحبته -ماذا أنت قائل؟».

- «لا أستطيع، يا سيدي».

- «لا تستطيع؟ ولماذا لا تستطيع، من فضلك»؟

- «لأنه صديقي. ولا أستطيع أن أغدر به».

- «هِمْ! ولكنك تستطيع أن تبسط صداقتك على مزيد من الأولاد، أنت الوحيد الذي يخضع لتأثير هايلنر السيئ، وها نحن أولاء نرى النتائج بالفعل.. ما هي تلك الرابطة الخاصة التي تربطك به؟».

- «أنا لا أعرف نفسي حقًّا. ولكننا متحابان، وسيكون من الجبن مني أن أخذله الآن».

- «طيب، طيب. أنا لا أريد أن أرغمك على هذا. ولكنني أرجو أن تقطع علاقتك به تدريجيًّا. وسأكون راضيًا، أبلغ الرضا».

ولم يكن في ملاحظة الرئيس الأخيرة تلك النبرة الودية السابقة. وسمح له الآن بالانصراف.

ومن الآن فصاعدًا، هجم على عمله بمجهود متجدد. غير أنه لم يفعل ذلك بنفس الشهية التي كانت له من قبل؛ كان سباقًا أليمًا حتى يتخلف وراء الآخرين بمسافة بعيدة. وكان يعرف أن الأمر يرجع في شطر منه إلى صداقته، ومع ذلك لم يستطع أن ينظر إلى علاقته بهايلنر

بوصفها خسارة أو عقبة، بل على العكس رأى فيها كنزًا يرجح أي خسارة. كانت حياة أسمى وأدفأ لا سبيل إلى مقارنتها بالوجود السابق التافه الذي يمليه الواجب. كان شأنه شأن العاشقين الشبان؛ كان يشعر أنه قادر على الإتيان بأفعال عظيمة بطولية، لا الأفعال اليومية المبتذلة الرتيبة المشتغلة بالتوافه. ومن ثمّ، فقد استأنف حمل النير بتنهيدة يأس. ولم يكن من طبيعته أن يحاكي هايلنر الذي يعمل بسطحية وسرعة، إذا لم نقل بعجلة لا لزوم لها، ويكتسب أدنى نصيب من المعرفة. ولما كان صديقه هو الذي يقرر ساعة الفراغ كل مساء، فقد أجبر نفسه على الاستيقاظ مبكرًا ساعة كاملة، ويأخذ في مصارعة النحو العبري وكأنه يصارع عدوًّا. وكان هوميروس ومادة التاريخ هما اللذان يعطيانه أي متعة في الوقت الحاضر. وكما يتحسس الأعمى طريقه في الظلام، وصل إلى شيء من الفهم للعالم الهوميري. وفي التاريخ لم يعد الأبطال مجرد أسماء وأرقام، بل شرعوا يقتربون منه وينظرون إليه بأعين متألقة، وكانت لهم شفاه حمراء، ولكل منهم وجه فردي ويدان –لأحدهم يدان حمراوان سميكتان خشنتان، وآخر له يدان باردتان شبيهتان بالحجر، وثالث له يدان ضيقتان دافئتان تظهر فيهما العروق الدقيقة.

وحتى عندما كان يقرأ الكتاب المقدس باليونانية، وجد نفسه مندهشًا في بعض الأحيان، بل لقد تعثر من وضوح الشخصيات واقترابها التي سكنت فيه. وفي الفصل السادس من إنجيل القديس مرقص –على سبيل المثال– حيث غادر يسوع السفينة مع حواريه، جاء فيه:

«ولما خرجوا من السفينة للوقت عرفوه». كان يستطيع هنا أن

يرى ابن الإِنسان يغادر السفينة فيعرفه على الفور، لا بوجهه أو ملامحه الجسمية، ولكن بالعمق الساطع في عينيه المحبتين، وإنما بالاستجابة اللطيفة أو الداعية المرحبة من يديه الجميلة السمراء التي يبدو أنها شكلت وسكنتها شخصية مهذبة، وإن تكن قوية. وفي لحظة تصاعدت حافة البحيرة المضطربة ومجاديف سفينته الثقيلة، ثم اختفت الصورة كلها وتلاشت كما يتلاشى بخار زفير في هواء الشتاء.

ومن حين لآخر كانت شخصية تاريخية أو حدث يثب من صفحات كتابه بنفس اللهفة والحماسة، وكأنها تتوق إلى الحياة مرة أخرى، أو أن الحدث يود أن يعاد فعله، وأن ينعكس في عين حية. وكان هانز شديد التأثر والدهشة، وشعر بنفسه تتحول بعمق وغرابة بتأثير تلك الظواهر التي لمحها وهي تومض أمام ناظريه؛ وكأنه يختلس النظر خلال الأرض المظلمة مثل مرآة، أو كأن الإِله نفسه ينظر إليه. هذه اللحظات الثمينة كانت تأتي دون أن يستدعيها، وتختفي دون جزع وكأنها حجيج أو أضياف ودودون، قد يتردد المرء في مبادرتهم أو الإِلحاح عليهم بالبقاء لأن لهم هيئة غريبة شبيهة بأطياف إلهية.

احتفظ بهذه التجارب لنفسه ولم يفشها لهايلنر. ذلك أن اكتئاب هذا الأخير قد أصابته الحموضة فتحول إلى نوع من السخرية المرة، وجدت منفذًا لها في الانتقادات الموجهة إلى المدرسة، وإلى الطقس، والحياة، ووجود الله، وفي بعض الأحيان كانت تسوقه إلى الدخول في معارك، أو الانغماس في مِزْحة حمقاء. ولما كان يقف بمعزل عن الباقين، وفي معارضتهم، فقد أظهر ذلك في موقف من التحدي والعداء، حاملًا

جيبنرات معه، الذي كان مهيئًا لذلك؛ وعلى هذا النحو عُزل الصديقان عن الحشد العام، وكأنهما جزيرة مشؤومة. غير أن هانز شعر رويدًا رويدًا بأنه أقل انزعاجًا بكل هذا.. آه، لو لم يكن هناك رئيس الدير الذي يحمل له هيبة خفية! فبعد أن كان تلميذه الأثير فإنه يعامله الآن بفتور وكأنه مشكلة خرجت من يديه. وفقد حماسته تدريجيًّا للعبرية، وقد كانت المادة التي تخصص فيها الرئيس.

ومن دواعي التسلية أن ترى كيف تغير الطلبة الأربعون -باستثناء بعض الحالات البطيئة التغير- جسمانيًّا وروحيًّا في أشهر قلائل. بعضهم ارتفعت قامته بشكل ملحوظ على حساب العرض، وبرزت معاصمهم وكواحلهم من الثياب التي لم تواكب ذلك النمو. وأظهرت وجوههم كل الفروق الممكنة بين طفولة تلاشت، رجولة ما زالت مترددة في برعمها، حيية في الإلحاح على مطالبها، والأولاد الذين لم تلحق بأجسامهم نحافة البلوغ، اكتسبوا بدراستهم لسفر موسى على جباههم الناعمة، جدية البالغين، وإن كانت مؤقتة. وأصبح من النادر الآن أن تجد زوجًا من الخدود المربربة.

وتغير هانز أيضًا. أصبح الآن طويلًا نحيلًا مثل هايلنر، بل بدا أكبر من صديقه. واختفت البشرة الشفافة التي كانت لجبينه، وغارت عيناه بمزيد من العمق، وأضحت ملامحه كالفطيرة، وبرزت عظام أطرافه وكتفاه، دون أن يكسوها اللحم.

وكلما قل رضاه عن تقدمه في الفصل، اشتد عزمه -تحت تأثير هايلنر- على مقاطعة رفاقه. ولما لم يعد التلميذ النموذجي وأول الفصل

بالإمكان، فكذلك لم يعد لديه سبب يدعوه للنظر إليهم من عل، ولم يعد ترفعه لائقًا به. ولكنه لم يكن قادرًا على الصفح عنهم، لأنهم كانوا يجعلونه مدركًا لهذا، أو عن نفسه لشعوره الحاد بما يصنعون. وعلى سبيل المثال نشبت مشاجرات بينه وبين هارتنر الذي لا يؤذي أحدًا، وكذلك مع أوتو فينجر المتعجرف. وعندما حدث ذات يوم أن سخر منه هذا الأخير وأخذ يضايقه رد عليه بلكمة. وترتبت على ذلك معركة خطيرة. وكان فينجر جبانًا، غير أن خصمه الضعيف كان لعبة سهلة، فحمل عليه بلا شفقة ولا رحمة. ولم يكن هايلنر حاضرًا، أما الباقون فقد شهدوا المعركة بلا مبالاة، بل كانوا يستمتعون ببهدلته. والحق أنه ضُرب ضربًا طيبًا، فكانت الدماء تنزف من أنفه، وكل ضلع من أضلاعه يؤلمه، فلم يستطع النوم في تلك الليلة بطولها ألمًا وغضبًا. وأخفى خبر هذا الحادث عن صديقه، ولكنه منذ تلك اللحظة قرر بعزم أن يتجنب رفاق دراسته، وقلّما كان يتبادل معهم كلمة.

وفي بداية العام الجديد، بأصائله الممطرة، وآحاده المطلولة، وفتراته الطويلة المظلمة، طرأ على الحياة في الكلية تحول جديد. إذ أسست مجموعة «أكروبوليس» الدراسية أمسيتين موسيقيتين منتظمتين، وكانت هذه المجموعة تضم بين أعضائها عازفًا جيدًا للبيانو، واثنين من عازفي الناي، أما المجموعة الدراسية «جرمانيا» فقد افتتحت حلقة للقراءة المسرحية؛ كما أقام عدد من الطلبة الأتقياء القلائل حلقة لدراسة الكتاب المقدس، فكانت تقرأ فصلًا من الكتاب المقدس كل أمسية مع التعقيب على نسخة كالڤن للكتاب.

وطلب هايلنر الالتحاق بعضوية حلقة القراءة المسرحية في جرمانيا، غير أن طلبه رُفض. فاستشاط غضبًا. ولإِغاظتهم التحق بجماعة دراسة الكتاب المقدس، وكانوا لا يريدونه كذلك، ولكنه اقتحم الجماعة وفرض نفسه، وبآرائه الوقحة وتلميحاته الهرطقية خلق جوًّا من النزاع والتصارع في المحادثة الورعة التي كان يريدها الإِخوة الصغار في حياء. ولكنه سرعان ما أصابه التعب من هذه اللعبة، غير أن نبرته الساخرة في محادثته ظلت سارية. ومهما يكن من أمر، فإنه كان يلقى اهتمامًا كبيرًا، ذلك أن مشروعًا إبداعيًّا تولد عن روح جديدة اجتاح المؤسسة بأكملها.

وكان الشخص الذي جعل نفسه مدار الحديث هو عضو ذكي حاضر البديهة في جماعة «إسبرطة». وبغض النظر عن شهرته الشخصية، شعر بأن من واجبه إشاعة شيء من الحياة في مكانه ذاك، وأن يدخل مزيدًا من الارتياح والتخفف من رتابة العمل اليومي بأي وسيلة ممكنة من الترويح، وكان اسمه «دانستان»، فاكتشف طريقة مبتكرة لإِحداث نوع من الإِثارة واكتساب شيء من الشهرة لنفسه في الوقت ذاته.

وذات صباح، بينما كان الأولاد يخرجون من عنابر النوم. وجدوا ورقة ملصقة على باب حجرة الاغتسال كُتب تحت عنوانها: «ست قصائد من إسبرطة» نخبة من الشخصيات البارزة في تلك المجموعة، ومثالبهم ونوادرهم وصداقاتهم وقد أوسعت استهزاء خلال الأبيات. ولم يفلت جيبنرات وهايلنر من استرعاء الانتباه. وماج العالم الصغير بالإِثارة والانفعال. وتزاحم الطلبة على الباب وكأنه مدخل إلى المسرح،

وأخذوا يتهامسون فيما بينهم، وهم يتدافعون بالمناكب ويئزون معًا كخلية نحل عندما تتهيأ ملكتها للطيران.

وفي صباح اليوم التالي كان الباب كله مغطى بالقصائد والأهاجي التي تجدد الهجمات من مجموعة «إكزينيا» ردًّا على القصائد السابقة، وكان المدبر للعملية كلها من الذكاء بحيث لم يشارك فيها على الإطلاق. وقد اشترك كل طالب تقريبًا في معركة القصائد هذه لعدة أيام. وطاف كل منهم مفكرًا، وقاصدًا أبياتًا ثنائية بعينها «كوبليه»، وكان لوشيوس هو الوحيد الذي مضى في عمله دون انزعاج كما كان من قبل. وفي نهاية المطاف، سمع أحد المدرسين بالأمر، فقضى بتحريم الاستمرار في هذه اللعبة المثيرة.

ولم يتربع دانستان الماكر طويلًا على أمجاده؛ وكان في هذه الأثناء قد أعد ضربته القاضية. إذ اختار في هذه اللحظة أن ينشر أول عدد من جريدة استنسخها ببنط صغير على ورق الكراسات؛ وظل يجمع «النسخة» زهاء أسبوع، وكان عنوانها: «القنفذ» وكانت أساسًا دورية فكاهية. وكانت افتتاحية العدد الأول حوارًا ضاحكًا بين كاتب سفر يشوع وطالب لاهوتي من مولبرون.

فازت الجريدة بنجاح هائل، واتخذ دانستان مظهر الناشر والمحرر المستغرق في العمل، وسادت دهشة عامة حين شارك هرمان هايلنر مشاركة حماسية في التحرير، وأخذ يمد المشروع -بالإضافة إلى دانستان- بتعليقات لاذعة ساخرة لم يكن يفتقر فيها لحضور البديهة ولا إلى الحقد. وظلت هذه الجريدة الصغيرة تمسك بالكلية كلها زهاء

شهر تقريبًا في حالة من حالات الإثارة المبهورة الأنفاس.

وأبلغ جيبنرات صديقه أنه لا يشعر بالرغبة ولا يمتلك الموهبة اللتين تدفعانه إلى المشاركة. ولم يفطن في البداية إلا بجهد جهيد إلى أن هايلنر يقضي كثيرًا من أمسياته في الآونة الأخيرة في مجموعة «إسبرطة»، ذلك لأنه كان يفكر في شيء آخر يدور في رأسه. ويومًا إثر يوم كان يبدو شاردًا، بلا أي حمية، ويعمل ببطء، وبلا أي حماسة، وفي مناسبة من المناسبات في فترة ليڤي مر بتجربة غريبة.

نادى عليه المدرس لكي يقوم بالترجمة. فظل جالسًا دون أن يبرح مكانه.

صاح المدرس غاضبًا: «ما معنى هذا؟ لماذا لم تقف؟».

ولم يتحرك هانز، وظل قاعدًا على منضدته برأس مُطرق قليلًا، وبعينين نصف مغمضتين. أيقظته الصيحة من حلم، غير أن صوت المدرس بدا وكأنه يصل إليه من مكان بعيد جدًّا. وكان مدركًا أيضًا أن جاره يلكزه بشدة. ولكن الأمر كله بدا له وكأنه لا يتعلق به. وأحاط به آخرون؛ وامتدت إليه أيادٍ أخرى، وخاطبته أصوات أخرى، قريبة، لطيفة، وأصوات عميقة لا تنطق بأي كلمات، مجرد أصوات كخرير عميق لجدول ماء. وثمة عيون كثيرة تحملق إليه –عيون غريبة، لامعة براقة، مفعمة بالنذير. لعلها عيون حشد روماني كان يقرأ عنه لتوه في «ليڤي»، أو عيون رجال مجهولين حلم بهم، أو رأى لمحة منهم في الصور.

صاح المدرس: «جيبنرات.. أأنت نائم؟».

فتح الصبي عينيه متباطئًا، والتفت مندهشًا إلى المدرس وهز رأسه.

- «لقد كنت نائمًا! أتستطيع أن تخبرني بالجملة التي توقفنا عندها»!

وأشار هانز إلى المكان في الكتاب، وكان يعرف جيدًا أين كانوا. قال المدرس متهكمًا: «أظن أنك ستكون متفضلًا بالوقوف الآن؟».

ونهض هانز:

- «ماذا كنت تفعل إذن؟ انظر إليّ!».

ونظر إلى المدرس. ولم يكن هذا الأخير مسرورًا بما يشاهد لأنه هز رأسه في دهشة.

- «هل أنت مريض، يا جيبنرات؟».

- «كلا، يا سيدي الأستاذ».

- «اجلس مرة أخرى، وتعال إلى مكتبي بعد انتهاء الحصة».

جلس هانز وانحنى على كتاب «ليفي». كان مستيقظًا تمام اليقظة ويفهم كل ما يجري أمامه. غير أنه تابع بعينه الباطنة الأشكال الغريبة الكثيرة التي تتحرك ببطء مبتعدة عنه إلى مسافة كبيرة وقد تركزت عيونها اللامعة عليه حتى تلاشت في الضباب. وفي الوقت نفسه كان صوت الأستاذ وصوت الصبي الذي يقوم بالترجمة وأصوات الفصل الخافتة جميعًا تقترب منه أكثر فأكثر بوصفها واقعية وحاضرة كما كانت دائمًا. والمناضد ومنبر الأستاذ والسبورة كانت جميعًا هناك كالمعتاد؛ وكذلك كانت البوصلات الخشبية الكبيرة والخرائط معلقة على الجدار،

وحواليه جلس رفاقه الطلبة، وقد أخذ الكثير منهم يحملقون ناحيته في فضول وقح. وهنا استولى الخوف على هانز. «تعال إلى مكتبي بعد انتهاء الحصة»، كانت هذه هي الكلمات التي سمعها. بحق السماء، ماذا حدث إذن؟

وأومأ إليه الأستاذ بعد انتهاء الحصة، وصحبه خلال صفوف زملائه المحملقين.

– «والآن أنبئني بحقيقة الأمر معك. لم تكن نائمًا حينذاك».

– «كلا».

– «لماذا لم تقف عندما ناديت عليك؟».

– «لست أدري».

–»لعلك لم تسمعني؟ أبك متاعب في السمع؟».

– «كلا. فقد سمعتك».

– «ومع ذلك لم تقف؟ لك نظرة غريبة في عينيك. فيم كنت تفكر؟».

– «لا شيء. وكنت أنوي أن أقف».

– «ولماذا لم تفعل إذن؟ ألم تكن على ما يرام؟».

– «لا أظن ذلك. لا أدري ماذا كان الأمر».

– «هل انتابك صداع».

– «كلا».

– «طيب. انصرف».

وقبل العشاء استُدعى هانز مرة أخرى، واصطحبوه إلى عنبر النوم. وهناك كان رئيس الدير في انتظاره ومعه الطبيب. وقام الطبيب بفحصه وسأله عدة أسئلة، ولكنه لم يصل إلى نتيجة محددة تمام التحديد. وضحك الطبيب ضحكة صافية، إذ لم يكن يعتقد أن المسألة خطيرة.

ابتسم قائلًا: «اختلالات عصبية طفيفة يا سيدي الرئيس. إغماءة مؤقتة –مجرد دوار خفيف وتأكدوا من أن يحصل هذا الطالب على شيء من الهواء النقي يوميًّا. وسأصف له بعض النقاط من أجل نوبات الصداع».

ومنذ تلك اللحظة كان على هانز أن يقوم بجولة يوميًّا لاستنشاق الهواء النقي بعد العشاء. غير أنه لم يكن يأبه لذلك. وأسوأ ما في الأمر أن الرئيس منع هايلنر صراحة من أن ينضم إليه في تلك الجولات. وثار هايلنر وأقسم، غير أن الأمر لم يجد فتيلًا. وهكذا كان هانز يخرج بمفرده، واستمد شيئًا من المتعة في صحبته لنفسه. وكانت بداية الربيع. وجرت الخضرة الجديدة كموجة صافية ضحلة فوق أشكال التلال الدائرية، وكانت الأشجار تفقد نموذجها المحدد بحدة بواسطة الشتاء، وظهرت أوراقها الغضة النضيرة في ألوان المنظر الطبيعي وكأنها مَدٌّ متدفق رحب من الخضرة الحية.

وفي وقت مبكر عن هذا كان هانز –أثناء دراسته الثانوية– ينظر إلى الربيع بعين مختلفة، بمزيد من الفضول المهتم بجوانبه التفصيلية. فلاحظ الطيور العائدة، نوعًا إثر آخر، والانفجار المتوالي لازدهار أشجار الفاكهة. وما إن يصل شهر مايو، حتى يبدأ في رحلاته لصيد

الأسماك. ولكنه الآن لم يعد يهتم هو نفسه بالتمييز بين أنواع الطيور المختلفة أو التعرف على الأحراش من براعمها. كل ما لاحظه هو الانبثاق العام للحياة، والألوان قد بدأت تشيع في كل مكان. فكان يتنفس أريج الأوراق الجديدة، ويشم الهواء اللطيف المنعش، ويسير وسط الحقول مفعمًا بالدهشة. بيد أن التعب كان يناله بسهولة، وكان يحس برغبة متصلة للرقاد والاستسلام للنوم. وفي معظم الأوقات كان يرى أشياءً غير تلك التي تحيطه بالفعل. أما ما هي هذه الأشياء، فلم يكن يدري هو نفسه، ولم يلتفت إلى هذه المسألة أي التفات. كانت رؤى متميزة، غير معتادة، مؤثرة تنتصب حواليه مثل صور متجمدة أو طرق محفوفة بأشجار غريبة الأشكال، غير ما من شيء يبدو أنه يحدث بينها. صور للتأمل لا يعكرها شيء، غير أن فعل التأمل هذا نفسه كان أيضًا تجربة. وكان أشبه بالارتفاع إلى عالم آخر ووسط أناس آخرين. كان سفرًا إلى أرض غريبة، أرض ناعمة، لذيذة الوطء، وتهب فيها ريح طيبة، زاخرة بالرخاء، وبأريج حالم. وأحيانًا كان يحل محل هذه الصور شعور قاتم، دافئ ومتحرك، وكأن يدًا لطيفة تُربت على جسده.

والتقى هانز بصراع بين التركيز على قراءته، وبين عمله الآخر. وكانت الموضوعات التي أخفقت في الاستيلاء على اهتمامه روَّاغة كالظلال، فإذا أراد أن يتذكر مفردات العبرية من أجل الحصة، كان عليه أن يحفظها في اللحظة الأخيرة. غير أن لحظات الرؤية في الحضور الملموس لكل شيء وصف في قراءته كانت تبدو أكثر حياة، أكثر واقعية بكثير من الأشياء الفعلية التي تحيط به. وبينما لاحظ في شيء

من القنوط أن ذاكرته تبدو عاجزة عن تقبل المزيد، وأضحت أفقر وأقل يقينًا يومًا إثر يوم –هاجمته أحيانًا ذكريات من أيامه الأولى بوضوح غريب، شاذ ومزعج في آن معًا. فكان يجد نفسه في كثير من الأحيان يفكر في أبيه أو في «آنا» العجوز في منتصف الدرس، أو حين يقرأ، أو حين يظهر أحد مدرسيه السابقين أو زملائه السابقين بجسده أمامه، فيحتكر انتباهه برهة من الزمن. وهكذا عاش من جديد مشاهد من إقامته في «شتوتجارت» وهي فترة الامتحان العام، والإِجازات التي أعقبته، أو كان يرى نفسه جالسًا على شاطئ النهر بسنارة الصيد، وهو يشم رائحة المياه التي أضاءتها الشمس، ومع ذلك كان يراوده الشعور بأن الزمن الذي يحلم به وقع في أعوام بعيدة من الماضي السحيق.

وفي إحدى الأمسيات الرطبة المعتمة كان يتجول هو وهايلنر جيئة وذهابًا، ويتحدثان عن أبيه، وعن صيد السمك، وعن المدرسة. وكان من الواضح أن صديقه هادئ، وأنه يتركه يتكلم، وهو يومئ برأسه من حين إلى آخر، أو يأتي بإشارات متفكرة في الهواء بمسطرته الصغيرة التي كان يلعب بها طوال اليوم. وبالتدريج أخلد هانز هو أيضًا إلى الصمت. وكانت الظلمة قد وقبت، فما كان منهما إلا أن جلسا على إفريز نافذة.

وأخيرًا بدأ هايلنر قائلًا: «أقول، يا هانز» وكان صوته منفعلًا غير منتظم.

– «ماذا؟».

– «أوه، لا شيء».

- «استمر في حديثك!».

- «كنت أفكر -ما دمت قد تحدثت إليَّ في كل أنواع الموضوعات...».

- «ثم...؟».

- «أنبئني يا هانز، هل طاردت فتاة ذات يوم؟».

وأعقب ذلك صمت مطبق. كان موضوعًا لم يطرقه أحد منهما من قبل. وكان هانز يخجل منه، وإن تكن هذه الأرض الملغزة تلوح له بجاذبية حديقة ساحرة. أحس بأن الدماء تصَّاعد إلى وجنتيه، وارتعشت أنامله.

همس قائلًا: «مرة واحدة فحسب، كنت طفلًا غريرًا حينذاك».

صمت آخر.

- «... وأنت يا هايلنر؟».

فتنهد هايلنر.

- «أوه، لا تسل، فلا جدوى من التحدث عنها، كما تعلم. ولا خير في ذلك».

- «امض في حديثك!».

- «أنا.. أنا كانت لي حبيبة».

- «أنت؟ أهذا حق؟».

- «هناك، في البيت. جارة. وقد قبلتها هذا الشتاء».

- «قبلتها؟».

- «أجل، كان ذلك في الظلام. وكنت أساعدها على خلع زلاقتها على الثلج في المساء، ومن ثم فقد منحتها قبلة».

- «وهل قالت أي شيء؟».

- «لم تفه بكلمة.. كل ما في الأمر أنها أخذت تعدو».

- «ثم ماذا؟».

- «ثم!... لا شيء».

وتنهد ثانية، وحملق في وجهه وكأنه بطل عاد من حديقة محرمة.

وعندئذ دق الجرس. وكان عليهما أن يذهبا إلى الفراش. وعندما أطفئ المصباح، وثاب كل شيء إلى الهدوء، رقد هانز أكثر من ساعة، مفكرًا في القبلة التي منحها هايلنر لحبيبته.

وفي اليوم التالي أراد أن يسأله عن المزيد حول هذا الموضوع، ولكنه شعر بالحياء، وكان صديقه من الحياء بحيث لم يرجع إلى هذا الموضوع، ما دام هانز لم يسأله عن المزيد.

وكانت الأمور تسير في المدرسة من سيئ إلى أسوأ بالنسبة لهانز. فبدأ المدرسون يقطبون وجوههم وينظرون إليه باستغراب، وكان الرئيس صارمًا متجهمًا، بل إن رفاق هانز أدركوا منذ زمن بعيد أن جيبنرات بدأ ينحدر من منصته، وأنه كف عن هدفه وهو أن يكون أول فصله. وكان هايلنر وحده هو الذي لم يفطن إلى شيء -لم تكن شؤون المدرسة مهمة بالنسبة إليه -وكان هانز يرى كل ما يحدث وكل ما يتغير

دون أن يلقي إلى هذا بالًا.

وفي تلك الأثناء كان هايلنر قد شبع من تحرير الصحيفة، ورجع إلى صديقه مرة أخرى. وعلى الرغم من الحظر وتحديًا له، كان يصحب هانز عدة مرات في جولاته اليومية، ويستلقي إلى جواره تحت الشمس مستغرقًا في أحلام اليقظة، ويقرأ الشعر، ويبتكر النكات التي تمس الرئيس. وفي كل يوم، كان هانز يرجو أن يدلي إليه هايلنر بمزيد من الاعترافات عن قصة حبه الرومانسية، ولكنه كلما أحجم عن سؤاله، كان من الأصعب عليه أن يفعل ذلك. وأصبح كل منهما أبعد من أن يكون محبوبًا بين رفاقه كما كانا دائمًا، ذلك أن تلميحات هايلنر الشريرة في «القنفذ» لم تكسب له ثقة أحد.

وفي هذا الوقت كانت الصحيفة قد بدأت في الانحدار، ذلك أنها قد تمادت أكثر من اللازم، فالمحررون كانوا يقصدون أن تملأ صحيفتهم الأسابيع الرتيبة التي تمتد بين الشتاء والربيع. وها هو الموسم الجديد من العام قد أقبل بالكثير الذي يمكن أن يمنحه مثل الاهتمام بالزهور، والجولات، ورياضات الهواء الطلق. وفي العصر، كان لاعبو الجمباز، والملاكمون، والعدَّاءون، ولاعبو الكرة يملأون حديقة الدير بصيحاتهم وأنشطتهم.

وأضيف إلى هذا كله إثارة أخرى، كان هرمان هايلنر هو منشئها ومركز العاصفة فيها.

تناهى إلى سمع الرئيس أن هايلنر قد تحدى الحظر، وأنه يصاحب جيبنرات في جولاته كل يوم تقريبًا. وفي هذه المناسبة لم يشأ الرئيس

أن يزعج جيبنرات، بل اكتفى بأن استدعى المذنب الرئيسي -عدوه القديم- إلى مكتبه. وخاطبه بألفة تتسم بالمودة، جعلت هايلنر ينكمش في الحال. وعاتبه على ما اقترفه من عصيان في حقه. وشرح هايلنر الأمر، فقال إن جيبنرات صديقه وليس من حق أحد أن يتدخل بينهما. وكان المشهد الذي عرضه قبيحًا بحيث احتجزه عدة ساعات، وحرم عليه بشدة أن يتجول مع جيبنرات في المستقبل.

وهكذا شرع هانز في اليوم التالي في جولته الرسمية وحيدًا. وعاد في الساعة الثانية بعد الظهر، وانضم إلى بقية الرفاق في الفصل. وفي بداية الحصة، انتشر الخبر بأن هايلنر غائب، وكان هذا تكرارًا للمناسبة السابقة التي اختفى فيها «هيندو» غير أن هذه المرة لم يفترض أحد أن الأمر مجرد تأخير، وفي الساعة الثالثة خرجت الكلية جمعاء مع ثلاثة من المدرسين للبحث عن الطالب المفقود. وانقسموا إلى جماعات، أخذت تجري وسط الغابات وهي تنادي عليه. ولم يستبعد كثير من الأولاد واثنان من المدرسين إمكانية أن يكون قد ألحق بنفسه شيئًا من الأذى.

وفي الساعة الخامسة أبرقوا إلى جميع مراكز الشرطة وفي المساء بعثوا خطابًا مستعجلًا بالبريد إلى والد هايلنر. وفي ساعة متأخرة من المساء لم يعثروا على أي أثر للغلام، وصار الهمس مسموعًا في عنابر النوم حتى ساعة متأخرة من الليل. وكانت أكثر النظريات قبولًا بين الطلبة هي أنه ألقى بنفسه في الماء. وظن آخرون أنه لم يفعل أكثر من الهرب إلى منزله. بيد أنهم اكتشفوا أنه لم يكن يحمل معه مالًا.

ونظروا إلى هانز وكأنه ملزم بأنه يعرف كل شيء عن الموضوع. غير أن الأمر لم يكن كذلك، والواقع أنه كان أكثرهم انزعاجًا وجزعًا، وفي عنابر النوم أثناء الليل عندما سمع الآخرين يسألون الأسئلة، ويخترعون النظريات، ويتندرون بما حدث، دفن نفسه تحت البطانية واحتمل ساعات طويلة من العذاب في هذا الوضع حزنًا على صديقه. واستولى عليه هاجس بأنه لن يعود أبدًا، وانقبض لهذا الهاجس قلبه، وملأه بالفزع، وبعد لأيٍ، أرهقه القلق، فغشاه النعاس.

وفي هذه اللحظة عينها، كان هايلنر يستلقي على بعد أميال قلائل في غابة. كان البرد قد أخذ منه كل مأخذ، فدفعه إلى النوم، ولكنه أخذ أنفاسًا عميقة مستمتعًا بحريته، فبسط أطرافه وكأنما هرب من قفص ضيق. وكان قد مضى سائرًا منذ منتصف النهار، واشترى رغيفًا من الخبز في «كنيتلجين» طفق يقضم منه مرة بعد أخرى، وهو يحملق خلال أغصان الربيع التي ما برحت متلفعة بقليل من الأوراق في الظلمة، والنجوم، والسحب التي يطارد بعضها بعضًا. ولم يكن يبالي بالمكان الذي سوف يرسو عنده في نهاية المطاف، لقد هرب على الأقل من تلك الكلية البغيضة، وأثبت للرئيس أن إرادته أقوى من كل أوامره ونواهيه.

وفي اليوم التالي كله واصلوا البحث بلا جدوى. فقد قضى الليلة الثانية بالقرب من قرية بين أكوام القش في حقل من الحقول. وفي الصباح عاد إلى الغابة. ولما أراد أن يدخل قرية عند حلول المساء وقع بين يدي واحد من رجال الشرطة، فاقتاده في شيء من التسلية المزدرية إلى قاعة المدينة حيث اكتسب هايلنر تعاطف العمدة بالنكات التي

أطلقها واللغة الناعمة، فدعاه إلى أن يمضي الليل في منزله، وكان سخيًا في تقديم لحم الخنزير والبيض على مائدة العشاء. وفي اليوم التالي تسلمه أبوه بعد أن حضر إلى المدينة.

وبلغت الإِثارة أقصى حدودها في الكلية بعودة الهارب إليها. ولكنه احتفظ برأسه عاليًا، ولم يبد عليه أنه ندم على هربه الرائع. وكان من المتوقع أن يعتذر، ولكنه أبى، ولم يظهر شيئًا من الوجل أو الخضوع حين مثوله أمام محكمة المدرسين. وقد أرادوا حمايته، غير أن الكيل كان قد طفح الآن، فطرد طردًا مجللًا بالعار، وفي ذلك المساء غادر الكلية مع أبيه إلى الأبد. وكان وداعه لصديقه هانز جيبنرات قد اقتصر على مجرد مصافحة باليد.

وألقى رئيس الدير خطبة عصماء مؤثرة عن هذه الحالة الفاضحة من التمرد والانحلال. غير أن تقريره الذي رفعه إلى السلطات في «شتوتجارت» كان ملفوفًا في كلمات محسوبة أضعف وأكثر واقعية. وصدر تحريم لأي مراسلة في المستقبل مع ذلك المسخ المطرود، تلقاه هانز جيبنرات بابتسامة. وظل هايلنر وهربه موضع الحديث زهاء أسابيع؛ ذلك أن بعد المسافة وطول الزمن قد عملا على تعديل الرأي العام فيما يتعلق به، وأخذ كثيرون ينظرون إلى الهارب الذي كانوا يتحاشونه في عصبية، نظرتهم إلى نسر حلق بعيدًا عن قفصه.

وهكذا احتوت «هيلاس» الآن على مقعدين خاليين، ولم ينس الشاغل الأخير بسرعة كما نسي الشاغل الأول. وكان من الأليق بالنسبة للرئيس أن يهتم بالثاني اهتمامه بسابقه غير أن هايلنر لم يتخذ

أي خطوات لتعكير صفو السلام في المؤسسة، وظل صديقه ينتظر وينتظر دون أن يصل خطاب منه. لقد رحل وتلاشى، وفي البداية أصبح شكله الجسماني وهربه وذكرياتهما تاريخًا ماضيًا، وتحولت بعد ذلك بالتدريج إلى أسطورة. وبعد كثير من صنوف الهرب اللامعة وتقلبات الحظ. خضع الصبي أخيرًا للنظام بسبب وقائع الحياة الصارمة، التي وإن لم تجعل منه بطلًا، فقد صنعت منه رجلًا، على أقل تقدير.

وكان الارتياب الذي وصم به هانز الذي بقي بعد رحيل صديقه، بأنه كان على علم مسبق بهرب هايلنر، قد سلبه تمامًا كل تقدير طيب في رأس مدرسيه. فإذا تصادف أن أعطى إجابة خاطئة أثناء حصة من الحصص على عدد من الأسئلة، لاحظ أحدهم قائلًا: «لماذا لا ترحل أنت أيضًا مع صديقك ذلك الرائع؟».

وتركه الرئيس باقيًا في مكانه، غير أنه كان يراقبه عن كثب، بنفس تلك الشفقة المستهزئة التي كان ينظر بها الفريسي إلى جابي الضرائب. هذا الجيبنرات لم يعد واحدًا منهم، لقد أصبح منبوذًا.

* * *

الفصل الخامس

وكالهمستر[1] بالمخزون الذي يحمله، استطاع هانز أن يكتسب فترة لالتقاط الأنفاس بفضل رصيده السابق المكتسب من المعرفة، ثم أعقبت ذلك فترة أليمة من السغب، تتخللها محاولات قصيرة لا جدوى منها لإنقاذ الموقف، ولكنها كانت بلا أمل. وقد كف الآن عن تعذيب نفسه بلا غرض يرجوه، فلجأ إلى هوميروس ثم إلى أسفار موسى الخمسة، وكتاب الجبر بعد «إكزينوفون» وأخذ يراقب -دون أي إزعاج- سمعته الطيبة وهي تهبط درجة درجة في عيون مدرسيه من جيد إلى متوسط، ومن متوسط إلى مُرضٍ، ومن مُرضٍ إلى غير مرضٍ. وعندما تحرر من نوبات الصداع التي لم تكن تلم به كثيرًا، أخذ يفكر في «هرمان هايلنر» ويحلم أحلامه الكسول العابثة وينفق الساعات مستغرقًا في خواطر غامضة. وكان جوابه على ضروب اللوم التي يوجهها إليه مدرسوه ابتسامة طيبة مستنكرة. وكان فيدريش -وهو مساعد مدرس ينظر إليه بشيء من الود- هو الوحيد الذي أحزنته هذه الابتسامة اليائسة. فكان يعامل هذا الفتى الذي ضل طريقه في نوع من

(١) حيوان من القوارض شبيه بالجرذ.

الاحتمال المتعاطف. أما بقية المدرسين فكانوا مستنكرين لموقف هانز ويعاملونه بشيء من الإهمال المزدري أو يبذلون محاولات من حين إلى آخر لإيقاظ طموحه الغافي بتلميحات ساخرة. «في حالة ما لو لم تكن نائمًا، هل أزعجك بقراءة هذه الجملة؟».

وكان رئيس الدير مستاء، بحق. وكان هذا الرجل المغرور يظن أن لنظرته قوة، ولهذا كانت تثور ثائرته حين واجهه جيبنرات مرة بعد أخرى، وواجه حاجبيه المتوعدين الملكيين بتلك الابتسامة الوديعة المستنكرة، التي كانت تثير أعصابه.

«لا تبتسم تلك الابتسامة التي لا معنى لها. لديك من الأسباب ما يجعلك -بالأحرى- تبكي».

ووصل إليه من أبيه خطاب ينطوي على كثير من الرعب، يتوسل إليه فيه أن يقوم بتحسين أدائه، مما أثر عليه تأثيرًا عميقًا. وكان رئيس الدير قد كتب للسيد جيبنرات، فانزعج هذا الأخير انزعاجًا شديدًا. فكانت رسالته لهانز مجموعة من كل عبارات التشجيع والاستنكار التي يملكها ذلك الرجل المحترم، غير أن نبرة لا شعورية من التعاسة الشاكية كانت تسري فيها، وهذا ما تسبب في كآبة هانز.

كان هؤلاء القادة للشباب جميعًا من أول رئيس الدير حتى السيد جيبنرات، بما في ذلك الأساتذة الكبار والمساعدون الصغار -قد رأوا في هانز عقبة لرغائبهم، شيئًا كسولًا يبدي المقاومة ولا بد من إجباره على الرجوع إلى القطيع. وما كان هناك أحد- بالاستثناء الممكن لفيدريش المتعاطف -يستطيع أن ينفذ إلى ماهية الابتسامة اليائسة

المرتسمة على وجه الفتى الصغير- إلى الروح المائجة في داخله، التي تتعذب وتنتظر حواليه في فزع ويأس وهو ينحدر. كما لم يخطر على بال أحد أن المدرسة وطموحات الأب الذي لا يرحم وبعض المدرسين، قد أحالت هذا المخلوق الهش إلى مثل هذه الحالة. لماذا كان عليه أن يستذكر حتى ساعة متأخرة من الليل خلال أكثر أعوام عمره الحرجة وأشدها حساسية؟ لماذا انتزعوا منه أرانبه، وعزلوه عامدين متعمدين عن أصدقائه وعن المدرسة الثانوية، ومنعوه عن الذهاب إلى الصيد والتجول فيما حوله، مفضلين أن يغرسوا فيه ذلك المثل الأعلى الفارغ المبتذل لطموح تعس ينهش روحه نهشًا؟ لماذا -حتى بعد الامتحان- لم يسمحوا له بإجازاته التي يستحقها عن جدارة؟.

والآن ها هو ذا المهر الصغير يرقد على جانب الطريق بعد أن أرهقه العمل الشاق. ولم يعد أحد يرجو منه نفعًا.

وعند بداية الصيف شرح طبيب الدولة مرة أخرى بأن المسألة لا تعدو أن تكون حالة عصبية، ترجع في أساسها إلى النمو. وكان على هانز أن يرعى نفسه جيدًا في الإجازات، فيأكل مقادير كبيرة من الطعام، ويقضي وقتًا طويلًا في الغابات، وعندئذ سوف يتماثل للشفاء.

ولسوء الحظ لم يصل الحال إلى هذا المنوال. فقد بقيت أسابيع ثلاثة يقضيها في الدير قبل الإجازات، وفي هذه الأسابيع الثلاثة تلقى هانز تقريعًا قاسيًا من أحد الأساتذة الكبار في حصة من حصص بعد الظهر. وقبل أن ينتهي المدرس من توبيخه، كان هانز قد هبط في مقعده وشرع يرتعش دون قدرة منه على التحكم في نفسه، ولم يلبث أن انفجر

في نوبة بكاء طويلة استغرقت الحصة كلها. وأنفق بقية يومه في الفراش.

وفي اليوم التالي سئل في حصة الرياضيات أن يرسم شكلًا هندسيًّا على السبورة، وأن يمضي في البرهان شفويًّا. فوقف، ولكن عندما واجه السبورة هاجمه الدوار، فأخذ الطباشير والمسطرة ورسم خطوطًا لا معنى لها على السبورة، ثم أسقطهما، وعندما انحنى لالتقاطهما، ظل راكعًا، دون أن يقدر على النهوض على قدميه.

وأوهم طبيب الدولة على نحو ما أن مريضه يمكن أن يقوم بمثل هذه الاستعراضات. فجازف بإبداء رأي حذر، وهو أن يُعطى للمريض إجازة مرضية فورية، وأوصى باستدعاء أخصّائيّ في الأعصاب.

وهمس في أذن الرئيس: «إنه يقوم برقصة القديس فيتوس». فأومأ الرئيس برأسه ووجد من المجازفة أن يستبدل بالتعبير الفظ عن الغضب تعبيرًا بالتعاطف الأبوي لم يجد أي صعوبة في اصطناعه، وكان يناسبه تمامًا.

فصاغ هو والطبيب خطابًا إلى السيد جيبنرات، وضعاه في جيب الصبي وشحناه إلى بيته. واستحال غضب الرئيس إلى خوف عميق – ماذا يمكن أن تظن السلطات التعليمية– بعد أن أزعجتها قضية هايلنر –عن هذه الكارثة الجديدة؟ ولدهشة المدرسة العامة استغنى عن محاضرة مناسبة للموقف، وعامل هانز بوصفه أمرًا غير جدير بالاعتبار خلال الساعات الأخيرة، وكان من الجلي بالنسبة إليه أن الفتى لن يعود من إجازته المرضية– حتى في حالة شفائه. ولما كان قد أضاع وقتًا ثمينًا، فلن يستطيع أن يستدرك ما فاته من شهور، أو حتى من أسابيع.

وهكذا قام بتوديع الصبي وداعًا حارًّا شجاعًا، ولكنه ما من مرة دخل فيها فصل مجموعة «هيلاس» ورأى الأماكن الثلاثة الشاغرة، حتى أحس بالانزعاج، ووجد من الصعوبة بمكان أن يكبت هذه الفكرة وهي أن شطرًا من اللوم على اختفاء طالبين موهوبين يقع على عاتقه. ولكنه لما كان رجلًا جريئًا معافى، فقد نجح في طرد هذه الهواجس القاتمة العقيمة من ذهنه.

اختفى الدير بكنائسه، وبوابته، وجمالوناته، وأبراجه وراء الطالب الشاب عند رحيله حاملًا حقيبته الصغيرة، وتلاشت الغابة وصفوف التلال، ونهضت في مكانها كروم الغيضة الخصبة التي تغطي حدود مدينة «بادن» وأتت من بعدها مدينة «بفورتسهايم» ومن ورائها على الفور بدأت أشجار الصنوبر الزرقاء الضاربة إلى السواد المنتصبة في الغابة السوداء تقطعها وديان عديدة للنهر، فتبدو أشد زرقة وبرودة، وتعد بمزيد من الظلال في هجير الصيف الحار. وطفق الفتى يتأمل المشهد الطبيعي المتغير الذي يزداد ألفة بشعور لا يخلو من السرور، حتى إذا اقترب من مدينته، تذكر أباه، وهنا خامره شعور أليم بالقلق من الطريقة التي سوف يُستقبل بها بدد كل ما يمكن أن تحمله إليه رحلة العودة من سرور. وعادت إلى ذهنه ذكريات الرحلة إلى «شتوتجارت» من أجل الامتحان ووصوله الأول إلى «مولبرون» بمزيج من الفرح والقلق. ما جدوى ذلك كله؟ كان يعرف كما يعرف الرئيس أنه لن يعود أبدًا، وهذا معناه نهاية كلية التدريب، والدراسة، ونهاية كل أمل طموح. ومع ذلك فإن هذه الفكرة لم تحزنه، وإنما كان خوفه من أبيه

الذي خابت آماله نتيجة لخيانته يجثم ثقيلًا فوق قلبه. أما الآن فلم تكن لديه أي رغبة أخرى بعد كل التعذيب الذي عاناه سوى أن يستريح، وأن ينام نومة طويلة، وأن يبكي بكاء حارًّا، وأن يترك في سلام بين الأحلام التي يرتضيها قلبه. وكان يخشى ألا يستطيع أن يفعل ذلك في البيت مع وجود أبيه. وفي نهاية رحلة القطار داهمه صداع عنيف، ونهض لينظر من النافذة، رغم أنهم كانوا يجتازون الآن الجزء المفضل عنده من العالم والذي بين غاباته وتلاله طاف من قبل تحمله سعادة غامرة، وكادت تفوته المحطة التي ينبغي أن ينزل فيها.

ها هو يقف الآن هناك بمظلته وحقيبته، بينما كان أبوه يستعرضه. وكان تقرير الرئيس الأخير قد أحال خيبته واستنكاره لفشل ابنه إلى نوع من الجزع المذهل. تصور هانز في حالة من الانهيار. نحيلًا ضعيفًا، وحتى بعد أن رآه لم يكن يبدو عليلًا، فهو على كل حال ما زال يمشي على رجليه. جلب إليه هذا شيئًا من الراحة على كل حال. وأسوأ ما في الأمر كان خوفه الخفي من الانهيار العصبي الذي كتب له عنه الرئيس والطبيب. ما من عضو في العائلة أصيب بهذا الاختلال العصبي حتى الآن، وكانوا يتحدثون دائمًا عن مثل هذا المرض بتهكم يخلو من التعاطف، بنفس الطريقة التي يتحدثون بها عن المجانين، وها هو ابنه هانز يعود الآن إلى البيت وهو يعاني شيئًا من هذا القبيل.

وفي يومه الأول في البيت كان سعيدًا لأن أحدًا لم يوجه إليه أي ملام أو عتاب. ولكنه ما لبث أن أدرك التحفظ الخجول المرتبك الذي كان والده يعامله به، وكان يبذل في هذا مجهودًا جليًّا. وأدرك أيضًا في

بعض الأحيان أن أباه كان يتفحصه بنظرات غريبة فاحصة وشيء من الفضول، ويتحدث إليه بنبرة خفيضة غير طبيعية، ويراقبه بوهم أن ابنه لا يلاحظ ذلك. والنتيجة جعلته أخوف ما يكون عن ذي قبل، وبدأ خوف غامض يعذبه فيما يتعلق بحالته.

وعندما تحسن الجو، استلقى في الخارج في الغابة ساعات طوالًا، فشعر بتحسن. وكان صدى خافت من أفراح طفولته يملأ روحه المحطمة، وعادت إليه متعته وسروره بالأزهار والحشرات وملاحظة الطيور وتعقب الحيوانات. غير أن هذا لم يدم طويلًا. بل استولى عليه التكاسل معظم الوقت فوق الطحلب متألمًا من نوبات الصداع، وعبثًا حاول أن يفكر في شيء ما، وانتهت الغلبة لأحلام اليقظة التي نقلته إلى عوالم أخرى.

وذات يوم راوده الحلم التالي: رأى صديقه «هرمان هايلنر» يرقد ميتًا في نعش، وأراد أن يذهب إليه، غير أن رئيس الدير وهيئة التدريس منعوه، وأرجعوه بأن كالوا له الضربات كلما أقبل على صديقه. ولم يكن الحاضرون هم أساتذة كلية التدريب ومساعديهم الصغار فحسب، بل كان هناك أيضًا ناظره القديم وممتحنو شتوتجارت وقد علت وجوههم جميعًا تعبيرات ساخرة. وبغتة انتقل المشهد إلى مكان آخر، كان فيه «هيندو» الغارق مسجّى على النعش وإلى جواره وقف أبوه الفخم بقبعته العالية، وقد تقوست ساقاه وبدا عليه الحزن.

ثم زاره حلم آخر. كان يجري في الغابة باحثًا عن هايلنر الهارب وظل يراه وهو يختفي إلى بعيد بين جذوع الشجر كلما هم بأن يناديه.

وفي نهاية المطاف وقف هايلنر ساكنًا، وسمح له بأن يقترب منه وهو يقول: «قلت، إنه كانت لي حبيبة» ثم ضحك ضحكة مدوية وتلاشى تحت العشب.

ورأى في حلمه شخصًا نحيفًا وسيمًا له عينان هادئتان جميلتان ملائكيتان، وامتدت أيد لطيفة من الزورق، فجرى نحوه وفجأة توقف. وعصر هانز ذهنه عن معنى هذا كله حتى رجعت إليه تلك الفقرة الواردة في الكتاب المقدس: «ولما خرجوا من السفينة للوقت عرفوه» (مرقس ٦: ٥٤).

وأخذ يصرف الفعل «خرجوا» باليونانية في جميع أزمنته الحاضرة والمستقبلة، وكان عليه أن يقوم بتصريفه في المفرد والجمع، وأصابته الحمى والذعر إذ أصابته حبسة. ولما ثاب إلى رشده، بدا له رأسه وكأنه أصيب من داخله في جميع أنحائه، وعندما تشوه وجهه لا إراديًّا فارتسمت عليه تلك الابتسامة القديمة من الاستسلام والشعور بالذنب، خيل إليه أنه يسمع رئيس الدير وهو يقول: «ما هذه الابتسامة الغبية؟ أأنت في حاجة إلى مثل هذه الابتسامة؟!».

وقصارى القول، رغم بعض الأيام المتفرقة التي شعر فيها بالتحسن لم تتقدم حالة هانز بوجه عام، بل على العكس. وطبيب العائلة الذي أشرف على علاج والدته في الماضي ووقع على شهادة وفاتها، وكان يعالج أباه الذي كان يعاني من نوبات خفيفة من النقرس، هذا الطبيب اتخذ وجهًا جامدًا وأخذ يؤجل إبداء رأي في حالته يومًا بعد آخر.

وفي تلك الأسابيع فحسب، أيقن هانز أنه بغير أصدقاء منذ عاميه

الأخيرين في المدرسة الثانوية. إذ إن بعض أصدقاء تلك المرحلة غادروا المدينة، وبعضهم الآخر أخذوا يتدربون على صنعة، فلم تربطه بهم أي رابطة، ولم يشترك معهم في شيء. وفي مناسبتين وجه إليه الناظر بضع كلمات ودية قلائل، كما أن مدرس اللاتيني والقس أومأا إليه برأسيهما في مودة حين يلتقي بهما في الشارع، غير أن هانز لم يعد موضع اهتمامهما. وكف عن أن يكون الوعاء الذي يمكن أن يضعوا فيه كل شيء، أو حقلًا يمكن أن يبذروا فيه أصنافًا متنوعة من البذور، لم يعد من المجزي أن ينفقوا عليه وقتًا، أو يبذلوا من أجله جهدًا.

وربما كان من المساعد له لو أن القس أظهر شيئًا من الاهتمام البسيط بالصبي. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل؟ ماذا يستطيع أن يقدم المعرفة، أو الرغبة فيها على الأقل، إنه لم يمتنع عن الصبي عندما كان هذا مطلوبًا، بل فضلًا عن ذلك لم يكن هو الذي يستطيع أن يقدم شيئًا. لم يكن من القساوسة الذي يشك أحد في لغتهم اللاتينية، كما أن مواعظه لم تكن مأخوذة من مراجع معروفة، وإنما مواعظ يسعد المرء أن يرجع إليها في أوقات الشدة؛ لأن فيها لمحة من التعاطف وكلمة ودود لمتاعب كل إنسان. وكذلك لم يكن السيد جيبنرات صديقًا أو معزيًّا وإن حاول جاهدًا أن يخفي خيبة أمله المريرة في هانز.

وهكذا أحس الصبي بنفسه مهجورًا منبوذًا لا يحبه أحد، وجلس في الحديقة الصغيرة في الشمس، أو استلقى في الغابات، واستسلم تمامًا لأحلامه أو لأفكاره المعذبة. كان عاجزًا عن أن يجد ملاذًا في القراءة دون أن يستحضر الآلام إلى رأسه وعينيه لأنه ما إن يفتح كتابًا من كتبه

القديمة حتى ينهض حياله شبح أيامه في كلية التدريب وهمومه جميعها، فتأخذ في مطاردته بأحلام خلية مخيفة خالية من المرح، وتتفرس فيه بعيون محرقة.

وفي حالته الراهنة من القنوط والهجر، اقترب منه شبح آخر متنكرًا في ثوب معزٍّ خادع، وأصبح بالتدريج شيئًا مألوفًا لا غنى عنه –وكان هذا الشبح هو فكرة الموت. كان من السهل الحصول على سلاح ناري، أو تدبير عقدة منزلقة (للشنق) فوق شجرة في مكان ما من الغابة. صاحبته مثل هذه الأفكار يوميًّا في تجولاته، وجعل يفتش عن بقع هادئة موحشة، وأخيرًا وجد بقعة لذيذة يسره أن يموت فيه، واستقر عزمه على أن يجعل نهايته فيها. قام بزيارتها عدة مرات، واستمد متعة غريبة من فكرة أنهم سرعان ما يجدون جسمه مسجّى هناك وقد فارقته الحياة. اختار الفرع الذي سيعلق عليه الحبل، واختبر قوته وصلابته، ولم يعد هناك مزيد من الصعوبات تعترض طريقه. وشيئًا فشيئًا، كتب رسالة موجزة إلى والده، ورسالة مطولة جدًّا إلى هرمان هايلنر لاكتشافها فوق جثته.

هذه الاستعدادات والإحساس بالأمن الذي منحه قراره مارست تأثيرًا نافعًا على مزاجه. إذ أنفق ساعات جالسًا تحت الغصن الموعود، فارقه فيها شعور الاكتئاب، وحل محله شعور بالارتياح والرضا.

ولم يكن يدري حقًّا لماذا لم يشنق نفسه على هذا الفرع منذ أمد بعيد. لقد انعقد العزم، واتخذ قرار موته، فكان يشعر أحيانًا أنه على خير ما يرام، وفي الأيام الأخيرة لم يحتقر استمتاعه بالشمس الجميلة أو الانغماس في أحلام اليقظة بنفس الطريقة التي يشرع بها المرء في

القيام برحلة طويلة. يستطيع أن يبدأ الرحلة في أي يوم، كل شيء كان في مكانه، وكان هناك نوع خاص من السرور الحزين وهو يطوف برهة بالمنظر القديم المحيط به، وأن ينظر إلى وجوه الناس الذين ليست لديهم أي فكرة عن قراراته الخطيرة. وفي كل مرة كان يلتقي بالطبيب لم يتمالك نفسه من أن يقول: «والآن سوف ترى».

وسمح له القدر بأن يبتهج بنواياه المظلمة وراقبه وهو يستمتع بقطرات قلائل من المتعة والحماسة من كأس الموت. ولعل القدر يكون لا مباليًا حقًّا بضياع هذه الروح الشابة أو بقائها، ولكن لا بد من أن يسمح لها باكتمال دورتها، ولا ينبغي أن تترك الساحة حتى تتذوق شهد الحياة المر برهة أطول.

أصبحت الخيالات المطاردة المعذبة القديمة أقل تواترًا، وأفسحت مكانها للا مبالاة مكدودة، ولمزاح خالٍ من الألم والوجع راقب فيه هانز بشيء من الشرود الأيام والساعات تمضي في مسارها، وأخذ يرنو بهدوء إلى السماء الزرقاء، وبدا في أحيان أخرى وكأنه يتجول في نومه أو أنه يلوذ بأيام طفولته. وفي إحدى المناسبات كان جالسًا تحت شجرة الصنوبر في الحديقة وقت الغسق، وهو يدندن لا شعوريًّا بأغنية قديمة يتذكرها من أيام مدرسته الثانوية.

«وا اسفاه، ما أشد تعبي! وا أسفاه، ما أشد نصبي. محفظتي خالية من النقود، وأنا في هذا العالم وحيد».

أخذ يدندن بالكلمات متناغمة مع اللحن القديم دون أن يدرك أنه قد رددها الآن للمرة العشرين. ومهما يكن من أمر فقد كان أبوه واقفًا

بجوار النافذة، يصغي، وقد استبد به الخوف. هذه الأغنية التافهة الغبية التي تخلو من كل معنى كانت غير مفهومة تمامًا لطبيعته المفتقرة إلى الخيال، وبتنهيدة عزاها إلى تنعيم يائس في المخ. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، راقب الصبي بقلق متزايد. ولاحظ هانز ذلك. فانتابه الحزن، ولكنه ما برح عاجزًا عن أخذ الحبل واستخدامه فوق الفرع المتين الذي اختاره.

وفي هذه الأثناء حلت أيام الصيف الحارة، وانقضى عام بالفعل على الامتحانات العامة والإِجازات الصيفية التي أعقبتها. وكان هانز يتذكرها في كثير من الأحيان دون أن يشعر بعاطفة معينة، والواقع أن مشاعره قد خمدت على نحو ما. وكم كان يحب البدء في الصيد مرة أخرى، بيد أنه لم يجرؤ على الطلب من أبيه. وأحس بأنه يتعذب في كل مرة يقف إلى جوار الماء، وكثيرًا ما كان يحوم على الشاطئ حيث لا يراه أحد، وبعينين متلهفتين كان يتابع حركات الأسماك الداكنة الصامتة السابحة في الماء. وعند اقتراب المساء كان يمشي مسافة ما مصعدًا مع التيار إلى مكان السباحة، ولما كان يمر بالمنزل الصغير الذي يقطن فيه المفتش «جسلر» تصادف أن اكتشف أن «إما جسلر» التي افتتن بها منذ ثلاثة أعوام خلت، قد عادت الآن إلى البيت مرة أخرى. وكان ينظر إليها في تساؤل مرة أو مرتين، غير أنه رآها أقل جاذبية عن ذي قبل. كانت فتاة نحيلة ولكنها ممشوقة القوام، ولكنها بعد أن كبرت صارت حركاتها أثقل، وعقصت شعرها بالأسلوب الحديث البالغ مما ساعد على تغيير مظهرها تمامًا -كما لم تكن أثوابها الطويلة تلائمها، ومحاولاتها

للظهور بمظهر السيدة لم تكن موفقة بكل تأكيد. وبدت لهانز على أنها نكتة، ولكنه شعر في الوقت نفسه بشيء من الانقباض حين تذكر الوهج الغامض الغريب الذي كان يشع بالدفء في الأيام الخالية حين كانت عيناه تقع عليها. غير أن كل شيء كان مختلفًا في تلكم الأيام، وأبدع وأكثر مرحًا وروعة! أما تجربته الآن فقد أصبحت محصورة في اللاتيني، والتاريخ، واليونانية، والامتحانات، والدير، ونوبات الصداع. في الأيام الخوالي كانت هناك كتب الحكايات الخرافية، وقصص العصابات والطاحونة التي صنعها بيديه، وفي الأمسيات كان ينصت لحكايات ليز عن المغامرات في بوابة ناسكولد، في تلك الأيام كان ينظر أحيانًا إلى جاره العجوز «جروسيوهان» الذي أطلقوا عليه اسم جاريبالدي، بوصفه لصًّا قاتلًا، وتزوره الكوابيس عنه، وطوال العام كان يتطلع كل شهر إلى شيء جديد -الحصاد، جمع البرسيم، ثم بداية موسم صيد الأسماك، أو اصطياد جراد البحر، ونيران البطاطس، وبدء التذرية، وتتخلل كله أعياد وأيام احتفالية. كانت هناك طائفة من الأشياء التي تجذبه بسحرها الخفي -بيوت، طرقات ضيقة، مخازن التبن، النافورات، أسيجة الأشجار، مخلوقات بشرية، وحيوانات من كل نوع- كانت كلها إما مألوفة أو محبوبة، أو فاتنة على نحو غامض. وكان يساعد في التقاط حشيشة الدينار، ويستمع إلى الفلاحات وهن ينشدن، وقد استرعت انتباهه أبيات معينة في أغانيهن التي كانت هزلية في معظمها، ولكن بعضها الآخر كان زاخرًا بالعاطفة حتى لقد كان يشعر بغصة في حلقه حين يسمعها.

غير أن هذا كله قد ولى وانتهى إلى نهايته دون أن يلحظ ذلك، توقفت أولًا الأمسيات التي كان يقضيها في بيت ليز، ثم اصطياد السمك في صباح الآحاد، ثم قراءات الحكايات الخرافية، وهكذا شيء يتلوه آخر حتى التقاط حشيشة الدينار، والطاحونة القائمة في الحديقة. أين ذهبت كل تلك الأيام؟

وهكذا كان الطفل مبكر النضج يمر الآن بتجربة لطفولة جديدة لا واقعية في أيام مرضه تلك. وهذه الحالة المزاجية التي عادت به إلى الطفولة، تدفقت الآن بنوع من الانفجار المباغت للحنين إلى تلك الأيام الرائعة الشفقية، حيث أخذ يتجول مأخوذًا في غابة من الذكريات كانت قوتها ووضوحها راجعين إلى مرضه. عاش هذا كله بدفء وعاطفة ليس بأقل من الواقع الذي عاشه من قبل، وهكذا انبثقت طفولته المنتهكة التي غدر بها كما ينبثق ينبوع ماء احتبس طويلًا.

عندما تلقح شجرة، فإنها تخرج زرعًا جديدًا عند القاعدة، وكذلك تفعل الروح أيضًا التي حطمت في برعمها، فإنها تجد طريقها في العودة إلى الينبوع الأصلي لبداياتها وإلى طفولتها المبكرة، وكأنها تريد أن تكتشف هناك آمالًا جديدة، وأن تربط الخيوط المهشمة بعضها إلى بعض. وسرعان ما تنمو الجذور، حبلى بالعصارة، ولكنها لن تكون سوى محاكاة للحياة، ولن تصير أبدًا شجرة مكتملة الصحة.

كان هذا هو الحال بهانز جيبنرات، ومن ثم ينبغي أن نصحبه قليلًا مع أحلامه في أرض الطفولة.

يقع منزل جيبنرات على مقربة من الجسر الحجري القديم، ويؤلف

زاوية بين شارعين مختلفين كل الاختلاف -أحدهما وهو المفروض أن ينتمي إليه المنزل- هو أطولهما وأعرضهما وأفضل ما في المدينة ويسمى جربرتراس. أما الآخر فيتصاعد إلى التل تصاعدًا حادًّا، وهو قصير ضيق، موحش يسمى «تسوم فاكلن» على اسم نزل قديم اختفى منذ عهد بعيد ويحمل شارة الصقر.

وكان كل منزل في «الجربرتراس» يقطنه مواطنون طيبون عريقون، وهؤلاء يملكون بيوتهم، ولهم قبابهم العائلية الخاصة وحدائقهم التي تنهض وراء الشرفات والأسيجة التي أقيمت في الستينيات ويحدها رصيف المحطة وتكسوها بكثافة أشجار الوزال الصفراء. والمنافس الوحيد للجربرتراس من حيث المباني الفخمة هو ميدان السوق الذي تحيط به الكنيسة، وغرفة المستشارين، وقاعة المحكمة، ومجلس المدينة والأبرشية بالوقار الذي لا يشوبه شيء والذي يعطي انطباعًا بالكبرياء المدني. والواقع أن الجربرتراس لا يضم أي مبان رسمية، ولكنها كانت منازل قديمة تتخذها الطبقة المتوسطة الجديدة أمكنة لإقامتها بمداخل صغيرة بديعة ذات تأثير مبهر، بجمالوناتها الجذابة اللامعة، وهي تدين بمظهرها الودود المريح إلى أنها تتألف من صف واحد من المنازل، ذلك أنه على الجانب الآخر من الشارع، عند أقدام جدار تدعمه الركائز، كان النهر يجري.

وعلى حين كان «الجربرتراس» طويلًا، عريضًا، مضاء ورحبًا وأنيقًا، فقد كان «الفالكن» على العكس من ذلك تمامًا. فهنا تنهض منازل قذرة، متداعية مغطاة بالجير المتهدم، منازل بجمالونات معلقة،

وأبواب ومنازل تداعت في كثير من الأحيان، وتم إصلاحها، ومداخن ملتوية، وميازيب مكسورة. وكان كل منزل منها يسلب من الآخر الضوء والفراغ، والشارع ضيق معذب على نحو خرافي، وملفع بغسق أبدي يتحول إلى عتمة رطبة في الجو المطير أو حين تغيب الشمس. وهناك كميات كبيرة من الغسيل معلقة دائمًا على الأعمدة والحبال، ذلك أن الزقاق صغير وفقير ويضم عددًا كبيرًا من العائلات، دون أن تذكر السكان غير الدائمين، وهؤلاء الذين ينامون هناك لليلة واحدة. كان كل ركن في تلك المنازل المتداعية مكتظًّا بالسكان، عشًّا للفقر والرذيلة والمرض. وعندما انتشر التيفود كانت بدايته في هذا المكان، وكذلك إذا ارتكبت جريمة قتل أو سطو، كان «الفالكن» هو أول مكان يجري فيه البحث. وكان مدربو الصقور يقطنون هناك، بما في ذلك بائع مساحيق التنظيف الشهير «هوتيهوت» وشاحذ المقصات «آدم هيتل» وإلى هذا الأخير كانت تعزى كل ضروب الجرائم والرذائل.

خلال أعوامه المدرسية المبكرة، كان هانز زبونًا مواظبًا للفالكن. وفي صحبة ثلة من الصبيان المشبوهين من ذوي الثياب الرثة والشعور الشبيهة بالكتان –استمع إلى قصص الجريمة كما كانت ترويها «لوت فروهمولر» الشهيرة. كانت مطلقة صاحب حانة صغيرة، وقضت خمسة أعوام من حياتها في السجن. وكانت في صباها فتاة جميلة ذائعة الصيت، ولها عدد كبير من العشاق بين عمال المصانع اليدويين، وكانت سببًا لعدد أكبر من الفضائح والطعن بالمُدى. وهي تعيش الآن وحيدة وتنفق أمسياتها بعد أن تغلق المصانع أبوابها تغلي القهوة

وتحكي القصص. وفي مثل هذه الأوقات كان بابها مفتوحًا على مصراعيه، وبالإضافة إلى النسوة وصبيان العمال كان حشد من الجيران والأطفال يستمع إليها في رعب مفتون من عتبة الباب. وكان الماء يغلي في الغلاية فوق الموقد الحجري الأسود، وشمعة من الشحم تحترق بالقرب منها، وبالشعل الزرقاء الصادرة عن نار الفحم الصغيرة تضاء الحجرة المعتمة المزدحمة بألسنة سحرية تسقط ظلال المشاهدين على الجدران والسقف في أشكال ممسوخة، تضفي عليها حركات شبحية.

في هذا المكان تعرف الصبي ذو الأعوام الثمانية على الأخوين «فنكينباين» واحتفظ بصداقته لهما طوال سنة كاملة متحديًا تعليمات صارمة أصدرها أبوه. وكان أحدهما يُسمَّى «دولف» والآخر «إميل»، وللاثنين سمعة مريبة لا تدانيها سمعة أي من أشرار المدينة، واشتهرا بسرقة البساتين، وبعض الاعتداءات الصغرى في الغابات، وبوصفهما المسببين لمصائب لا تحصى من نوع أو آخر. وكانا يقومان أيضًا بتهريب بيض الطيور، والرصاص وصغار الغربان والزرازير، والأرانب الجبلية، وكانت حدائق المدينة جميعًا مأوى لهما، فما من سياج كان يستطيع أن يكون مانعًا كافيًا لهما، وما من جدار أيًّا كان سمكه ومقدار الزجاج المكسور الممتزج به يمكن أن يصدهما أو أن يجدا أي مشقة في تسلقه.

وفوق هذا كله، كان هناك «هرمان رختنهايل» الذي كان يعيش في «فالكن» وأصبح هانز صديقًا حميمًا له. كان بطلًا يتيمًا وعليلًا ناضجًا قبل الأوان، وخارقًا للمألوف. ولأن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى، كان

يتوكأ على عصا، ولا يستطيع أن يشارك في أي لعبة من لعب الشوارع. وكان نحيفًا شاحب الوجه نافذ النظرة وينتهي وجهه بذقن مدبب. كان موهوبًا بصورة استثنائية في أي شيء يتعلق بالمهارة اليدوية، ويهوى صيد السمك ومنه أخذ هانز العدوى. وفي ذلك الوقت لم يكن هانز يملك تصريحًا، غير أن هذا لم يمنعه من الصيد، وكانا يقومان بهذا من بقع خفية متعددة، إذ لما كانت الرياضة توصف بأنها متعة، فإن التخفي يتسم بإثارة خاصة يعرفها الجميع. وعلَّم هرمان الأظلع كيف يقطع بوص الصيد الجيد، وكيف ينتقي الطعم الجيد، وكيف يصبغ الخيوط، وكيف يلف العقد، ويشحذ الخطاطيف. كما علمه أيضًا كيف يدرس الطقس ويفحص المياه، وكيف يعكرها بالنخالة، ويختار الطعم الملائم ويعلقه التعليق الفعال. وعلمه أيضًا كيف يفرق بين الأنواع المختلفة من السمك، وكيف يراقب السمكة ويحتفظ بالعصا في العمق الصحيح. وكان مجرد وجوده وضربه المثل ينقل إلى صديقه صامتًا طريقة الإمساك والغريزة المرهفة التي تجعله يحس باللحظة التي توضع بها السنارة في الماء أو تخرج منها. وكان يزدري العصي الجميلة، وأدوات الطفو الأنيقة، وكل ما يصنع بتكلف وتصنع، وأقنع هانز بأن المرء لا يستطيع أن يصطاد بنجاح إلا إذا كان كل جزء من جهازه مصنوعًا صناعة يدوية في البيت وأن يقوم بتركيب كل شيء بنفسه.

وتسببت مشاجرة في أن يقطع الشقيقان «فينكنباين» علاقتهما بهانز أما رحيل «رختنهايل» عنه. فلم يكن نتيجة لاختلاف في الرأي، بل كل ما في الأمر أنه تمدد ذات يوم من الأيام في سريره الصغير المؤثر، ووضع

عكازه على ملابسه الموضوعية فوق مقعد، وانتابته الحمى، وسرعان ما قضى نحبه في هدوء، ونسيته «فالكن» على الفور، وكان هانز هو وحده الذي احتفظ منه بذكرى سعيدة.

غير أن هذا لم يؤثر أي تأثير على العدد غير العادي للمقيمين في «فالكن» كان كل شخص فيهم يعرف ساعي البريد «روتلر» الذي فصل بسبب سكره، والذي رقد من كثرة إفراطه في الشراب في الحانة كل أسبوعين أو كان يتورط في الفضائح ليلًا، ولكنه كان يتصرف بقية الوقت تصرف طفل مهذب، ويبتسم ابتسامة طيبة لكل إنسان، ولا ينفك يتحدث عن الصداقة. وكان يترك هانز يعبث بعلبة سعوطه البيضاوية، ويقبل منه السمك من حين إلى آخر، ثم يقليه في الزبد، ويدعو هانز إلى مشاركته في العشاء. وكان يحتفظ بصندوق على هيئة صقر له عينان من زجاج، وساعة قديمة تعزف ألحانًا راقصة عفى عليها الزمان في نغمات رقيقة رفيعة الصوت. ومن ذا الذي لا يعرف الميكانيكي العجوز «بورش» الذي يلبس الياقات المنشية حتى لو كان يمشي حافيًا في الشارع؟ ولما كان ابنًا لمدرس من مدرسة داخلية من الطراز القديم فقد كان يحفظ نصف الكتاب المقدس عن ظهر قلب، وكذلك يحفظ أمثالًا شعبية وحكمًا لا حصر لها، بيد أن هذا كله بالإضافة إلى شعره الأبيض بلون الثلج لم يمنعه من اعتراض طريق النسوة وإفراطه في الشراب في كثير من الأحيان. وكان عندما يسكر، يستمتع بجلوسه على حجر منصوب عند ناصية منزل جيبنرات، مناديًا على جميع المارة بأسمائهم ومستخدمًا لمدد لا ينفد من الحكم والأمثال.

«هانز جيبنرات» الصغير، يا ابني العزيز، استمع إلى ما أقول! ماذا يقول سفر الجامعة؟ مبارك ذلك الإنسان الذي لم يزل بفمه والذي لم يدينه ضميره، وكما يحدث للأوراق الخضراء فوق شجرة كثيفة، يسقط بعضها وينمو البعض الآخر، فكذلك للأجيال التي هي من لحم ودم يصل أحدهما إلى نهاية، ويولد آخر؟

طيب، والآن تستطيع أن تذهب إلى البيت، أيها الوغد الصغير.

رغم كل هذه الأقوال الورعة، كان «بورش» العجوز ممتلئًا بحكايات أسطورية مشؤومة عن الأشباح وما شاكلها. وكان يعلم الأماكن التي تزورها، وكان يتأرجح بين الشك واليقين في الحكايات التي يرويها. وكان يبدؤها عادة بنبرات مرتابة، مزهوة ومع ذلك تناقض نفسها، وكأنه يستهزئ بالقصة وبمستمعيه، ولكنه ما أن يستمر في الحكاية حتى ينحني تدريجيًّا بعصبية، ويخفض من صوته رويدًا رويدًا حتى ينتهي بنوع من الهمس الهادئ النفاذ غير المألوف.

أي أسرار مظلمة، محومة، غريبة تسكن ذلك الشارع الصغير التعس!

ففيه أيضًا، بعد أن انهارت أعماله فيه، وتحطم حانوته تمامًا، عاش الحداد «بريندل» كان يجلس نصف اليوم عند نافذته الصغيرة ينظر بتجهم إلى الشارع المزدحم، وأحيانًا عندما يقع بين يديه طفل شقي قذر من أطفال المنازل المجاورة، كان يقوم بتعذيبه في خبث، فيقرص أذنيه، ويشد شعره، ويتركه ملطخًا ببقع سوداء وزرقاء. ومهما يكن من أمر، فقد عثروا عليه ذات يوم مشنوقًا فوق بسطة السلم، وكان شكله

فظيعًا بحيث لم يجرؤ أحد على الاقتراب من جثته حتى قطع «بورش» الميكانيكي السلك بآلة حادة من الخلف فسقطت الجثة إلى الأمام بلسانها البارز، وتدحرجت على السلم وسط المشاهدين الذين استبد بهم الرعب.

وفي كل مرة يغادر فيها هانز «الجربرتراس» الرحب المشرق، متنقلًا إلى «الفالكن» المظلم الرطب، كان يغمره هواء غريب خانق، وشعور مثير بالانقباض، مزيج من الفضول والخوف وسوء الطوية، والتوقع اللذيذ. فقد كان «الفالكن» هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تقع فيه حكاية خرافية، معجزة، رعب مخيف، وحيث يمكن تصديق أي سحر، والاعتقاد في الأشباح، والشعور بنفس الرعشة المثيرة التي تشعر بها عند قراءتك للأساطير القديمة، والحكايات الشعبية المرعبة التي يرويها «رويتلينجر» تلك الحكايات التي صادرها المدرسون، والتي تعيد رواية الأفعال الشريرة والعقوبات التي وقعت على الأشرار من أمثال سوننفرتل، وشندرهانز، وبوستميشيل وجاك ريبرز، وأبطال أشقياء آخرون، من المجرمين، والمغامرين.

وبغض النظر عن «الفالكن» كان هناك مكان آخر يختلف عن أي مكان سواه، حيث يمكنك أن تسمع وأن تعاين أشياء، وتفقد نفسك في شرفات مظلمة وحجرات غريبة، هذا المكان هو المدبغة الضخمة القريبة، وهي تحتل دارًا هائلة حيث يختبئ الحيوان الضخم معلقًا في الشرفات التي تضيئها أضواء معتمة، وتحتوي على فجوات خفية وممرات ذات قضبان في القبو، وحيث كانت ليز تروي حكاياتها الرائعة

في المساء للأطفال جميعًا. وكان هذا المكان أهدأ وأكثر مودة وإنسانية من «الفالكن» ولكنه لا يقل عنه غموضًا واستسرارًا. وكانت الأنشطة التي يمارسها الصباغون في الحجرات المتعددة، وفي فناء القبو، وعلى أرض الحجرات.. كانت ساحرة غامضة، والحجرات الواسعة المتثائبة كانت هادئة مثلما كانت آسرة، وكان المعلم المتين البنيان الواثق من نفسه مرهوب الجانب كأنه الغول وكانت «ليز» تطوف بالمنزل العجيب كأنها حامية خرافية، وأم لجميع الأطفال، والطيور، والقطط، والعرائس، مفعمة بالحنان، والحكايات والأغاني القصصية.

كانت أفكار هانز وأحلامه تتحرك الآن في هذا العالم الذي كان غريبًا بالنسبة إليه فترة طويلة من الزمن، بحث عن ملاذ من خيبة أمله ويأسه في أيام الماضي الجميلة التي كان يعتز فيها بآمال، ورأى فيها العالم واقفًا أمامه مثل غابة سحرية رحبة تخفي مخاطر جهمة وكنوزًا تحمل لعنة، وحصونًا من الزمرد اللامع في أعماقها، التي لا سبيل إلى الوصول إليها. لقد شق طريقًا ضئيلًا في هذا التيه، ثم نال منه التعب قبل أن يحدث أي شيء معجز، وها هو يقف الآن مرة أخرى عند المدخل المستسر، ولكنه مطرود هذه المرة ولما يزل مفتونًا إليه بفضول كسول.

عاد هانز إلى زيارة «الفالكن» مرات قلائل. فوجد فيه القذارة المألوفة والرائحة الكريهة، والأركان القديمة، وبسطات السلالم المعتمة، وما برح رجال وخط الشيب رؤوسهم ونساء يجلسون أمام الأبواب، وأطفال شقر لم يغتسلوا يعدون هنا وهناك وهم يتصايحون أما «بورش» الميكانيكي فقد طعن في السن فلم يفلح في التعرف على

هانز، وبثغاء ينم عن الازدراء رد على تحيته الخجول. وجروسيوهان الشهير بجاريبالدي، وكذلك لوته فروهمولر، ماتوا جميعًا. أما «روتلر» ساعي البريد السابق، فما زال هناك. وكان يشكو من أن الأولاد كسروا ساعته الموسيقية، وقدم لهانز علبة سعوطه، ثم حاول أن يتسول منه نقودًا. وفي نهاية الأمر أنبأه بأن أحد الشقيقين فينكينباين يعمل الآن في شركة الدخان وأنه يعب الخمر مثل سمكة، أما الآخر فقد اختفى بعد معركة بالسكاكين في سوق لإِحدى الكنائس، وما زال مفقودًا منذ سنة. وكانت هذه الأنباء كلها سيئة ومقبضة لهانز.

وذات مساء ذهب إلى المدبغة، رأى نفسه مجذوبًا إليها، من خلال البوابة وعبر فناء المدبغة الرطب، وكأن طفولته ترقد هناك مختفية في الدار الكبيرة بكل أفراحها التي تلاشت.

صعد من السلم الحلزوني، وسار عبر القاعة حتى وصل إلى البسطة المعتمة، وتحسس طريقه خلال الشرفة حيث يختفي الحيوان، وعندما استنشق رائحة الجلد اللاذعة، هجمت عليه بغتة طائفة من الذكريات. هبط السلم مرة أخرى، وعاد إلى الفناء حيث توجد أوجار المدبغة وأركانها الضيقة الأسقف والأطر العالية لتجفيف القطع المدبوغة والمصبوغة. كانت «ليز» جالسة كما توقع على دكة مستندة إلى الجدار، وأمامها سلة من البطاطس تقوم بتقشيرها وعدد من الأطفال المتلهفين ينصتون إليها وهي تقص حكاياتها. وقف هانز عند مدخل الباب المظلم وأطل برأسه يختلس النظر. كان الوقت في الغسق، وفناء المدبغة يسبح في هدوء عظيم، فيما عدا خريرًا خافتًا ينبعث من النهر الذي يجري

وراء الجدار، كان ما تستطيع أن تسمعه هو صوت سكين ليز وهي تقشر البطاطس وصوتها وهي تحكي قصصها. وكان الأطفال قد تجمعوا حولها، وجلسوا بلا حراك تقريبًا. وكانت تروي أسطورة القديس «كريستوفر» وكيف سمع ذات ليلة صوت طفل يناديه عبر النهر.

أنصت هانز برهة، ثم سار عبر القاعة المعتمة عائدًا إلى بيته، عرف الآن أنه لا يمكن أن يعود طفلًا مرة أخرى، ويجلس عند قدمي ليز في فناء المدبغة، ومنذ ذلك الحين تجنب المرور على المدبغة، والذهاب إلى «الفالكن».

* * *

الفصل السادس

توغل الوقت في الخريف. ولمعت بالاصفرار والحمرة شجرات متفرقة صادقة العزم، كأنها شعل وسط غابات الصنوبر، وكانت الوديان قد امتلأت فعلًا بالضباب الكثيف، وتصاعد البخار من النهر في هواء الصباح البارد.

كان الطالب السابق الشاحب يتجول في الهواء الطلق كل يوم، متعبًا خاليًا من الفرح، متحاشيًا كل الفرص القلائل التي تعرض له للتبادل الاجتماعي. ووصف له الطبيب نقطًا، وزيت كبد الحوت، والبيض، وحمامات الماء البارد.

ولم يكن من الغريب أن ما من شيء في هذه الأمور جميعًا كان ذا عون له. فلكل حياة صحية، يجب أن يكون ثمة هدف ومضمون، أما جيبنرات الشاب فَقَدْ فَقَدَ كليهما. والآن صمم أبوه على أن يتركه ليصبح كاتبًا في محل تجاري أو أن يتعلم حرفة. بيد أن الصبي كان لا يزال ضعيفًا ويحتاج إلى استرداد صحته إلى درجة ما، وعندئذ يكونون قادرين على تقليب الأمر ومناقشته معه بجدية.

وكانت ردود فعله الأولى المختلطة قد هدأت، وكف عن التفكير في الانتحار، وترك حالاته المزاجية المتقطعة المثيرة من القلق لينتقل إلى حالة موحدة من الكآبة، غاص فيها رويدًا رويدًا -بلا مقاومة أو دفاع- إلى قاع ناعم موحل.

وها هو الآن يطوف بمروج الخريف، ويخضع لتأثير الموسم. انحلال السنة، والسقوط الصامت للأوراق، والحقول التي اصطبغت باللون الأصفر الضارب إلى السمرة، وضباب الصباح المبكر الكثيف، ونضج الخضراوات وموتها المكدود -كل هذا دفعه- شأنه في ذلك شأن المرضى من الناس -إلى حالات مزاجية ثقيلة، خالية من الأمل، وإلى أفكار تصطبغ بالحزن العميق. كان يشعر بالرغبة في أن يذوي معها، وأن يخلد إلى النوم، ويستسلم للفناء هو أيضًا، وكان شعوره بهذا أقوى من حيث إنه كان يسير في اتجاه مضاد لكل غرائز الصبا التي تتشبث بالحياة في عناد هادئ.

راقب الأشجار تتحول إلى الصفرة ثم اللون البني ثم تفقد أوراقها في نهاية الأمر، ورأى الضباب الأبيض بلون اللبن وهو يتصاعد كالدخان من الغابات، والحدائق التي تموت الحياة فيها بعد أن جمعت آخر ثمارها من الفاكهة، ولم يعد الناس ينظرون إلى زهور النجمة الذاوية - والنهر الذي انتهى فيه الاستحمام وصيد الأسماك والذي تغطت صفحته بالأوراق الذابلة، والممر المتجمد المهجور لم يعد مطروقًا فيما عدا عددًا قليلًا من رجال المصبغة الأشداء. وظل عدة أيام يجمع مقادير كبيرة من لب التفاح، إذ كانوا جميعًا مشغولين بعمل عصير التفاح في

العصارات، وجميع الطواحين، وفي المدينة اجتاحت رائحة العصير الجديد، المخدرة قليلًا- الشوارع جميعًا.

وفي الطاحونة السفي، كان فليج الإسكافي قد استأجر عصارة صغيرة ودعا هانز إلى حصاد التفاح.

وفي الميدان قبل الطاحونة قامت معاصر كبيرة وصغيرة، وعربات، وسلال، وأشولة مليئة بالفاكهة، وبراميل، وطشوت، وجبال كاملة من اللباب، والروافع، وعجلات اليد، ومركبات أخرى خاوية. وكانت المعاصر نشطة محدثة لسلسلة من القرقعات والأنات وأصوات الطحين. وكان اللون الأخضر هو اللون السائد وأحيانًا يمتزج بلون بني ضارب إلى الصفرة هو لون اللباب، هذا اللون ولون سلاسل التفاح، ولون النهر الأخضر اللامع، والأطفال الحفاة وأشعة شمس الخريف الصافية – كان كل هذا كله يعطي انطباعًا بالفرح، وبالحماسة للحياة والإقبال عليها، وشعورًا بالوفرة والرخاء لكل الناظرين. وكان صوت تهشيم التفاح صوتًا خشنًا فاتحًا للشهية. فما من عابر سبيل سمع هذا الصوت استطاع أن يقاوم رغبته في الإمساك بتفاحة وقضمها؟ كان العصير الطازج اللذيذ يتدفق من الخرطوم في جدول كثيف أصفر ضارب في الحمرة، ضاحكًا في الشمس، وكل من جاء ورأى هذا المنظر سرعان ما يطلب كوبًا لكي يختبر العينة، ثم يقف هناك وقد ابتلت عيناه وهو يشعر بالعذوبة والراحة وهما يسريان في عروقه. ملأ عصير التفاح اللذيذ الهواء من حوله بشذاه المرح القوي اللذيذ. إنه أجمل رائحة في السنة كلها، بل إنه جوهر النضج نفسه، ولب الحصاد، ومن المفيد أن

يملأ المرء به خياشيمه قبل قدوم الشتاء، إذ تتذكر حينئذ بامتنان طائفة من الأشياء البديعة الرائعة: مطر مايو اللطيف أشعة الشمس المترقرقة، ندى صباح الخريف البارد، أشعة شمس الربيع الحنون، حرارة الصيف الساطعة، توهج البراعم البيضاء والحمراء الوردية، ألق أشجار الفاكهة الناضجة البنية المشوبة بالحمرة قبل جمع الثمار، وبينها جميعًا الجمال والسرور اللذان تجلبهما معها دورة السنة.

كانت هذه أيامًا طيبة لكل الناس، وكان الأثرياء وعلية القوم، إذا تنازلوا وظهروا بأشخاصهم، يزنون التفاحات الكبيرة في أيديهم، ويعدون عشرات الجوالات أو أكثر، ويشربون عينات من عصير التفاح في كؤوس من الفضة، ويعلنون على الملأ أن عصيرهم من التفاح لا يحوي قطرة ماء. أما الفقراء فكان كل ما يستطيعون تقديمه جوالًا واحدًا من الفاكهة. ويضعون عينات العصير في أكواب أو في أوعية من الفخار مع إضافة الماء، غير أنهم لم يكونوا أقل زهوًا ومرحًا بما يفعلون. أما هؤلاء الذين لم يكن في إمكانهم إنتاج أي عصير بأنفسهم، فكانوا يذهبون إلى جيرانهم أو معارفهم، متنقلين من معصرة إلى أخرى، فكانوا يمنحون كوبًا لاحتسائه، أو يضعون في جيوبهم تفاحة، ويبدون الملاحظات التي تدل على جودة تذوقهم، وأنهم يفهمون دورهم في هذه العملية. والأطفال الكثيرون سواء من الأغنياء أو الفقراء يجرون هنا وهناك بكيزان صغيرة، يحمل كل منهم تفاحة قضمها في يد، وقطعة من الخبز في اليد الأخرى، فعلى قدر ما يستطيع المرء أن يتذكر، هناك مثل يقول –ولا أساس له من الصحة– إنك إذا أكلت خبزًا في موسم

حصاد التفاح، فإنك لا تصاب بالمغص أبدًا.

وكانت مئات من الأصوات تنادي في وقت واحد، وصادرة عن الصف الذي يؤلفه الأطفال. وكانت الأصوات جميعًا منفعلة ومرحة.

- «تعال هنا يا هانز! خذ هذا الكوب فحسب!».

- «إيه، شكرًا، ولكنك أصبت بالمغص فعلًا!».

- «كم تدفع في مقدار مائة وزنة؟».

- «أربعة شلنات. وهذا كثير».

وقد يقع حادث طفيف أحيانًا يسقط جوال من التفاح، فينفتح قبل أن يكون ذلك متوقعًا، فتتدحرج كلها على الأرض.

- «يا إلهي، تفاحاتي! ساعدوني جميعًا!».

فيتقدمون جميعًا للمساعدة ويلتقطونها من على الأرض، غير أن بعضهم يحتفظ بها لنفسه.

- «إيه، أيتها الدودة، لا تضع شيئًا في جيبك، كل بقدر ما تستطيع، ولكن لا تضع شيئًا في جيبك، انتظر أيها الوغد..».

- «أنت يا أيها الجار، لا تكن فخورًا على هذا النحو! مجرد عينة. إنها لذيذة كالعسل! كم عدد ما عصرت منها؟».

- «برميلين، لا أكثر.. ولكنها جميعًا جيدة».

- «من حسن الحظ أننا لا نقوم بالعصير في منتصف الصيف، وإلا لشربنا العصير كله فورًا!».

وكان هناك شيوخ قلائل من الفقراء يحرصون على ألا يفوتهم الاحتفال. لم يشتركوا في إنتاج العصير منذ زمن، ولكنهم يعرفون المزيد عنه، ويتحدثون عن الموعد الذي ينبغي أن تُجنى فيه الثمار. وكان كل شيء في زمانهم أرخص وأفضل، ولم يكن ثمة ما يدعو إلى إضافة السكر في تلك الأيام، فقد كانت الأشجار تحمل ثمارًا طيبة.

كانوا يستطيعون الحديث عن موسم الحصاد في أيامهم. «كانت عندي شجرة تفاح تعطي خمسمائة وزنة» ومع مجيء الأزمنة الرديئة الآن، لم يكن هؤلاء الشيوخ المتذمرون يبالون الآن بتقديم يد المساعدة وهؤلاء الذين ما برحوا يحتفظون بأي أسنان كانوا يقضمون التفاح، وقد بذل أحدهم كل ما في وسعه في أكل التفاحات الكبيرة وهو يعاني الآن من القولون. وكان يزمجر قائلًا: «هذا ما تقولونه ولكنني أكلت في الأيام الخالية عشر تفاحات مرة واحدة» وأطلق ثلاث تنهيدات وهو يفكر في الوقت الذي كان يستطيع فيه أن يأكل عشرًا من تلك التفاحات الكبيرة دون أن يصاب بأي مغص.

* * *

كان السيد فليج يملك معصرته القائمة وسط الحشد ويستعين بصبيان كبار. وكان يحصل على تفاحاته من حي «بادن» وعصيره أفضل عصير. وكان قنوعًا تمام القناعة ولا يقوم بأي محاولة لمنع الآخرين من الحصول على عينة. أما أطفاله الذين كانوا يحومون حوله في مرح وسط الحشد، فكانوا أكثر منه قناعة. غير أن أكثر الجميع قناعة، وإن لم يحاول إظهارها، كان صبيه. كان يشعر بالسرور في كل عظمة من

عظام جسمه على قدرته على العمل في الهواء الطلق، ذلك أن أصوله نشأت في كوخ فلاح فقير، غير أنه كان مبتهجًا بشعور الصحة والعافية الذي استمده من العذوبة الرائعة وعلى وجه ابنه الفلاح الصحيح البدن كانت ترتسم نظرة «ساتير»[1] من ساتيرات الأساطير اليونانية، وكانت يداه اللتان يمارس بهما مهنته كصبي إسكافي نظيفتين نظافة تفوق ما تكون عليه أيام الآحاد.

وعندما وصل هانز إلى الميدان، كان هادئًا وعصبيًّا، ولم يكن حريصًا على الحضور. غير أن كأسًا كبيرة قدمت إليه في أول معصرة مر بها. قدمتها إليه في واقع الأمر «ناسكولدليز» ذاق العينة، وبينما كان يتجرعها انسال عليه سيل من الذكريات المرحة من مواسم خريف سابقة يواكبها مذاق عصير التفاح اللذيذ، وحنين طاغ للمشاركة في هذا المرح مرة أخرى. وخاطبه معارف كثيرون، وقدموا له الأكواب، وما إن وصل إلى معصرة فليج حتى كان المرح السائد والشراب قد حولاه تمامًا. فقام بتحية الإسكافي باحترام، وأدلى بملاحظات تقليدية قلائل عن العصير. ورحب به فليج وهو يخفي دهشته.

ومرت نصف الساعة، حين وصلت فتاة ترتدي قميصًا أزرق، فابتسمت للإسكافي وصبيه وشرعت في مساعدتهما.

قال الإسكافي: «أجل، إنها ابنة أختي من هايلبرون. إنها تعودت على خريف من نوع آخر، فمنطقتها من مناطق صناعة النبيذ».

(١) الساتير: كائن خرافي في الأساطير اليونانية له وجه إنسان وجسم فرس.

كان عمرها في حوالي الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة مرحة مفعمة بالحيوية التي يتميز بها سكان الأراضي الواطئة، وكانت أقرب إلى القصر منها إلى الطول، ولكنها كانت ذات شخصية تنم عن السخاء، وتعتني بنفسها. عيناها الداكنتان الدافئتان وثغرها الشهي الذي يغري بالقبل، كل ما فيها كان مرحًا ذكيًّا في محياها المستدير. وكانت تبدو موفورة الصحة، وطبيعتها النشطة التي يتميز بها أهالي هالبرون الذين تنتمي إليهم، وإن لم تكن من أقارب الإسكافي الورع. كانت تنتمي تمامًا إلى هذا العالم، ولم تكن عيناها بحال من الأحوال عيني شخص تعود على قراءة الكتاب المقدس ليلًا، ومنتخبات «جوسنر».

وبغتة أحس «هانز» بالانقباض وود من صميم كيانه لو رحلت «إما» ولكنها مكثت هناك، وضحكت، وثرثرت، بجواب جاهز لكل نكتة، وازداد هانز ارتباكًا، وأخلد إلى الصمت. كان يبغض الخروج مع الفتيات اللواتي لا بد من مجارتهن، وكانت هذه الفتاة ممتلئة بالحيوية وثرثارة، ولا مبالية بحضوره وارتباكه، فاضطر إلى الانسحاب داخل نفسه كالسلحفاة التي احتلت بها عربة نقل. وقف ساكنًا بلا حراك، وحاول أن يتخذ تعبيرًا من عدم الاكتراث، ولكنه لم يفلح، بل بدا كشخص يعاني من محنة.

لم يكن لدى أحد وقت للاهتمام به، و«إما» أقلهم جميعًا في ذلك وكانت قد مكثت عند فليج في الأسبوعين الأخيرين كما سمع هانز، غير أنها عرفت فيهما بالفعل كل إنسان في المدينة. اختلطت بالطبقة العليا كما اختلطت بالسفلى على السواء، وتذوقت عينات عصير

التفاح، ضحكت، وتمازحت وعادت فسلكت بوصفها جزءًا من كل شيء، وأخذت الأطفال بين ذراعيها، ووزعت التفاح على الناس، وأشاعت الضحك والمرح حولها، وكانت تهتف بكل صبي: «أتريد تفاحة؟» ثم تتناول تفاحة جميلة موردة الخد، وتبسط يديها خلفها وتجعلهم يتكهنون «أي يد تحتوي على التفاحة، اليسرى أم اليمنى؟» غير أن التفاحة لن تكن أبدًا في المكان الذي يتنبأون به، فلا تسلمها لهم إلا بعد أن يزمجروا، فيتبينون جميعًا أنها تفاحة خضراء صغيرة. وكان يبدو عليها أنها تعرف كل شيء عن هانز، وتسأله إن كان هو الصبي الذي يعاني دائمًا من نوبات من الصداع، وقبل أن يتاح له الوقت للرد عليها، تكون قد افتتحت فعلًا محادثة أخرى مع أناس آخرين ممن حولها. وكان هانز ينوي التسلل إلى المنزل عندما وضع فليج رافعة المعصرة في يده.

– «حسن، تستطيع الآن أن تقوم بعمل بسيط، وسوف تساعدك إما. ولا بد أن أذهب الآن إلى المحل».

غادر فليج المكان بعد أن أعطى تعليماته لمساعده الصبي أن يساعد سيدته على حمل العصير فوق العربة، وترك هانز وحيدًا أمام المعصرة مع «إما» فأصر على أسنانه، وأقبل على العمل كالوحش.

وبدأ يتعجب من السبب الذي يجعل الرافعة ثقيلة في الدوران، وعندما رفع عينيه، أطلقت «إما» ضحكة كأنها جلجة الأجراس. ذلك أنها كانت قد استندت بكل ثقلها إليها، وعندما جذبها هانز مرة أخرى، ثائرًا، أعادت ما فعلته أول مرة.

لم يفه بكلمة واحدة، ولكن كلما اشتغل بالرافعة التي تقاومها الفتاة بجسدها من الناحية الأخرى، شعر فجأة بأنه مرتبك ومضطرب، فكف بالتدريج عن إدارتها. وطغى عليه شعور لذيذ بالاضطراب، وعندما ضحكت الفتاة بوقاحة في وجهه، بدت بغتة مختلفة تمام الاختلاف ولاحت له أكثر ودًّا وأشد غرابة في الوقت نفسه. فضحك قليلًا هو أيضًا، في ثقة ولكن في غير اطمئنان.

وعندئذ توقفت الرافعة عن العمل تمامًا.

فقالت «إما»: «علينا ألا نحمل عليها على هذا النحو» ثم ناولته كوبًا ممتلئًا إلى نصفه كانت هي نفسها تشرب منه.

يبدو أن جرعة عصير التفاح كانت أقوى من التي قبلها وأعذب، وعندما شربها حملق شاردًا في الكوب الفارغ، فأدهشته السرعة التي ينبض بها قلبه، وتنفسه الذي كان يتم في مشقة.

وبعد ذلك اشتغلا وقتًا قصيرًا، وكان هانز لا يكاد يعرف ما يصنعه حتى وجد نفسه يجاهد للوقوف في وضع يسمح لتنورة الفتاة أن تحتك به، وليدها أن تلمس يده، وفي كل مرة كان يحدث ذلك، كان قلبه يتوقف في ذعر من هذه النعمة، ويجتاحه شعور بضعف لذيذ، وترتعش ركبتاه قليلًا، ويندفع إلى رأسه دوار خفيف.

لم يكن يدري ما يقول، غير أن جوابه كان جاهزًا للرد على كل شيء يضحك عندما تضحك ويلوح بإصبعه في وجهها مرات قلائل حين تحاول أن تخدعه، ويشرب كوبين من العصير ناولتهما إياه. وفي

الوقت نفسه تواردت على ذهنه طائفة من الذكريات. خادمات رآهن واقفات مع رجال أثناء الليل على مداخل البيوت، مقتطفات قديمة من كتب القصص، القبلة التي منحها له هرمان هايلنر، ومجموعة أخرى من الأمثال والحكايات ومحادثات سرية استمع إليها في المدرسة عن «بغايا» وكيف يكون الحال عندما يرتبط المرء بحبيبة. وأطلق تنهدات عظيمة مثل شخص عجوز يصعد سفح جبل. تحول في نظره كل شيء. وذاب الناس والأنشطة من حوله في سحابة ملونة مجيدة من الرخاء والرفاهية وغرقت الأصوات المنعزلة، واللعنات، والضحكات في كآبة شاملة، وبدا النهر والجسر العتيق بعيدين وكأنهما قطعتان في مشهد مرسوم.

حتى «إما» بدت مختلفة، فلم يعد يرى وجهها، كل ما كان يراه هو عيناها الداكنتان المرحتان، وشفتاها القرمزيتان، وأسنانها البيضاء الحادة خلفهما، وأخذ شكلها يذوب بعيدًا –والشيء الوحيد الذي كان يراه هو شطر منعزل– فهو يرى الآن حذاء ورقعة من جوربها الأسود. وحينًا آخر يرى خصلة شعر على عنقها، وتارة أخرى جيدها المستدير الذي لوحته الشمس غائصًا في الوشاح الأزرق، أو كتفيها الملفوفتين، أو صدرها الخافق تحتهما، أو أذنًا حمراء شفيفة.

وبعد برهة تركت كوبًا يسقط في وعاء العصير الضخم، وانحنت لالتقاطه، وفيما كانت تفعل ذلك ضغطت بركبتها على جانب الوعاء وعلى معصمه. وانحنى هو أيضًا، ولكن في تمهل. فلامس وجهه شعرها، وكان يفوح من شعرها عطر خفيف، وفي وسطه خلف ظل

بعض الخصلات المحلولة تألق عنق دافئ بني اختفت في صدارها الأزرق الذي سمح ربطه المحكم في الجزء الأسفل منه –سمح للعين أن تتابعه إلى مسافة أبعد حتى الفتحة.

وعندما اتخذت وضعها المستقيم، وفي هذه العملية لمست ركبتها ذراعه، وشط شعرها خده، واحمرت وجنتاها من الانحناء، سرت رعشة في أطراف هانز. شحب وجهه وأحس برهة بضعف عميق في داخله، فكان عليه أن يتشبث بعصارة الضغط لمساندته وكان قلبه يخفق بشدة عنيفة، وتخدرت ذراعاه، وشعر بألم في كتفه.

منذ تلك اللحظة لم ينطق بكلمة أخرى، وجعل يتجنب نظرتها ولكنه كان يسدد عينيه عليها كلما استدارت وأعطته ظهرها، فتمتزج فيه مشاعر الذنب والإِثارة التي جدت عليه. وفي هذه اللحظة بدا وكأنما شيء يتكسر داخله، وانفتحت لروحه أرض جديدة، غريبة الإِغراء، ذات شواطئ بعيدة زرقاء. لم يكن يعرف، أو لم تكن لديه سوى فكرة غامضة عن هذا الاضطراب والتعذيب اللذيذ ما دلالتهما، كما لم يكن يستطيع أن يعرف أيهما أكبر في نفسه: الألم أو الفرح.

غير أن الفرح يعني انتصار حساسيته الشابة، والتحركات الأولى لقوة الحياة الممتلئة، وأما الألم فيعني أن السلام الهادئ الذي كانت تتمتع به حياته قد انهار، وأن روحه قد غادرت أرض الطفولة التي لا يعيد المرء اكتشافها أبدًا. زورقه الخفيف، بعد أول إفلات ضيق له من العاصفة، يواجه الآن القوة الكاملة لعواصف جديدة، ويقترب من شواطئ ضحلة وصخور تبعث على الدوار على شبابه –بكل ما لاقاه من

قبل من إرشاد- أن يجد طريقه إلى النجاة والخلاص.

ولحسن الحظ كان الصبي قد عاد هذه المرة، ويستطيع أن يخلصه من رافعة الضغط. غير أن هانز مكث هناك فترة أطول على أمل ملاطفة أو كلمة ودود من «إما» كانت تثرثر مرة أخرى عبر معاصر العصير الأخرى. فلما أحس بارتباكه أمام الصبي، فلم يلبث أن هرع إلى البيت دون أن يقول إلى اللقاء.

كل شيء أصابه التغير بصورة غريبة، رائعة، مثيرة. سمنت العصافير على لباب التفاح، وطارت في ضجة إلى عنان السماء التي لم تكن من قبل أبدًا تبدو على هذا العلو والجمال والزرقة البديعة. ولم يكن للنهر من قبل مثل هذا السطح الصافي الأزرق المائل إلى الخضرة، كما لم يكن للسد أبدًا مثل هذا الهدير من الزبد الأبيض المبهر. كان كل شيء يقف أمامه وكأنه سلسلة من اللوحات الزخرفية وراء زجاج صاف شفاف.

بدا كل شيء وكأنه ينتظر البدء في عيد عظيم، وحتى في صدره شعر بتدفق مخيف قابض، وإن يكن رائعًا -لعواطف جريئة جرأة غير مألوفة، وآمال نادرة ممتزجة بخوف مستريب من أن كل هذا ما هو إلا حلم لا يمكن أن يتحقق أبدًا. هذه العواطف المتضاربة تضخمت لتصبح مدًّا متحركًا قاتمًا، الشعور بأن شيئًا قويًّا، قوة طاغية لا بد له من الانفجار في داخله، وأن يشق طريقه في جو طلق، قد يكون ذلك نوبة بكاء، أو أغنية، أو عاصفة من الضحك. ولم يخف هذا الانفعال قليلًا إلا بعد وصوله إلى البيت، ذلك أن كل شيء في البيت كان كسابق عهده دائمًا.

سأله السيد جيبنرات: «من أين أتيت؟».

- «من بيت فليج قرب الطاحونة».

- «كم أنتج من عصير التفاح؟».

- «برميلين، على ما أظن».

وطلب من أبيه أن يسمح له بدعوة أطفال فليج إذا حضر فليج أثناء عيد عصير التفاح.

فغمغم والده قائلًا: «طبيعي، سأقوم بالإِعداد له في الأسبوع القادم. أحضرهم إلى هنا».

بقيت ساعة يستطيع فيها أن يذهب قبل أن يحين موعد العشاء. وخرج هانز إلى الحديقة. وبغض النظر عن شجرتين من أشجار التنوب، كانت الخضرة التي يمكن أن تقع عليها العين قليلة. فقطع غصنًا من شجرة بندق، ولوح به في الهواء، ثم أخذ يتحرك معه خلال أوراق الشجر الذابلة. كانت الشمس قد انحدرت خلف الجبل الذي انعكست خطوط معالمه السود على خلفية من سماء ضبابية زرقاء ضاربة إلى الخضرة التي تتميز بها ساعات المساء المتأخرة، كاشفة عن قمم أشجار الصنوبر وكانت هناك سحابة رمادية مستطيلة انتشر فيها لون بني مذهب -أخذت تسبح بسرعة مستريحة متمهلة خلال الهواء الذهبي الذي غمر الوادي وكأنها سفينة عائدة إلى الوطن.

طاف هانز بالحديقة على نحو غريب بالنسبة إليه أمام جمال الغروب الساحر الزاخر بالألوان. كان يتوقف من حين إلى آخر، ويغمض عينيه

ويحاول استحضار صورة «إما» واقفة قبالته عند عصارة التفاح. وعاد بذهنه كيف استدرجته للشرب من كوبها، وكيف انحنت فوق البرميل، والدم الذي تضرج في وجهها عندما اعتدلت في وقفتها. رأى شعرها، وقوامها في المئزر الأزرق المحكم، وصدرها ومؤخر عنقها الذي ظللته شعيراتها الفاحمة. وسرت رعشات لذيذة خلال جسده، ولكنه مع كل هذه المحاولة، لم يستطع أن يتذكر وجهها.

وعندما غربت الشمس، لم يلاحظ برودة الهواء، وبدا الغسق المكتسح أشبه بوشاح حافل بأسرار لا يستطيع تسميتها. ذلك أنه أدرك أنه وقع في غرام الفتاة القادمة من هايلبرون، ولكنه لم يتعرف على هذه التحركات للرجولة المستيقظة إلا بصورة غامضة كوضع غير مرغوب فيه، ومسرف في الإِثارة والإِرهاق.

كان من الغريب أثناء تناول العشاء أن يكون جالسًا في هذه الحالة من التحول الذي اعترت عقله -بين الأشياء القديمة المألوفة. أبوه، الخادمة العجوز، المائدة وأدواتها، بدا كل هذا بغتة قديمًا، وأخذ ينظر إلى كل شيء بشعور من الدهشة والغرابة والمودة، وكأنه عاد من فوره إلى البيت بعد رحلة طويلة. ففي تلك الأيام حين استقرت عيناه في ود على غصنه المختار، كان يرى هذه الكائنات والأشياء نفسها باكتئاب وبعاطفة متفكرة لشخص يستعد للرحيل، أما الآن فكانت إيابًا إلى البيت، دهشة، ابتسامة، ومحاولة إعادة تأهيل.

تناولوا عشاءهم، وكان هانز على وشك النهوض، حين قال أبوه على نحو مباغت: «ما رأيك في أن تكون ميكانيكيًّا يا هانز، أو أنك تؤثر

أن تكون كاتبًا في محل تجاري؟».

قال هانز مرتاعًا: «ولكن كيف؟».

- «يمكن أن تعمل صبيًّا للسيد شوللر الميكانيكي في نهاية الأسبوع، أو تبدأ في الأسبوع بعد التالي كتلميذ في قاعة المدينة. فكر في الأمر مليًّا، وسنناقش هذه المسألة بالتفصيل غدًا».

نهض هانز وغادر الحجرة. كان مندهشًا ومضطربًا بالمباغتة التي عرض بها الموضوع. ذلك أن الحياة اليومية الجديدة التي انشغل بها، والتي كانت غريبة عليه منذ شهور، قامت أمامه بغتة بلا توقع لتعرض عليه وجهًا جذابًا، ولكنه منذر في الوقت نفسه، حافلًا بالوعود والمطالب. ولم تكن به رغبة لأن يكون ميكانيكيًّا أو كاتبًا في محل. إذ كان يجد احتمال العمل الجسماني الشاق أمرًا مخيفًا. ثم لم يلبث أن تذكر زميل الدراسة «أوجست» الذي صار ميكانيكيًّا بالفعل، وهو الشخص الذي يستطيع أن يسأله عن هذا العمل.

وأخذ يقلب الأمر على وجوهه المختلفة، غير أن أفكاره عن الموضوع ازدادت قتامة وبعدًا عن اليقين، وبدت له المسألة أقل استعجالًا وأهمية. كان يفكر في شيء مختلف تمامًا. وهكذا أخذ يذرع القاعة جيئة وذهابًا، وهو في حالة من القلق والتردد، وفجأة تناول قبعته، وغادر المنزل، وسار متباطئًا في الشارع. لقد شعر بغتة أنه لا بد من أن يرى «إما» مرة أخرى هذا اليوم.

كان الليل يزداد إظلامًا بالفعل. وأخذت الصيحات والأغاني

الصاخبة تتردد صادرة عن الحانة المجاورة. وتلألأت الأنوار في عدد من النوافذ، ضوء من هنا، يتلوه ضوء من هناك يضفي وهجًا أحمر خافتًا في الظلام. صف طويل من الفتيات أمسكت كل منهن ذراع الأخرى، أخذن يتجولن في الشارع، ضاحكات، مثرثرات يتأرجحن في الضوء المتردد، ثم تدفقن من خلال الشارع الناعس مثل موجة دافئة من الشباب والسعادة. حملق هانز وراءهن برهة قصيرة، وأحس بالنبض في عروقه. وخلف نافذة أسدلت ستائرها كان المرء يستطيع أن يسمع صوت شخص يعزف على الكمان. وكانت هناك امرأة تغسل الخس عند الطلمبة. ورأى شابين يسيران على الجسر ومع كل منهما حبيبته. وترك أحدهما ذراع حبيبته وقد كان يمسك به في ارتخاء، وأخذ يدخن سيجارة. أما الآخران فقد سارا متمهلين، وقد ارتبطا ارتباطًا وثيقًا إذ كان الرجل يحيط بذراعه خصر فتاته، أما هي فكانت قد أسندت رأسها وكتفيها إلى صدره. وكان هانز قد رأى هذا النوع من الأشياء مئات المرات ولكنه لم يكن يعيرها التفاتًا، ولكنها اتخذت الآن معنًى خفيًّا، ودلالة حسية غامضة، ولكنها ساحرة. واستقرت عيناه على هذه المجموعة، وانشغل خياله بفهم هذا كله. وفي هذه الحالة من عدم الاستقرار والتأثر العميق في دخيلة نفسه، أحس بأنه قريب كل القرب من سر عظيم، دون أن يدري إن كان رائعًا أو بشعًا، غير أنه كان مجرد خائف أمام كلتا الإمكانيتين.

توقف أمام كوخ «فليج» غير أنه لم يكن قادرًا على استجماع الشجاعة الكافية للدخول. ما الذي سيقوله أو يفعله إذا رأى نفسه في الداخل؟ ولم يتمالك نفسه من أن يتذكر عدد المرات التي أتاها هنا

بوصفه صبيًّا في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة. في تلك الأيام قص عليه «فليج» قصصًا من الكتاب المقدس، وأشبع فضوله الجامح عن الجحيم والشيطان والأرواح. كانت هذه ذكريات غير مريحة، وأعطته شعورًا بالذنب. لم يكن يدري ما ينبغي أن يفعل. بل إنه حتى لم يكن يعرف ما يريد، ومع ذلك بدا له أنه يقف وجهًا لوجه إزاء شيء خفي محظور. وأحس بأنه يتصرف تصرفًا جائرًا حيال الإسكافي بوقوفه هذا في الظلام أمام هذا الباب دون أن يدخل. ولو أن الإسكافي رآه واقفًا هناك أو متخطيًا العتبة، فربما لم يطرده، ولكنه سوف يضحك فحسب، وهذا ما كان يخشاه أكثر من أي شيء آخر.

تسلل حول المنزل، واستطاع أن يرى الآن من خلال سور الحديقة حجرة المعيشة المضاءة. لم يكن يستطيع أن يرى فليج نفسه وكان يبدو أن زوجته تحيك أو تشتغل بالإِبرة، وكان ابنهما الأكبر ما زال مستيقظًا وجالسًا إلى المائدة يقرأ. أما «إما» فكانت تطوف حولهم، ومن الواضح أنها مشغولة بالتنظيف بحيث لم يستطيع إلا أن يسترق بضع لمحات منها. وكان المكان هادئًا بحيث يمكن أن تسمع بوضوح أي خطوة بعيدة في الشارع، ومن الجانب الآخر للحديقة، خرير النهر الهادئ. كانت الظلمة وبرودة الليل تهبطان سريعًا.

وكانت هناك نافذة أصغر بجوار نوافذ حجرة المعيشة، وبعد برهة ظهر شكل لم يستطع تمييزه في تلك النافذة الصغيرة، أطل منها، ونظر إلى الليل، تعرف «هانز» على هذا الشكل بأنه لـ «إما» وهنا توقف قلبه مفعمًا بأمل خائف. نظرت طويلًا وبهدوء من النافذة، ولكن هانز لم

يعرف إن كانت ستراه وتتعرف عليه. فلم يتحرك وهو ينظر نحوها. آملًا وخائفًا في الوقت نفسه ألا تتعرف عليه.

واختفى الشكل الغامض من النافذة، وبعد ذلك على الفور أعقب هذا قرقعة بوابة الحديقة الصغيرة، وخرجت «إما» من المنزل. وفي اضطرابه الأول، شعر هانز بدافع إلى الهرب، ولكنه مكث متكئًا على السور، عاجزًا عن الحركة، وأبصر الفتاة تسير ببطء نحوه في الحديقة المعتمة، وفي كل خطوة تخطوها، أحس بنفس تلك الرغبة للهرب، ولكن كان يمنعه شيء ما أقوى من نفسه.

وها هي إما تقف الآن أمامه بالضبط، ليست بعيدة بنصف ياردة، لا يفصل بينهما سوى سياج منخفض، وهي تنظر إليه بنظرة مستفسرة غريبة: «ماذا تريد؟».

– قال: «لا شيء» وكانت نبرتها الودية أشبه بالعناق.

بسطت إليه يدها فوق السياج. فأخذها في حياء وحنان وضغط عليها ضغطة لطيفة، ولما لاحظ أنها لم تسحبها، استجمع شجاعته وربت برقة على يدها الدافئة. وعندما تركته مستمرًّا في الإمساك بها، وضعها على خده، فتدفق سيل من الرغبة والدفء والاسترخاء اللذيذ في بدنه، وبدا يشعر بأن نسمة رطبة دافئة تحوم حوله، وذاب الشارع والحديقة، وأصبح كل ما يراه وجهًا مشرقًا قريبًا إلى جواره ووفرة من الشعر الفاحم.

ولاح له أن صوتها يصل إليه من بعيد في الليل، عندما قالت بلطف:

«ألا تريد أن تقبلني؟».

ووجهها المتوهج زاد منه اقترابًا، وضغط جسمها جعل السياج ينثني إلى الوراء قليلًا، وشعرها المسترسل المعطر بعطر خفيف مسح جبين هانز، وواجهته عيناها المغمضتان بجفنيها العريضين البيضاوين ورموشها الداكنة. وسرت رعدة في جسده وهو يلامس ثغر الفتاة بشفتيه الحييتين. أجفل إلى الوراء برهة مرتجفًا ولكنها أخذت رأسه بين راحتيها، وضغطت بوجهها على وجهه، دون أن تفارق شفتيه. أحس بثغرها محترقًا وهي تضغط به على فمه وكأنما تريد أن تستخلص الحياة منهما. وطغى عليه شعور بضعف شديد، ولكن قبل أن تتركه شفتاها، تحولت شهوته المرتعشة إلى تعب مميت، وعندما أطلقته «إما» ترنح وتشبث جاهدًا بالسياج بأصابع متشنجة.

قال إما: «عد إلى هنا غدًا، يا حبيبي» وانطلقت تجري بسرعة إلى داخل المنزل. غير أن الزمن الذي استغرقته بدا لهانز وكأنه الأبدية. تابعتها عيناه دون أن يرى شيئًا، وما زال متشبثًا بالسور، مكدودًا، مرهقًا لا يستطيع أن يبتعد خطوة واحدة. كان في شبه حلم يستطيع فيه أن يسمع الدماء وهي تتدفق إلى عارضيه، وتنساب إلى قلبه، عائدة في دفعات أليمة غير منتظمة بحيث جعلته يلهث.

* * *

رأى أن أبواب الحجرة مفتوحة، وإليها دخل فليج الذي يبدو أنه غادر ورشته من فوره. واستولى عليه خوف من أنه قد يراه أحد، فدفعه هذا إلى الابتعاد. سار متباطئًا، في إحجام وبلا انتظام كأنما سكر سكرًا

خفيفًا، وفي كل خطوة يخطوها كان يشعر بأن ركبتيه على وشك أن تخذلاه. وفي الشوارع المظلمة بجمالوناتها النائمة ونوافذها الحزينة الحمراء التي هي أشبه بفتحات لاستراق النظر -كانت تتابع أمامه مثل قطع زاوية من منظر مسرحي، تتلوها الجسور، والنهر، وأفنية المحاكم والحدائق. وكانت نافورة الجربرتراس تتساقط مياهها عالية الصوت ويتردد صداها على نحو غريب.. وهو نصف نائم فتح الباب الأول وأغلقه، ثم فتح بابًا آخر، وجلس على منضدة كانت هناك، ولم يستيقظ إلا ليكتشف أنه كان في حجرة المعيشة في بيته، ولم يفلح في خلع ملابسه إلا بعد فترة من الزمن. فعل ذلك بعقل شارد وجلس متجردًا من ثيابه إلى النافذة، حتى بعث هواء ليل الخريف رعدة في أوصاله دفعته راقدًا بين الوسائد.

ظن أنه سيخلد إلى النوم في أي لحظة، ولكنه ما كاد يستقر في فراشه حتى شرع قلبه في الخفقان، وشعر بالدم ينبض في عروقه. وعندما أغمض عينيه، أحس بأن شفتي إما ما زالتا عالقتين بشفتيه، وهي تسحب روحه وتملؤه بحرارة الحمى.

ولم ينم إلا في ساعة متأخرة من الليل، وهو يندفع مباشرة من حلم إلى آخر في مطاردة محمومة. ونهض وسط ظلمة عميقة بشكل مرعب، وتحسس حواليه، فأمسك بذراع «إما» فاحتضنته، وغرفا الاثنان معًا على مهل في مد عميق دافئ. وبغتة أبصر الإسكافي واقفًا أمامه يسأله لماذا لا يزوره، فلم يتمالك هانز نفسه من الضحك، ثم لاحظ أنه لم يكن فليج بحال من الأحوال، وإنما هرمان هايلنر الذي كان جالسًا إلى

جواره على إفريز النافذة في مصلى مولبرون، يلقى النكات. ولم يلبث هذا أن تلاشى أيضًا، فرأى نفسه واقفًا أمام عصارة التفاح، وكانت «إما» مستندة إلى الرافعة وهي تضغط بثقلها بكل ما في وسعها. كانت تنحني فوقها، باحثة عن شفتيه، وكان المكان ساكنًا مظلمًا، فأخذ يغوص عائدًا إلى تلك الأعماق الدافئة المعتمة وقد انتابه دوار فغاب عن وعيه. وفي الوقت نفسه كان يسمع رئيس الدير وهو يلقي خطبة، ولكنه لم يكن يدري أكانت موجهة إليه أم لا.

ونام حتى ساعة متأخرة من الصباح. وكان يومًا مشرقًا مشمسًا فأخذ يذرع الحديقة متباطئًا جيئة وذهابًا، محاولًا أن ينفض عنه الكرى، وأن يجعل تفكيره صافيًا، غير أنه لم يستطع أن يزيح عنه ضبابة النوم الثقيلة. كان يرى زهورًا بنفسجية، أجمل الزهور الأخيرة تنتصب في الحديقة، جميلة مرحة في ضوء الشمس، وكأنها ما زالت في أغسطس، كما رأى النور الدافئ الجذاب يحيط بالفروع والأغصان الذاوية، وبعض الشجيرات، التي لم تنم أوراقها بعد، تطل حفية وكأنها الفترة التي تسبق الربيع تمامًا. ولكنه كان يرى هذا كله بعينيه، لا بعقله، ومن ثم لم يكن له أي تأثير على مزاجه. وفجأة، وجد نفسه في قبضة ذكرى واضحة حية عن الوقت الذي تسللت فيه أرانبه هنا في الحديقة، وحيث كانت عجلته وطاحونته ما زالتا تعملان. ووثبت به ذاكرته إلى صباح يوم من أيام سبتمبر منذ ثلاث سنوات خلت. وكان المساء السابق على عيد ميلاد «سيدان». وجاء إليه صديقه «أوجست» يحمل باقة من زهور اللبلاب، ثم قام الاثنان بغسيل أعمدة العلم حتى صارت لامعة، وقامًا بتثبيت

زهور اللبلاب إلى المسامير الذهبية الضخمة، وهما يتحدثان عن اليوم التالي ويتطلعان إليه. لم يحدث شيء آخر، غير أن كلا منهما كان ممتلئًا بالتوقع السعيد ليوم الاحتفال، والرايات تتألق في الشمس، وكانت «آنا» قد خبزت أقراص البرقوق، وفي الليل كان لا بد من إضاءة شعلة سيدان على حافة الجبل العالية.

ولم يعرف هانز لماذا عاد ذهنه في هذا اليوم بالذات إلى تلك الأمسية، ولماذا كان تذكرها بهذا الوضوح والجاذبية، كما لم يعرف لماذا جعله هذا التذكر حزينًا تعسًا كل هذا الحزن وهذه التعاسة. إنه لم يدرك أن طفولته وصباه يقفان أمامه سعيدين مبتسمين، متلفعين بهذه الذكرى، وعلى استعداد لتوديع وترك لدغة السعادة العظمى التي كانت والتي لن تعود أبدًا. كل ما أحس به إحساس غامض هو أن هذه الذكرى لا تلائم أفكاره عن «إما» والأمسية السابقة، وأن شيئًا قد انبثق فيه لا سبيل إلى ربطه بتلك السعادة السابقة التي شعر بها. كان يعتقد أنه يستطيع أن يرى المسامير الذهبية الضخمة لامعة، وأن يستمع إلى ضحكة صديقه أوجست، وأن يستنشق رائحة الأقراص المخبوزة حديثًا، وكان كل هذا مرحًا وسعيدًا، فأضحى غريبًا وبعيدًا بحيث استند إلى جذع شجرة الصنوبر الضخمة الحمراء، وانخرط في نوبة من النحيب زودته بشيء من الراحة والعزاء المؤقتين.

وفي منتصف النهار، هرع إلى «أوجست» الذي أصبح الآن الصبي الأكبر، والذي فاقه من حيث النمو الجسماني والخبرة. وعنده أفضى هانز إليه بكل ما تختلج به نفسه.

وعلق أوجست قائلًا: «هذه هي المسألة بالضبط، هذه هي المسألة بالضبط. لمجرد أنك ضعيف في الرياضيات. إنهم يقومون بتعليمك كيف تستخدم المطرقة في السنة الأولى، وليست المطرقة مغرفة حساء، وعليك أن تسحب الأدوات لتضعها في أماكنها وأن تنظف المكان في المساء، وهذا كله عمل فني، أن تضع كل شيء في موضعه..».

وشعر هانز بالانقباض. فقال في تردد:

- «طيب. خير لي أن أتركها وحدها، أليس كذلك؟».

- «صه! لا تقل هذا! ولا تكن خرعًا! كل ما في الأمر أنه عمل صعب في بدايته، ولكن هناك شيئًا عظيمًا في أن يكون المرء ميكانيكيًّا، ولا بد أن يكون لك رأس جيد، وإلا انتهى بك الأمر إلى أن تصير حدادًا ألق نظرة على هذه!».

وقدم له أجزاء قليلة لآلة دقيقة مصنوعة من الصلب اللامع، وطفق يفرجها لهانز.

- «لا بد أن تكون مضبوطة تمامًا بحيث لا تزيد أو تنقص نصف ملليمتر. وهذا كله مصنوع باليد حتى الصواميل. وعليك أن تكون لك عيون حادة لتصنع ذلك. ولا بد من تلميعها وتنعيمها، ثم تكون جاهزة بعد ذلك».

- «أجل، هذا شيء بديع: آه لو كنت أعرف...».

وضحك أوجست.

- «أأنت عصبي؟ أجل، المبتدئ يقال له كل هذا، غير أن هذا لا

يساعده في شيء. بيد أنني سأكون هناك لأقدم لك يد العون. وإذا بدأت يوم الجمعة القادم، سأكون قد أكملت عامي الثاني حينذاك، وسوف أتقاضي أجري الأسبوعي الأول يوم السبت، وعندئذ سأحتفل بذلك يوم الأحد باحتساء البيرة والكعك، وسيكون الصبيان جميعًا حاضرين وسترى أي ضجة سنحدثها. آه، إنك تبدو الآن مهتمًا! لقد كنا -قبل كل شيء- صديقين وفيين في الأيام القديمة».

وأثناء العشاء أخبر هانز والده بأنه يريد أن يكون ميكانيكيًّا، وتساءل إن كان يستطيع أن يبدأ العمل خلال أسبوع.

قال أبوه: «أنت على صواب» واصطحبه إلى ورشة شولر بعد الظهر ووقع عقد العمل.

وكان وقت الغسق قد حان، ونسي هانز -على كل حال- كل ما يتعلق بهذا الموضوع، وكان كل ما يتذكره هو أن «إما» تنتظره هذا المساء. كان يتنفس بصعوبة، أما الزمن فهو يسرع تارة ويتلكأ تارة أخرى، واقترب من الموعد مثل مراكبي يستعد لاجتياز الشلالات. ولم يستطع أن يتناول عشاءه تلك الليلة، بيد أنه تمكن من أن يبتلع كوبًا من اللبن، على كل حال. ثم شرع في الخروج.

كان الجو في الخارج كما كان بالأمس -الشوارع المعتمة النائمة النوافذ المتألقة، مصباح الشارع الغائم، أزواج الشباب الجائلة.

وما إن بلغ سور حديقة الإسكافي حتى استولى عليه ذعر هائل، كان يرتجف عند سماعه أي شخص، ويشعر كأنه لص يحوم في الظلمة.

ولم تنقض دقيقة واحدة حتى كانت «إما» تقف أمامه، وتعبث بأناملها في شعره، ثم تفتح بوابة الحديقة. فدخل في حذر، فسحبته بلطف في الممر المحفوف بالشجيرات القصيرة وقادته من خلال الباب الخلفي إلى الممر المعتم في الداخل.

وهناك جلسا جنبًا إلى جنب على عتبة القبو الأعلى، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى اعتادت عيونهما اعتيادًا كافيًا على الظلام لكي يرى كل منهما الآخر. كانت «إما» في حالة مزاجية رائقة، وكانت تتحدث إليه همسًا. كانت قد تذوقت كثيرًا من القبل في الماضي، وتعرف كل شيء عن مطارحة الغرام، وهذا الفتى الحيي العاطفي يلائمها كل الملاءمة. أخذت وجهه المشحوب بين يديها، ولثمت جبينه ثم عينيه ووجنتيه، وعندما جاء دور الشفتين، قبلته نفس تلك القبلة المتشبثة التي قبلتها له في المرة السابقة، واستولى الدوار على هانز واستند إليها رخوًا مترددًا. فأطلقت ضحكة ناعمة، وقرصت أذنه.

ثم أخذت تثرثر مرة أخرى وهو ينصت إليها، ولكن دون أي فكرة عما تتحدث عنه. وأخذت تربت على ذراعه وشعره وعنقه ويده، وضغطت خدها على خده، وأسندت رأسها إلى كتفيه. أخلد إلى الصمت وظل سلبيًّا ممتلئًا بنوع من الرعب اللذيذ، والاضطراب السعيد، وتصيبه رجفة من حين إلى آخر كأنه شخص أصيب بالحمى.

ضحكت: «يا لك من عاشق! يبدو أنك تخشى من نفسك».

وتناولت يده ومررتها على عنقها من خلال شعرها وأرقدتها على صدرها وضغطت بها هناك. كان يستطيع أن يشعر بجسدها اللدن،

وارتفاع صدرها وهبوطه، تلك الحركة الغريبة الرائعة، فأغمض عينيه وبدا كأنه يغوص في أعماق لا قاع لها. قال: «كلا، لا أكثر من ذلك!»، ودفعها عنه حين حاولت تقبيله مرة أخرى. وضحكت.

سحبته إلى جوارها وهي تضغط بجنبها على جنبه وقد أحاطته بذراعها، فلما شعر بجسدها ملتصقًا بجسده، طار صوابه، واحتبس الكلام في حلقه.

سألته: «أتحبني إذن؟».

حاول أن يقول «نعم» ولكن كان كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يومئ برأسه، وظل يأتي بهذه الحركة زمنًا ما.

أخذت يده مرة أخرى ودفعت بها ضاحكة تحت مئزرها. توقف قلبه وشعر بنبض عروقها وبنفسها الدافئ قريبًا منه، وظن أنه يختنق، ووجد مشقة شديدة في التنفس. فسحب يده متأوهًا.

- «يجب أن أرحل إلى المنزل الآن».

وعندما حاول أن ينهض، أخذ يترنح وكاد يسقط على عقبيه هابطًا على سلالم القبو.

سألته إما منذهلة: «ماذا بك؟».

- «لست أدرى. أشعر بتعب شديد».

ولم يلاحظ أنها ساندته في طريق عودتهما إلى بوابة الحديقة، وأنها كانت تضغط بجسدها عليه، كما لم يسمعها وهي تقول له: «طاب مساؤك» أو وهي تغلق البوابة الصغيرة خلفه. ولم يدر كيف وجد طريقه

خلال الشوارع -كان الأمر أشبه بعاصفة قوية اجتاحته، أو موجة من أمواج المد تتلاعب به جيئة وذهابًا.

أبصر الوهج الخافت الصادر عن المنازل يمينًا وشمالًا، وسفوح الجبل وقمم جبال الصنوبر من عل. وفوق هذا كله كان يسود سواد الليل والنجوم الوديعة. أحس بالريح تهب، وسمع خرير النهر وهو ينساب عبر أعمدة الجسر، ورأى الحدائق، والمنازل ذات الظلال، والليل المظلم، وأضواء الشارع، والنجوم وهي تنعكس على صفحة الماء.

ألفى نفسه مجبرًا على الجلوس على الجسر، كان في أشد حالات التعب، وشعر بأنه لن يبلغ المنزل أبدًا. وفيما هو جالس على حاجز الجسر، أنصت للمياه وهي تنزلق على الدعائم، هادرة فوق السد، مغرغرة عند سد الطاحونة. كانت يداه باردتين، وكان الدم يسيل عنيفًا في صدره وحلقه، وقد وضع غشاوة أمام عينيه، وتدافع عائدًا إلى قلبه ورأسه في تدفق مباغت أصابه بالدوار.

وصل إلى المنزل، ووجد طريقه إلى حجرته، ورقد على سريره ونام على الفور، غائصًا في أحلامه من عمق إلى آخر في الفضاء اللا نهائي. واستيقظ مرهقًا يتعذب، ورقد بين النوم واليقظة حتى الصباح، مفعمًا بحنين لا سبيل إلى إطفائه، وهو يتقلب على هذا الجنب وذاك تدفعه قوى لا سبيل إلى التحكم فيها، وعند الفجر تحرر من عذابه وضيقه في نوبة طويلة من البكاء حتى نام ثانية فوق وسائد بللتها الدموع.

الفصل السابع

اشتغل السيد جيبنرات أمام معصرة التفاح في وقار وبقدر كبير من الضجة، وكان هانز قائمًا يساعده. وكان اثنان من أبناء الإسكافي قد قبلا دعوته، وشغلا نفسيهما بالفاكهة، وأخذا عينة من العصير، وأمسكا بأرغفة ضخمة من الخبز الأسود. غير أن «إما» لم تصحبهما.

ولم يجرؤ هانز على السؤال عنها إلا بعد أن غاب أبوه نصف ساعة مع صانع البراميل.

- «أين إما؟ أتراها لن تأتي؟».

وبعد برهة أجاب الولدان بعد أن خلت أفواههما من الخبز. فقالا: «لقد رحلت»، وأطرقا برأسيهما.

- «رحلت، إلى أين؟».

- «إلى بيتها».

- «رحلت بالقطار؟».

فأومأ الولدان بقوة.

- «متى؟».

- «هذا الصباح».

وخرج الصبيان لإِحضار التفاح. وسار هانز برافع المعصرة، وحملق في برميل العصير. وببطء هبطت عليه الحقيقة.

وعاد أبوه، واستأنفوا العمل ضاحكين مازحين، وقال الصبيان إلى اللقاء، ورحلا إلى بيتهما. وهبط المساء وعاد الجميع إلى بيوتهم.

وبعد العشاء، جلس هانز على انفراد في حجرته. ودقت الساعة العاشرة، ثم الحادية عشرة، لكنه لم يضئ المصباح، وما لبث أن أخلد إلى نوم طويل عميق.

وعندما استيقظ أخيرًا، كان الوقت متأخرًا على غير المعتاد، ولم يكن واعيًا إلا بشعور غامض بالفقد والكارثة، حتى تذكر مسألة «إما» لقد رحلت حتى دون أن تودعه، ومع ذلك لا بد أنها كانت تعرف متى تنوي الرحيل عن المكان في الأمسية الأخيرة التي قضتها في المنزل. وفكر في ضحكتها، وفي القُبل، واستسلامها المتعمد في ذلك الوقت. إنها لم تأخذه بجدية. وعدم الاستقرار هذا الذي تسببت فيه عاطفته المثارة غير الراضية وحزنه المرير أصبح جزءًا من العذاب الحزين الذي دفعه إلى الخروج من المنزل ليتجول في الحديقة والشارع والغابات، ثم يعود إلى البيت مرة أخرى.

كانت هذه هي تجربته الأولى -التي ربما كانت مبكرة جدًّا- عن

أسرار الحب، وها هي تحمل في ثناياها من المرارة أكثر مما تحمل من العذوبة. أيام من الشكوى العقيمة، ذكريات أليمة. تفتيش يائس في القلب، ليال كان فيها قلبه الخافق وشعور بالضيق في صدره يمنعانه من النوم، أو يغوصان به في كوابيس مروعة.. كوابيس كانت تتحول فيها ثورة دمه المستسرة إلى تهاويل بشعة مرعبة لحكاية خرافية، أذرع ميتة تحتضنه، عيون ساخنة، مسوخ بشعة، شلالات تبعث الدوار، عيون عملاقة يتطاير منها الشرر. فكان يستيقظ فيجد نفسه وحيدًا، محوطًا بليل الخريف البارد الموحش، كان يشتاق إلى حبيبته، فيدفن رأسه متأوهًا في الوسائد الملطخة بالدموع.

وكان يوم الجمعة المقرر لبدء عمله كصبي في محل الميكانيكي يقترب حثيثًا. وقد ابتاع له والده مجموعة تتألف من عفريتة زرقاء وغطاء أزرق للرأس نصفه صوف، فحاول أن يجربهما. وأحس أنه يبدو فيهما غبيًّا، وشعر بالتعاسة عندما سار أمام مبنى المدرسة أو بيت الناظر، أو بيت مدرس الرياضيات، وورشة فليج أو الأبرشية الصغيرة. عذاب كثير، وعمل شاق وعرق، مباهج صغيرة كثيرة تخلى عنها، أنواع من الزهو والطموحات والأحلام المزدانة بالآمال ضحى بها، كل شيء كان عبثًا، لأنه الآن، وبعد وقت متأخر عن بقية رفاقه في المدرسة الذين يسخرون منه –يستطيع أن يدخل الورشة ليعمل صبيًّا.

ماذا يمكن أن يقول هايلنر عن هذا؟.

مر وقت ليس بالقصير قبل أن يصالح نفسه مع العفريتة الزرقاء التي يلبسها الحدَّاد، وتطلع إلى يوم الجمعة الذي سيبدأ فيه العمل. مهما

يكن من أمر، فهي تجربة جديدة!.

مثل هذه الخواطر لم تكن أكثر من ومضات بين سحب داكنة. لم يكن يستطيع أن ينسى رحيل «إما» كما أن جسده لم يكن لينسى، أو يصبح غير مكترث بحال من الأحوال بالابتهاج الذي انطوت عليه تلك الأيام. وكان هذا الجسد يتشوق يائسًا إلى المزيد، ويطالب بإطلاق تلك الشهوة المستيقظة. وهكذا أخذ الزمان يزحف متلكئًا على هذا النحو المعذب المقبض.

كان الخريف أجمل من أي وقت مضى، مفعمًا بأشعة شمس ناعمة، وصباحات فضية، وأوقات ظهر مشرقة باسمة، وأمسيات صافية. واتخذت الجبال البعيدة ثوبًا أزرق مائلًا إلى المخملية العميقة، ولمعت أشجار البندق بلون ذهبي ضارب إلى الصفرة، وتعلق اللبلاب البري أرجوانيًّا فوق الجدران والأسوار.

لم يكن هانز مرتاحًا مع نفسه في هذا الهرب من الواقع. ففي أثناء النهار كان يتجول حول المدينة وفي الحقول، متحاشيًا الناس، وهو يفكر في أنهم سوف يلحظون عذابه. وفي المساء، كان يذهب على كل حال إلى الشارع ينظر إلى كل خادمة، ويتسلل مع شعوره بالذنب وراء كل زوج من العشاق. مع «إما» كان كل شيء جديرًا بأن يشقى الإِنسان في السعي إليه، وكان ما هو ساحر في الحياة في متناول يده، والآن تلاشى كل شيء بعيدًا عن نحو يثير الغيظ. لقد نسي كل العذاب والاضطراب اللذين كان يشعر بهما في حضورها. آه لو استطاع أن يعيدها إليه مرة أخرى، فلن يعرف الحياء، سوف يستخرج منها كل الأسرار، وسينفذ

مباشرة إلى بستان الحب الساحر الذي أغلق بابه في وجهه. وأصبح خياله كله مشتبكًا في الدغل الخانق الخطر، وها هو ذا يتجول الآن قانطًا وسط هذا كله، وفي عذابه الذاتي العنيد، يرفض أن يعترف بأن الأماكن الجميلة الرحبة الطليقة الهواء يمكن أن توجد خارج الدائرة السحرية الضيقة.

وفي النهاية، سره أن يأتي يوم الجمعة الذي انتظره فيما سبق بشيء من الخوف. فارتدى العفريتة الزرقاء، ووضع قلنسوته، ونزل إلى الجربرتراس بشيء من العصبية متجهًا إلى ورشة شولر. نظر إليه بعض المعارف متسائلين، وسأله أحدهم: «ماذا يحدث، هل أصبحت حدَّادًا؟».

كانوا منهمكين في العمل في ركن الحدادة، وكان المعلم يضع قطعة من الحديد الأحمر المتوهج على السندان في هذه اللحظة بالذات. وكان أحد المساعدين يقبض على المطرقة الثقيلة، بينما كان المعلم يستخدم مطرقة أدق، وهو يشكل الضربات ممسكًا بقطعة الحديد بين الكلَّابات، ويدق على السندان دقات موقعة بالمطرقة التي يقبض عليها، ومن ثم كان رنينها يبلغ الباب المفتوح على مصراعيه -رنينًا واضحًا قويًّا في ذلك الصباح.

وعلى الدكة الطويلة التي اسودت من الزيت والمبارد الحديدية، وقف المساعد الأكبر وإلى جانبه «أوجست» وكان كل منهما مشغولًا بملزمته. ومن السقف فوقهم صدر هدير السيور التي تدور بسرعة والتي تدفع الألواح الخشبية، وحجر الطاحون، والمنفاخ، وآلة الثقوب، ذلك

أن كل شيء كان يعمل بالقوة المائية، وأومأ أوجست إلى صديقه عندما دخل مشيرًا إليه أن ينتظر عند الباب حتى يتاح للمعلم من الوقت ما يسمح بمقابلته.

واختلس هانز نظرة حيية إلى الكير، وإلى الألواح الخشبية، وإلى السيور التي تدور، وإلى عجلات البكر. وعندما انتهى المعلم من العمل الذي يقوم به أقبل على هانز وبسط له يدًا ضخمة دافئة وقال: «علق قلنسوتك هناك» مشيرًا إلى مسمار خال على الجدار.

– «تعال إلى هنا. هذا هو مكانك، وهذه ملزمتك».

وبهذا قاده أمام ملزمة في المؤخرة، ثم أوضح له كيف يستعمل ملزمته وكيف يضع كلا من مقعده وأدواته في الترتيب الصحيح.

– «لقد أخبرني أبوك منذ لحظة أنك لست هرقلًا، وهذا جلي تمامًا. ولكي تبدأ عليك أن تبتعد عن الكير، وذلك حتى يشتد عودك».

وزحف تحت المقعد وأخرج عجلة مسننة.

– «يجب أن تبدأ على هذه. فهذه العجلة المسننة ما زالت خشنة بعد أن خرجت من الفرن، كما أنها مغطاة بعقد صغيرة وارتفاعات، وعليك أن تزيلها وإلا ألحقت الضرر بالآلات الدقيقة».

دس العجلة في الملزمة، وتناول مبردًا صغيرًا وأراه كيف يقوم بالعمل.

– «والآن، امض في شغلك. ولكن لا تستخدم أيًّا من مباردي الأخرى! هذا العمل سيشغلك حتى منتصف النهار. وعندئذ يمكنك أن

تطلعني عليه. لا تقلق على شيء إلا على تعليماتك. لا يحتاج الصبي إلى التفكير».

وشرع هانز في البرادة.

صاح المعلم. «قف!.. ليس هكذا. ضع يدك اليمنى على الملزمة. أم تراك أشول؟».

– «كلا».

– «هذا جميل، سيكون كل شيء على ما يرام!».

وذهب إلى ملزمته القائمة بجوار الباب. وراقبه هانز كيف يعمل.

وما إن بدأ في ضرباته الأولى، حتى أدهشه أن العجلة أصبحت ناعمة تمام النعومة، وأنها صقلت بسهولة شديدة. وعندئذ رأى أن قمة الأسنان المدببة هي التي تزول بسرعة، وأن الأجزاء المحببة هي التي تحتاج إلى شيء من الجهد، ومن ثم بذل مجهودًا وانهمك في إزالتها. ولم يكن رأى منذ أيام طفولته حين كان يلعب بلعبه الطفولية شيئًا ممتعًا ملموسًا ونافعًا يخرج من بين يديه.

صاح المعلم: «ليس بهذه السرعة، عليك أن تستغرق وقتًا حين تمارس البرادة؛ واحد اثنين، واحد اثنين، واضغط على المبرد، وإلا أفسدت المبرد».

وكان المساعد الأكبر يريد أن يفعل شيئًا الآن باللوح الخشبي، ولم يستطع هانز أن يقاوم إغراء إلقاء نظرة. وضع مثقابًا من الصلب في مكانه من الآلة، وتحرك الحزام وأصدر المثقاب اللامع أزيزًا بينما أزال

المساعد نخالة الصلب الدقيقة المتآلقة.

وحوله في كل مكان كانت الأدوات، وكتل من الحديد والصلب والنحاس، وأعمال لم تنته بعد، والعجلات اللامعة، والأزاميل، والمثاقب والمخارز من كل شكل وحجم. وإلى جانب الكير، علقت المطرقة وأدوات الحدادة المختلفة، وعلى الجدران صفوف من المبارد، والمبارد القاطعة، وعلى الرفوف فوط الزيت، وفرش صغيرة، وورق الصنفرة، والمناشير، وعلب الزيت، والزجاجات وصناديق المسامير والقلاووظ. وكان حجر الطاحونة مستعملًا باستمرار.

ولاحظ هانز بشيء من الرضا أن يديه قد اسودتا فعلًا، وداعبه الأمل في أن تبدو العفريتة التي يرتديها مستعملة منذ زمن، ذلك أنه كانت ما زالت جديدة وزرقاء بشكل بشع إذا قورنت بالعفريتات الملطخة التي يكسوها الهباب والتي يرتديها الآخرون.

وكلما أوغل الصباح، دخلت الحياة من الخارج باستمرار، وصل عمال من المصانع المجاورة لشحذ أجزاء من أدواتهم الصغيرة أو لإصلاحها. وجاء فلاح ليستفسر عن مكواة له كانوا يصلحونها وسب ولعن من كل قلبه حين سمع أنها ليست جاهزة. ثم ظهر صاحب مصنع يرتدي ثيابًا أنيقة فاصطحبه المعلم إلى حجرة جانبية.

وسط هذا كله استمر العمل في المحل من جانب الرجال والآلات والأحزمة الدافعة، استمر في يسر وسلاسة، ولأول مرة في حياته، سمع هانز وفهم شاعرية الكدح التي لها، بالنسبة للمبتدئ، شيء قابض فيه كثير من الإِثارة اللذيذة، ورأى شخصه الصغير وحياته التافهة تستوعب

في إيقاع واحد عظيم.

كانت هناك فترة من الاستراحة مقدارها ربع الساعة تحين في الساعة التاسعة، يتسلم فيها كل واحد رغيفًا من الخبز وكوبًا من عصير التفاح. وهكذا أتيحت الآن الفرصة لأوجست لتحية الصبي الجديد. فألقى إليه ببضع كلمات من التشجيع، ثم أخذ يهذي عن يوم الأحد القادم حيث سيقوم هو وأصدقاؤه بالاحتفال بأجورهم الأولى. سأله هانز عن نوع العجلة التي أعطوها له لبرادتها، فعلم أنها تنتمي إلى ساعة برجية، وحاول أوجست أن يشرح لهانز الجزء الذي تحتله من الميكانيزم فيما بعد، غير أن رئيسه بدأ في هذه اللحظة البرادة من جديد، فعاد كل منهم إلى مكانه بسرعة.

وفيما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة، بدأ هانز يحس بالتعب، وكانت ركبتاه وذراعه اليمنى تؤلمه قليلًا. وحاول أن يضع ثقله على ساق واحدة، ثم على الأخرى، وحاول أن يمدهما خفية فلم يساعده ذلك في شيء. ومن ثم فقد وضع المبرد على الأرض برهة واستند إلى الملزمة. لم يعره أحد التفاتًا. وبينما كان يقف هناك مستريحًا ومستمعًا لهدير الأحزمة من فوقه، شعر بدوار طفيف، فكان عليه أن يغمض عينيه لحظة. وبغتة رأى المعلم واقفًا وراءه.

– «والآن ماذا أصابك؟ أتعبت بهذه السرعة؟».

فاعترف هانز قائلًا: «نعم، شيئًا قليلًا»، فضحك المساعدون، وقال المعلم بهدوء: «سوف يكون الأمر على ما يرام حالًا. وتستطيع أن تأتي لترى كيف يتم اللحام!».

راقب هانز عملية اللحام بانبهار. كان حديد اللحام يحمى عليه أولًا، ثم تنثر على الجزء الساخن مادة كلوريد الزنك، ثم يسقط المعدن الأبيض من الحديد الساخن ويصدر عنه هسيس خافت.

– «خذ قطعة من القماش ونظف هذا الشيء جيدًا، إذ إن كلوريد الزنك يأكل ما يقع عليه، ومن ثم لا تترك شيئًا منه على سطح المعدن».

وقف هانز بعد ذلك أمام ملزمته مرة أخرى وطفق يحك عجلته الصغيرة بمبرده. كانت ذراعه تؤلمه، ويده اليسرى التي عليه أن يضغط بها على المبرد قد تقرحت وبدأ يستشعر وخز الألم.

وفي منتصف النهار، عندما بدأ المساعد الأكبر يتخلى عن مبرده ويذهب إلى حوض الاغتسال، أخذ هانز عمله إلى المعلم، فألقى عليه نظرة سريعة وقال:

«إنه على ما يرام. وتستطيع أن تتركه عند هذا الحد. هناك عجلة أخرى تشبهها في الصندوق الموجود تحت المقعد. وستبدأ فيها بعد الظهر».

غسل هانز يديه هو أيضًا وغادر المكان. كانت لديه ساعة لتناول الغداء. وتعقبه زميلان سابقان كانا معه في المدرسة عندما خرج إلى الشارع وجعلا يستهزئان به.

هتفا في صوت واحد: «حداد الامتحانات العامة!».

حث الخطى، فلم يكن يدري أهو راض حقًّا أم لا. لقد استمتع بالعمل في الورشة. ولكنه شعر بإرهاق شديد، إرهاق يائس.

وبينما كان يتوقع الاستمتاع بالجلوس في الرواق والإِقبال على

شيء يأكله، تذكر «إما» على نحو مفاجئ. كان قد نسيها طيلة الصباح. فتسلل بهدوء إلى حجرته الصغيرة، وألقى بنفسه على الفراش، وأخذ يجأر بتعاسته. أراد أن يبكي غير أن عينيه نضبتا. ورأى نفسه مرة أخرى ضحية لعاطفته التي استهلكته، ولكن بلا أمل. وأحس برأسه كأنما ينشق إلى نصفين، وبوخز في حلقه نتيجة لنحيبه المكبوت.

كان وقت الغداء تعذيبًا أي تعذيب! كان عليه أن يجيب عن أسئلة أبيه وأن يخبره بكل شيء، وعليه أن يقضي على أنواع نزواته الضعيفة لأن والده كان في حالة مزاجية رائقة. وما إن انتهت الوجبة، حتى هرع هانز إلى الحديقة، وأمضى ربع ساعة حالمًا في الشمس، ثم حان وقت ذهابه إلى الورشة.

كانت يداه قد تقرحتا بالفعل في نهاية الصباح، والآن بدأتا تؤلمانه بشدة، وفي المساء كانت قد تورمتا بحيث لم يكن يستطيع أن يلتقط أي شيء دون ألم. وقبل أن يتوقفوا عن العمل، كان عليه أن يعيد كل شيء إلى مكانه وفقًا لتوجيهات «أوجست».

كان يوم السبت أسوأ. كانت يداه تحترقان، وتحولت القروح إلى جروح. وكان الرئيس ثائرًا، وكان يلعن عند أي ذريعة ولو كانت طفيفة. وحاول أوجست تعزيته بأن جروحه سوف تشفى خلال أيام قلائل، ومن ثم سوف تخشوشن وتزداد صلابة، فلن يشعر بعد ذلك بأي تقرح، غير أن هانز كان مكتئبًا إلى درجة اليأس، ويختلس نظرة إلى الساعة طيلة الوقت، ويحك العجلة الصغيرة بلا رجاء.

* * *

وفي أثناء المساء بينما كان يقوم بترتيب المكان أنبأه أوجست بأنه سوف يذهب إلى «بيلاخ» غدًا مع عدد من الأصدقاء، وستكون الرحلة في غاية من المرح، ولابد ألا تفوت هانز بحال من الحوال. وسوف يمر عليه في الساعة الثانية. وافق هانز وإن كان يؤثر أن يمضي يوم الأحد كله راقدًا في البيت، ذلك أنه يشعر بتعاسة وإرهاق شديدين. وأعطته «آنا» العجوز مرهمًا ليديه المقروحتين، وذهب إلى الفراش الساعة الثامنة ونام على الفور إلى منتصف الصباح، فكان لا بد له من الإِسراع حتى يرافق أباه إلى الكنيسة.

وخلال الغداء، شرع يتحدث عن «أوجست» وقال إنه يريد أن يقوم بجولة عبر الحقول معه في العصر. ولم يبد والده أي اعتراض، بل أعطاه خمسين «فينيج» (عملة ألمانية) واشترط عليه شرطًا واحدًا هو أن يعود لتناول العشاء.

وفيم كان هانز يتجول في الشوارع في أشعة الشمس البديعة، وجد نفسه يستمتع بيوم الأحد مرة أخرى، وهذا شيء يحدث له لأول مرة منذ شهور. كان الشارع يبدو أكثر وقارًا، والشمس أشد إشراقًا، وكل شيء يبدو في الواقع أكثر مرحًا وجاذبية، حين تكون قد أمضيت أيامًا من العمل بأيد مقروحة وأطراف مكدودة تجرها جرًّا. فهم الآن الجزارين والدباغين والخبازين والحدادين الذين يتشمسون على الدكك أمام أكواخهم ويبدون سعداء سعادة ملكية، وكف عن النظر إليهم من عل بوصفهم أعضاء جديرين بالرثاء والشفقة في الطبقة الكادحة. بدأت عينه تهتم بالعمال، ورجال الأسفار، والصبيان المساعدين وهم يسيرون

في طابور أو يدخلون الحانات وقد زحزحوا قبعاتهم بزاوية خفيفة. ويرتدون ياقات بيضاء، وقد قاموا بتنظيف حللهم المخصصة ليوم الأحد. والأغلب الأعم هو أن ينضم الحرفيون للحرفيين، والخراطون للخراطين، والنقاشون للنقاشين حفاظًا على شرف المهنة، وكان صانعو الأقفال من بين هؤلاء جميعًا هم أرفع الحرفيين، وكذلك كان عمال المعادن هم أعلاهم رتبة. كانوا يتميزون جميعًا بشيء «بيتي» فيهم، فإذا كان لأحدهم لمسة من العبقرية أو الفخامة، لم يكن ما في حرفهم من جمال وكبرياء بعيدًا عن السطح.. وما زال لهذه الصفات حتى يومنا هذا شيء من الفرح والقيمة يزكيهم، بل إنها لتنعكس ولو انعكاسًا شاحبًا في أتعس صبي ترزي.

وبينما كان الميكانيكيون الشبان يقفون هادئين ومحترمين أمام منزل شولر، وهم يومئون ويثرثرون فيما بينهم، كنت تستطيع أن تتبين أنهم يؤلفون مجتمعًا موثوقًا به، ولا حاجة بهم إلى أي عنصر خارجي حتى لو كانوا يسعون إلى المتعة في أيام الآحاد.

كان هانز يشعر بهذا الشعور نفسه، وكان فخورًا بأن يكون واحدًا منهم. ومع ذلك أحس بشيء طفيف من عدم الارتياح لحظة الاستمتاع التي وضعوها ليوم الأحد، عارفًا بأنه حين تكون المسألة هي إمتاع أنفسهم، فإن الميكانيكيين الصغار لا يتورعون عن شيء، ولا يرضون بأنصاف الحلول. قد يرقصون مثلًا. ولم يكن هانز يعرف الرقص، ولكنه ظن أنه قد يستطيع التصرف، وأن يشارك في القصف الذي ينتج عن الشراب إذا لزم الأمر. ولم يكن معتادًا على شرب الكثير من الجعة،

وفي مسألة التدخين كان قد تقدم إلى مرحلة إنهاء سيجار دون كثير من الارتباك أو عدم الارتياح.

حياه «أوجست» بخفة دم احتفالية. وقال إن المساعد الأكبر لم يشأ أن يأتي، غير أن عضوًا في ورشة أخرى سينضم إليه بدلًا منه، وبذلك سيؤلفون فريقًا من أربعة، وهذا كاف جدًّا لإِشاعة المرح في المكان. وعلى كل منهم أن يحتسي من الجعة ما يشاء ما دام هو الذي سيدفع ثمن ما شرب. وقدم لهانز سيجارًا، ثم تجول أربعتهم خلال المدينة، ولم يسرعوا من خطاهم إلا عندما وصلوا إلى ميدان ليندن، وذلك حتى لا يتأخروا في الوصول إلى «بيلاخ».

كان النهر يتلألأ بالأسود والذهبي والأبيض، ومن خلال أشجار القبقب التي تجردت من أوراقها وأشجار الأكاسيا، يمكنك أن تشعر بشمس شهر أكتوبر المعتدلة تسطع من سماء زرقاء صافية خالية من السحاب. كان يومًا من أيام الخريف الهادئة الصافي الودود حيث يملأ الهواء كل ما كان في الصيف الماضي من جمال كأنه ذكرى مرحة لا يعكرها شيء، وحيث ينسى الأطفال الموسم ويتطلعون إلى الأزهار التي سوف يلتقطونها، ويحدق الشيوخ والعجائز بعيون متفكرة في الهواء من النافذة أو من الأريكة الموضوعة أمام منازلهم وكأنهم يستطيعون أن يروا الذكريات اللطيفة، لا تلك الذكريات الخاصة بالسنة نفسها، وإنما ذكريات ماضيهم كله تعيش محلقة في السماء الصافية الزرقاء. والشبان هم أيضًا في حالة مزاجية مرحة، وكل منهم يحتفل باليوم الجميل وفقًا لميوله وطبعه، سواء بإراقة الشراب أو بتضحية من نوع ما، ويغني أو

يرقص أو يشترك في لعبة الجياد، ذلك أن كعك الفاكهة الطازجة قد خبز، وعصير التفاح الجديد أو النبيذ يرقد متخمرًا في القبو، وآلات الكمان والهارمونيكا تحتفل بالأيام البديعة الأخيرة من السنة أمام الحانات وفي ميادين القرية داعية إلى الرقص والغناء والحب.

سار أصدقاؤنا الشبان قدمًا وبسرعة. ونفخ هانز في سيجاره بلا مبالاة مصطنعة، وأدهشه أن يجد نفسه في حالة جيدة. وتحدث إليه رائد الرحلة عن حرفته الرحالة، ولم يحاول أحد أن يستثني نفسه من إمعانه في الزهو –فقد كان هذا كله جزءًا من التمثيلية. ذلك أن أفضل صبي «صنايعي» معتدل عندما يكون واثقًا من مستعميه– سوف يحكي حين تحين المناسبة –فراهات عن أيامه الرحالة في أسلوب مفخم مبالغ فيه، فالشعور الرائع لحياة «الصنايعي» هو ملك مشترك للناس، كما أنه يستخلص من كل فرد المغامرات التقليدية القديمة بتزيينات جديدة، وكل صبي متجول– عندما يشرع في قصته –يكون فيه شيء من الخالد «تل أويلنشبيجل» (ومعناها تل المهزار) وعنصر لا يقل خلودًا من «شترويبينجر».

«يا لها من حياة شيطانية تلك التي عشتها في فرانكفورت حيث كنت في ذلك الوقت! هل حدثتكم أبدًا عن صاحب الحانوت الثري، وهو بهذه المناسبة وغد بشع، أراد أن يتزوج ابنة رئيسي، ولكنها أمرته بالرحيل لأنها كانت تؤثرني عليه وكانت حبيبتي منذ أربعة أشهر، ولولا أنني اختلفت مع الرجل العجوز لكنت الآن صهره في هذه الصفقة».

ومضى قائلًا كيف أن ذلك الوحش الذي هو رئيسه هدده بالضرب،

ذلك المورد للعبيد، وفي مرة من المرات سدد إليه لكمة، ولكنه لم يتجاسر على أن يقول شيئًا، كل ما في الأمر أنه هز مطرقته وألقى على رئيسه نظرة أجبرت الرجل على مغادرة المكان في هدوء، مفضلًا أن يحتفظ برأسه دون أن يمسه سوء، واختار أن يبعث إليه بقرار الفصل مكتوبًا فيما بعد، ذلك الجبان الشرير. كما قص عليهم أيضًا نبأ معركة كبيرة دارت في «أوفنبورج» حيث قام ثلاثة من صانعي الأقفال، بمن فيهم نفسه، بترك سبعة من عمال المصنع شبه صرعى، وقال: ومن يذهب منكم إلى أوفنبورج لا يحتاج إلا أن يسأل عن «سكورش» الضخم الذي ما زال حيًّا يرزق، وكان حاضرًا أثناء تلك المعركة.

كل هذا كان يقال بنبرة قاسية، ولكنها نبرة تتسم بالحيوية والود بحيث ابتهجوا جميعًا بالحادثة، وقرروا فيما بينهم وبين أنفسهم أن يعيدوا حكايتها فيما بعد على رفاق آخرين إذا سنحت الفرصة. ذلك أن لكل صانع أقفال رئيسًا له ابنة هي حبيبته، وربما سدد مطرقته يومًا أو آخر إلى رئيس سيئ أو تشاجر مع سبعة من عمال المصنع. وأحيانًا تقع هذه الحادثة في «بادن» أو تقع أحيانًا أخرى في «هسن» أو في سويسرًا، وقد يكون مبردًا بدلًا من مطرقة، أو قضيبًا من الحديد المتوهج، وقد يكون العمال خبازين أو ترزية بدلًا من أن يكونوا عمالًا في مصنع، غير أن الحكايات كانت دائمًا هي نفس الحكايات، والمستعمون يستمتعون بها دائمًا، ذلك لأنها كانت حكايات جيدة تشرف المهنة. وهذا لا يعني أنه حتى في الوقت الحاضر هناك أي نقص في الأفراد الرحالة الذين كانوا مرموقين سواء في الخبرة أو في الابتكار.

وكان «أوجست» مفتونًا بكل ما يسمع ويرى. ولم يكف أبدًا عن الضحك وهز رأسه بالموافقة، كان يشعر بالفعل أنه في منتصف الطريق لكي يكون مؤهلًا، ونافخًا لدخان التبغ في الهواء الذهبي بنوع من الرضا المزدري. وكان الراوي يدعم حججه، إذ كان يعني أن يفهم حضوره على أنه نوع من التنازل الطيب نظرًا لأنه بوصفه مساعدًا ملء مركزه، فإنه لا ينتمي لإخوة الصبية، وبخاصة في يوم من الأيام الآحاد، وكان عليه أن يخجل لأنه يساعد هذا الصبي على إنفاق أجره على الشراب.

كانوا قد قطعوا شوطًا طويلًا في الطريق مع التيار، وكان الاختيار الآن بين طريق منحدر للعربات انحدارًا بطيئًا ثم يلتف صاعدًا نحو التل وبين ممر عميق للمشاة لم يكن يغطي سوى نصف المسافة. فكان أن اختاروا الطريق الأول رغم ما فيه من غبار وطول وممرات المشاة جعلت للاستخدام اليومي وللسادة الذين يحبون أن يقوموا بجولة، أما الأناس العاديون فإنهم يؤثرون -رغم أنه يوم أحد- أن يسلكوا طريقًا ريفيًّا لم يكن قد فقد بعد في أعينهم جاذبيته الرومانسية. تسلق الممرات عميقة الانحدار ملائمة للعمال المزارعين أو للطبيعيين القادمين من المدينة، أعني إما للعمل أو للهواية، ولكنه لا يغري الناس بسلوكه. ومن ناحية أخرى فإن الطريق الريفي هو المكان الذي تستطيع أن تتجول فيه على راحتك، وأن تتحدث فيه أثناء سيرك، مدخرًا جلد حذائك وأفضل ثيابك التي ترتديها أيام الآحاد، هو طريق تستطيع أن تشاهد فيه الجياد والعربات، وتلتقي فيه بالجائلين من أمثالك، وتقابل فيه الفتيات في أبهى ثيابهن أو جماعات من الشباب تغني في سيرها، وحيث تتبادل نكتة، أو

تقف لمجاذبة أطراف الحديث، وإذا كنت بمفردك فيمكنك أن تطارد جماعة من الفتيات أو تضحك منهن، أو أن تسوي بعض الخلافات الشخصية التي تنشب بين الأصدقاء مع تبادل اللكمات!

وهكذا سلكوا طريق العربات في صعوده اللطيف وانحنائه المعتدل، شأنهم في ذلك شأن الأشخاص الذين لديهم متسع من الفراغ، وليسوا في عجلة من أمرهم. ونزع رائد الرحلة سترته وحملها في طرف عصا أسندها إلى كتفه، وبدلًا من حكاية المغامرات أخذ يصفر الآن بأسلوب مبهج طروب حتى وصلوا بعد ساعة من الوقت إلى «بيلاخ» ووجهت إلى هانز بعض عبارات السخرية، ولكنه لم يرد عليها بشدة، وإنما تفاداها «أوجست» أكثر مما تفاداها هو نفسه. وفي هذه الأثناء وجدوا أنفسهم أمام «بيلاخ».

* * *

كانت القرية بأكواخها ذات السقف القرميدية المغطاة بقش فضي –رمادي محصورة بين بساتين ترك عليها الخريف بصماته، وتطل عليها من الخلف غابات الجبل القاتمة.

لم يتفق الشبان على الحانة التي سوف يدخلونها. كانت «المرسى» تمتلك أفضل جعة، وكانت «البجعة» تقدم أفضل أنواع الكعك، وفي «الركن الحاد» تعيش الابنة الجميلة لصاحب الحانة. وفي نهاية الأمر تغلب رأى «أوجست» بتشريفهم لحانة «المرسى» بعد أن أضاف بغمزة من عينه أن «الركن الحاد» لن يهرب من مكانه، بينما هم يحتسون بعض المشروبات القليلة، ليذهبوا إلى زيارته بعد ذلك. وكانت هذه الخطة

تناسبهم جميعًا، ومن ثم فقد دخلوا القرية عبر حظائر الجياد وأكواخ الفلاحين الرابضة، تتدلى من نوافذها زهور الجرمانيوم، ومنها دلفوا إلى «المرسى» بشاراته الذهبية التي تتوهج في إغراء في أشعة الشمس بين شجرتين مستديرتين من أشجار البندق. ولسوء حظ الشبان الذين يريدون الدخول وجدوا الصالون مزدحمًا بالفعل، فكان عليهم العثور على مقعد في الحديقة.

كان «المرسى» في رأي زبائنه حانة بديعة، أي أنه ليس واحدًا من الحانات الريفية، ولكنه مشيد من طوب حديث وله نوافذ عديدة، ومقاعد بدلًا من الدكك، ومجموعة من الإعلانات، كما أنه يزهو بجرسونة نشأت في المدينة، وبمالك لا تقع عليه العين أبدًا مرتديًا أكمام القميص، وإنما يرتدي دائمًا حلة بنية محترمة. والواقع أنه كان مفلسًا، ولكنه قام بتأجير منزله من ضامنه الرئيسي، وهو صاحب مصنع كبير للجعة، ومنذ ذلك الحين ظل محتفظًا بمكانته. وكانت الحديقة تتألف من أشجار الأكاسيا، ومن تعريشة ضخمة بالأسلاك غمرت نصفها الآن كرمة برية.

هتف الشاب: «صحة طيبة، أيها الرفاق!» وقرع كأسه بكؤوس الثلاثة الآخرين. ولكي يجذب إليها الأنظار تجرع الكأس كلها دفعة واحدة.

ثم صاح: «إيه، يا أيتها الآنسة هناك، أيتها الشيء الجميل، هاتي كأسًا أخرى، لم يكن في تلك أي شيء!» وناولها إبريقه الفارغ عبر المائدة.

كانت الجعة رائعة، باردة دون أي مرارة، واستمتع هانز بكوبه. وشرب «أوجست» شرب خبير، وهو يلعق لسانه، وفي الوقت نفسه كان يدخن مثل مدخنة مصنع. وامتلأ هانز إعجابًا به.

لم يكن الأمر سيئًا، هذا المرح الصاخب يوم الأحد، وهو يجلس إلى المائدة كواحد اكتسب حق الوجود هناك في صحبة أناس عركوا الحياة، يعرفون كيف يمتعون أنفسهم. كان من الممتع الانضمام إليهم في ضحكهم، والمجازفة بنكتة هو الآخر، وكان من البديع حقًّا ومن شيم الكبار أن يدفع إبريقه على المائدة بعد أن يكون قد أفرغ كل محتوياته في جوفه وأن ينادي: «أريد أخرى يا آنسة». وكان من الممتع أيضًا أن تشرب في صحة شخص تتعرف عليه يجلس إلى مائدة أخرى، وأن تتخلص من عقب السيجارة في يدك اليسرى، وأن تدفع بقبعتك إلى مؤخرة الرأس كالفتيان الآخرين.

والآن بدأ الرحالة الغريب يسري فيه الدفء فأخذ يروي الحكاية، كان يعرف صانع أقفال في «أولم» يستطيع أن يتجرع عشرين كوبًا من جعة أولم الجيدة، وعندما يفرغ منها يمسح فمه قائلًا: «والآن، أعطني زجاجة من النبيذ!» وفي «كانشتات» تعرف على رجل مطافئ كان يستطيع أن يلتهم دستة من السجق، الواحدة بعد الأخرى، وقد كسب رهانًا على ذلك. ولكنه خسر الرهان الثاني. وكان قد راهن على أن يأكل كل صنف من أصناف قائمة الطعام في حانة صغيرة، وكان قد أكل تقريبًا كل شيء، ولكن كانت في نهاية القائمة أربعة أنواع من الجبن، وعندما أتى للثالث، دفع الطبق بعيدًا عنه قائلًا: «أوثر الموت على أن أكل قضمة أخرى!».

كانت هذه الحكايات تستقبل أيضًا بتصفيق كريم، وقد أثبتت أن هناك آكلين وشاربين يتجاوزون الأرقام القياسية في العالم، كما أنها تتيح لأي شخص من الحاضرين أن يروي حكاية عن بطل من هذا النوع وعن أفعاله. حكى أحدهم عن «رجل في شتوتجارت» وحكى آخر عن «تنين» في لودفيسجبروج، وفي قصته كان الموضوع سبعة عشرة ثمرة من البطاطس، وفي الأخرى كان إحدى عشرة كعكة مع السلاطة. وكانت هذه الحكايات تُروى في شيء من الوقار، وجلسوا جميعًا في وضع مريح معترفين بأن هناك كثيرًا من المواهب المدهشة والرجال الممتازين، بما في ذلك بعض المجانين غريبي الأطوار. هذا التناول العملي المرح هو التراث المشرف للنظرة الضيقة التي يمكن أن نجدها في كل حانة محلية، ويحاكيها الجيل الأصغر على النحو الذي يقلدون فيه من هم أكبر منهم سنًّا في الشرب، والحديث، والسياسة، والتدخين، والزواج، والموت.

وعند تناول الكوب الثالث سأل أحدهم عما إذا كانت هناك كعكات جديدة. فاستدعوا الجرسونة، وتلقوا الإِجابة، بأنه لم يعد هناك أي كعك، وانشغل الجميع بهذه المسألة: نهض «أوجست» وقال إذا لم يكن هناك أي كعك، فإنهم يستطيعون الانتقال إلى حانة أخرى. وأخذ رفيق من مكان آخر يلعن هذه الحانة، أما الرجل القادم من فرانكفورت، فكان هو الشخص الوحيد الذي من رأيه الاستمرار في البقاء. ذلك أنه تمكن من أن يعقد مع الجرسونة صلات طيبة، كما أنه وجد عدة مناسبات لملاطفتها. لاحظ هانز ذلك، بالإِضافة إلى تأثير الجعة،

فانفعل على نحو غريب، وقد ارتاح عندما رأى أنهم سينتقلون إلى حانة أخرى.

وعندما دفع «أوجست» فاتورة الحساب وعادوا جميعًا إلى الشارع بدأ هانز يشعر بتأثير أكواب الجعة الثلاثة. كان شعورًا لذيذًا، مزيجًا من التعب، وروحًا من الشيطنة، وكان مدركًا أيضًا بشيء أشبه بغشاوة رقيقة أمام عينيه جعلت كل شيء يبدو بعيدًا، بل يكاد يكون لا واقعيًّا وكأنه يرى الأشياء في حلم. وألفى نفسه يضحك طوال الوقت، واضعًا قبعته بزاوية أكثر خلاعة، وتخيل أنه يبدو في صورة رجل مخمور. وشرع الرجل القادم من شتوتجارت في الصفير مرة أخرى بطريقته العدوانية، وحاول هانز أن يسير على توقيع الصفير.

كان «الركن الحاد» هادئًا هدوءًا لا بأس به. كان هناك بعض الفلاحين يحتسون نبيذ الموسم الجديد. ولم تكن هنا جعة تقدم في أكواب بل زجاجات فحسب، وضعت زجاجة منها أمام كل منهم بمجرد جلوسه. وكان الرجل الرحالة متلهفًا على إثبات كرمه، فطلب كعكة تفاح كبيرة لهم جميعًا. وفجأة أحس هانز بجوع شديد، فالتهم عدة قطع الواحدة تلو الأخرى. جلس هناك على الدكة العريضة الصلبة، حالمًا مرتاحًا في الصالون البني العتيق. وكان البوفيه من الطراز القديم، والموقد الضخم ضائعين في الضوء المعتم، وفي قفص قديم له قضبان خشبية كانت تحوم عصفورتان زرقاوان ألقيت إليهما حفنة من التوت الأحمر من خلال القضبان.

وأقبل صاحب الحانة برهة مرحبًا بالضيوف. ولم يبدأ الحديث إلا

بعد هنيهة. وشرب هانز بضع جرعات من زجاجة الجعة وتساءل هل سيكون قادرًا على الانتهاء منها.

وشرع الرجل القادم من فرانكفورت الذي تعرفوا عليه في رواية حكاياته الخيالية عن أعياد الكروم في مقاطعة الراين، وعمله بوصفه رحالة، وحياته في المنازل المؤقتة، استعموا جميعًا إليه وهم في حالة معنوية عالية، ولم يكف هانز عن الضحك.

وفجأة، أحس أن ثمة خطأ فيه، الحجرة، المائدة، الزجاجة، الأكواب، وأشكال أصدقائه، كانت تسبح جميعًا في دوامة، تعلوها ضبابة بنية ناعمة، ولم يتخذوا أشكالهم الفردية المنفصلة إلا بعد أن نفض نفسه، ومن حين إلى آخر عندما كان حجم الضحك والحديث يتضخم، كان يضحك بصوت مرتفع أو يبدي ملاحظة ينساها فيما بعد تمام النسيان، وعندما كانوا يقرعون الكؤوس كان ينضم إليهم، وبعد ساعة أدهشه أن يرى زجاجته فارغة.

قال أوجست: «يبدو أنك على درجة عالية من الظمأ. ألك في واحدة أخرى؟».

أنغض هانز رأسه بابتسامة. كان يتخيل أن الخروج بالليل مسألة أخطر من هذا كثيرًا. والآن، عندما شرع صديقهم القادم من «فرانكفورت» في أغنية -شاركوا فيها جميعًا- أنشد هانز بحماسة لا تقل عن حماسة الباقين.

في هذه الأثناء، امتلأت الحجرة عن آخرها، وجاءت ابنة صاحب

الحانة لتقدم يد المعونة إلى الجرسونة. كان آنسة متينة البنيان، لها وجه موفور الصحة والنشاط وعيناها العسليتان تبعثان على الثقة.

وعندما وضعت زجاجة جديدة أمام هانز، أمطرها جاره النزق بصنوف غزله المزدهرة، ولكنها لم تعره التفاتًا. ولعلها أرادت أن تبدي عدم اكتراثها، أو ربما أعجبها رأسه الصبياني الرقيق، فلقد استدارت إلى هانز، ومررت يدها خلال شعره، ثم ذهبت إلى البوفيه.

وتبعها الرجل الرحالة، الذي كان قد شرب حتى الآن زجاجات ثلاث، وبذل مجهودًا لكي تبادله الحديث، ولكن دون جدوى. بل رشقته الفتاة الممتلئة بنظرة فاترة دون أن تجيب عليه، وأدارت له ظهرها، فعاد إلى المائدة، وخبط عليها بزجاجته الفارغة وناداها في انفجار مباغت من الانفعال، «هيا يا رفاق، استمتعوا بأنفسكم، صحة طيبة!».

وشرع يروي قصة عاطفية.

غير أن كل ما كان يسمعه هانز هو خليط حزين من الأصوات وعندما أوشك على الانتهاء من زجاجته الثانية، وجد مشقة في الكلام أو حتى في الضحك، فنهض وسار إلى قفص العصفورتين الزرقاوين، وأخذ يناغش الطائرين، ولكنه بعد أن خطا خطوتين أحس بالدوار، حتى كاد يسقط على الأرض، فعاد إلى مكانه مترنحًا في حذر.

وابتداء من هذه اللحظة أخذت معنوياته المرحة تتلاشى تدريجيًّا. كان يعرف أن «غشاوة» قد رانت على عينيه، وفقدت فكرة الشراب من أجل القصف والصخب جاذبيتها. ولما تخلف عنهم بمسافة، أبصر كل

أنواع المتاعب في انتظاره: رحلة العودة إلى البيت، مشهد قبيح مع أبيه، واليوم التالي في الورشة. ودهمه الصداع رويدًا رويدًا.

وكذلك كان الآخرون قد اكتفوا. فسأل «أوجست» في لحظة صفاء عن الفاتورة، وتسلم فكة قليلة من قطعة الماركات الثلاث التي أعطاها للجرسونة وساروا في الطريق يثرثرون ويتضاحكون مبهورين بضوء المساء الساطع. ولم يكن هانز قادرًا على أن يصلب عوده، بل استند في غير انتظام إلى «أوجست» وسمح لنفسه أن يعتمد عليه تمامًا.

وكان الرجل الرحالة قد تحول الآن إلى رجل عاطفي، فطفق يغني: «غدًا ينبغي أن أرحل عن هذا المكان» وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

وكانوا على وشك الاتجاه إلى مدينتهم، غير أنهم مروا على حانة «البجعة» فأصر الرجل الرحالة على الدخول. فانفصل عنهم هانز حينما وقفوا في مدخلها، وقال:

- «لا بد من أن أذهب إلى البيت».

فضحك الرجل الرحالة، وقال: «لن تستطيع أن تهتدي إليه وحدك».

- «أجل، أجل. لا بد لي... من العودة... إلى البيت».

- «لا بد أن تتناول على الأقل شفطة من البراندي.. أيها الصبي الصغير. فسوف تضعك على قدميك مرة أخرى، وتعدل معدتك. أجل سوف ترى».

كان هانز مدركًا أنه يمسك زجاجة في يده. فأراق منها قدرًا كبيرًا، وابتلع الباقي. فأحس بنار تحرق أحشاءه. وترنح على نحو ما هابطًا

درجات السلم الخارجية، ولم يعرف كيف أفلح في الخروج من القرية؛ المنازل والأسيجة، والحدائق، سبحت جميعها أمام ناظريه في كل الاتجاهات.

رقد تحت شجرة تفاح في الغيضة المطلولة. مشاعر التقزز والنفور، مخاوف معذبة، وأفكار متناثرة منعته من النوم. أحس بالخزي والعار. كيف يمكن أن يعود إلى البيت؟ ماذا يمكن أن يقول لأبيه؟ ماذا يمكن أن يحدث له غدًا. شعر بأنه محطم بائس، وكأنه لا بد له من الراحة والنوم والتكفير إلى الأبد، أحس بالوجع في رأسه وعينيه، ولم يكن يملك القوة الكافية للنهوض واستكمال طريقه.

وبغتة، عاوده مرحه السابق كموجة متأخرة هاربة، فاستجمع تقطيبة على وجهه، وأخذ ينشد لنفسه:

«أوه أيتها الحبيبة أوجستين، أوجستين، أوجستين، أيتها الحبيبة أوجستين، أنت لي كل شيء».

ولكنه لم يكد ينتهي من غنائه حتى شعر بالغثيان وانسال عليه طوفان حزين من الصور المشوشة وذكريات العار، واستبد به لوم النفس، فتأوه بصوت مرتفع، واستغرق في النحيب فوق العشب.

وبعد ساعة، وكانت الظلمة قد سادت بالفعل، نهض من مكانه وأخذ يهبط التل مترنحًا وبخطوات غير منتظمة وهو يشعر بالألم.

أخذ السيد جيبنرات يسب ويلعن حين لم يحضر ابنه على العشاء. وعندما دقت الساعة التاسعة ولم يزل هانز غائبًا، تناول عصا غليظة لم

تبرح مكانها منذ مدة طويلة. وقد ظن الصبي أنه قد كبر على العصا الأبوية، أحقًّا قد كبر؟ فليكن، ثمة مفاجأة طيبة تنتظره حين عودته إلى البيت! وفي الساعة العاشرة أوصد الباب، وإذا كان الابن يريد أن ينغمس في عربدات الليل، فسوف يرى عاجلًا ما وصل إليه.

ومع ذلك لم ينم السيد جيبنرات، بل ظل ساهرًا يتملكه غضب يتصاعد كل ساعة مرهفًا سمعه ليد تلمس أكرة الباب وتجذب الجرس في وجل، تصور المشهد –على ذلك الفاسق أن يعي الدرس جيدًا! من المحتمل أنه سيكون مخمورًا، ولكنه سرعان ما يفيق ويعود إلى رشده، ذلك العربيد التعس البائس! حتى لو كلفه ذلك تحطيم كل عظمة في جسده.

وأخيرًا تغلب عليه النوم وعلى غضبه.

وفي هذه اللحظة نفسها كان موضوع هذه التهديدات يتحرك ببطء، باردًا صامتًا في مياه النهر المعتمة. كان قد بلغ الغاية من التقزز والعار والأسى. وليل الخريف الأزرق البارد ينظر من علٍ على جسده النحيل القاتم، وكانت المياه السوداء تتراقص فوق يديه وشعره وشفتيه الخاليتين من الدماء. ومن المحتمل أن أحدًا لم يره سوى عابر سبيل خجول قبل الفجر مباشرة، أبصره وهو يتسلل صامتًا عبر النهر. ولم يعرف أحد كيف وصل إلى اقتحام تلك المياه. ربما تجول من الممر ثم تسلل إلى نقطة عميقة على المنحدر، وربما يكون مخمورًا فقد توازنه. ولعل الماء قد مارس عليه فتنة حين انحنى عليه، وكان الليل والقمر الشاحب يبدوان في أكمل سكينة، وأعمق راحة، بحيث أن الإِجهاد

والخوف قد دفعاه بلطف لا يرحم إلى ظلال الموت.

عثروا عليه في الصباح، وحملوا جثته إلى البيت. نحى الأب عصاه جانبًا، وقد استولى عليه الذعر، وتقلص غضبه المتراكم. ومن الحق أنه لم يذرف أي دموع. ولم يظهر إلا قليلًا من العاطفة، غير أنه في الليلة التالية ظل ساهرًا لم يذق طعم النوم مرة أخرى، ومن حين إلى آخر كان ينظر من خلال فتحة الباب إلى ابنه الصامت المسجّى على الفراش النظيف ساكنًا كما كان دائمًا، والذي كان يبدو بجبينه الأشم ووجهه الشاحب الذكي كأنه مخلوق على حدة، من حقه الفطري أن يتمتع بمصير مختلف عن عامة الناس. وكان الجلد على جبينه ويديه قد دعك قليلًا، ويميل إلى الزرقة، والقسمات الوسيمة ساكنة، وجفناه البيضاوان قد أغلقا على عينيه، والشفتان المفترقتان قليلًا قد ارتسم عليهما تعبير بالرضا، يكاد يكون ابتهاجًا. وكأن الصبي قد ازدهر فجأة، وانتزع من مسيرته المرحة، وحتى أبوه في إعيائه وحزنه المنعزل كان ضحية لهذا الوهم السعيد.

وجلبت الجنازة عددًا كبيرًا من المشيعين والمتفرجين. وأصبح هانز جيبنرات شخصية شهيرة مرة أخرى، يهتم بها كل الناس، وشارك المدرسون مرة أخرى ورئيس الدير والقس في مصيره، فقد ظهروا جميعًا مرتدين الفراك والقبعات العالية الوقورة، وساروا خلف النعش ووقفوا لحظة أمام القبر وهم يتهامسون فيما بينهم. وكان مدرس اللاتيني يبدو حزينًا بوجه خاص، وهمس الرئيس قائلًا: «أجل كان من الممكن أن يكون شخصًا مرموقًا. أليس من الفاجع أن ينكب المرء في كثير من

الأحيان في أفضل تلاميذه؟».

ومع الأب «وآنا» العجوز التي كانت تبكي بلا انقطاع، بقي «فليج» في المؤخرة عند القبر.

قال متعاطفًا: «أجل، الأمر شاق يا جيبنرات. أنا أيضًا كنت فخورًا بالولد».

فتنهد جيبنرات قائلًا: «هذا شيء غير مفهوم. كان موهوبًا للغاية، وكان كل شيء يسير على ما يرام، في المدرسة، والامتحان، ثم فجأة تقع مصيبة تتلوها أخرى».

وأشار الإسكافي إلى الرجال الذين ارتدوا الفراك، وهم يختفون من خلال بوابة المدفن.

قال بصوت هادئ: «لم يتبق غير قليل من السادة الذين ساعدوا في دفعه إلى هذا».

قال جيبنرات: «ماذا؟» ثم حملق خائفًا غير مصدق: «بحق السماء، كيف؟».

– «لا تجزع أيها الجار.. أنا لم أقصد سوى مدرسيه».

– «ماذا تقصد بالضبط؟».

– «أوه، لا شيء. مجرد ما قلت –وأنت وأنا على السواء –ألا تظن أننا خذلنا الصبي على أنحاء كثيرة؟».

انبسطت سماء زرقاء صافية على المدينة الصغيرة، وتلألأ النهر في الوادي، ومن بعيد بدت السفوح المكسوة بأشجار الصنوبر كأنها غمامة

زرقاء خلابة. وابتسم الإسكافي ابتسامة يجللها الحزن والأسى. وأخذ ذراع الرجل الذي كان يفارق وراءه السكون والأفكار الحزينة التي ازدحمت في عقله، وكان يشق طريقه بخطوات مترددة فارقها الارتياح إلى المستويات الأدنى من وجوده السوي.

تمت

* * *